عصر المأمون

المجلد الثالث

أحمد فريد رفاعي

عصر المأمون (المجلد الثالث)

عصر المأمون (المجلد الثالث)

تأليف
الدكتور أحمد فريد رفاعي

هنداوي | كلمات

عصر المأمون (المجلد الثالث)

الدكتور أحمد فريد رفاعي

رقم إيداع
تدمك:

كلمات عربية للترجمة والنشر
جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢ + **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لشركة كلمات عربية للترجمة والنشر. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Kalimat Arabia.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

باب المنثور ٧
باب الرسائل ١١٣
باب المنظوم ١٨٣
بيان المصادر العربية والإفرنجية الهامة التي عولنا عليها في المراجعة لكتاب عصر المأمون ٢٧٩

باب المنثور

(١) نصوص كتب الأمين والمأمون

١

نص كتاب الأمين إلى المأمون؛ وهو الكتاب الذي أشرنا إليه في الجزء الأول. إذا ورد عليك كتاب أخيك — أعاذه الله من فقدك — عند حلول ما لا مرد له ولا مدفع، مما قد أخلف وتناسخ الأمم الخالية، والقرون الماضية، بما عزاك الله به. واعلم أن الله جل ثناؤه، قد اختار لأمير المؤمنين أفضل الدارين، وأجزل الحظين، فقبضه الله طاهرًا زاكيًا، قد شكر سعيه، وغفر ذنبه، إن شاء الله. فقم في أمرك قيام ذي الحزم والعزم، والناظر لأخيه ونفسه، وسلطانه وعامة المسلمين. وإياك أن يغلب عليك الجزع، فإنه يحبط الأجر، ويعقب الوزر، وصلوات الله على أمير المؤمنين حيا وميتًا، وإنا لله وإنا إليه راجعون. وخذ البيعة على من قبلك، من قوادك وجندك، وخاصتك وعامتك، لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشريطة التي جعلها لك أمير المؤمنين: من نسخها له وإثباتها، فإنك مقلد من ذاك، ما قلدك الله وخليفته.

وأعلم من قبلك رأيي في صلاحهم، وسد خلتهم، والتوسعة عليهم؛ فمن أنكرته عند بيعته، أو اتهمته على طاعته، فابعث إلي برأسه مع خبره. وإياك وإقالته، فإن النار أولى به. واكتب إلى عمال ثغورك، وأمراء أجنادك، بما طرقك من المصيبة بأمير المؤمنين؛ وأعلمهم أن الله لم يرض الدنيا له ثوابًا، حتى قبضه إلى روحه وراحته وجنته، مغبوطًا محمودًا، قائدًا لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله، ومرهم أن يأخذوا البيعة على أجنادهم، وخواصهم وعوامهم، على مثل ما أمرتك به، من أخذها على من قبلك؛ وأوعز إليهم في ضبط ثغورهم، والقوة على عدوهم، إني متفقد حالاتهم، ولام شعثهم، وموسع عليهم، ولا آنٍ في تقوية

أجنادي وأنصاري. ولتكن كتبك إليهم كتبًا عامة لتقرأ عليهم، فإن ذلك ما يسكنهم، ويبسط أملهم. واعمل بما نأمر به لمن حضرك، أو نأى عنك من أجنادك على حسب ما ترى وتشاهد. فإن أخاك يعرف حسن اختيارك، وصحة رأيك، وبعد نظرك، وهو يستحفظ الله لك، ويسأله أن يشد بك عضده، ويجمع بك أمره، إنه لطيف لما يشاء. وكتب بكر بن المعتمر بين يدي وإملائي في شوال سنة ١٩٢هـ.

٢

وهذا كتاب محمد الأمين إلى أخيه صالح:

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا ورد عليك كتابي هذا، عند وقوع ما قد سبق في علم الله، ونفذ من قضائه، في خلفائه وأوليائه، وجرت به سنته في الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. فاحمدوا الله على ما صار إليه أمير المؤمنين، من عظيم ثوابه ومرافقة أنبيائه، صلوات الله عليهم، إنا إليه راجعون؛ وإياه نسأل أن يحسن الخلافة على أمة نبيه محمد ﷺ. وقد كان لهم عصمة وكهفًا، وبهم رءوفًا رحيمًا.

فشمر في أمرك، وإياك أن تلقى بيديك، فإن أخاك قد اختارك لما استنهضك له، وهو متفقد مواقع فقدانك، فحقق ظنه، ونسأل الله التوفيق. وخذ البيعة على من قبلك، من ولد أمير المؤمنين، وأهل بيته ومواليه وخاصته وعامته لمحمد أمير المؤمنين، ثم لعبد الله ابن أمير المؤمنين، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشريطة التي جعلها أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من فسخها على القاسم أو إثباتها. فإن السعادة واليمن في الأخذ بعهده والمضي على مناهجه.

واعلم من قبلك من الخاصة والعامة رأيي في استصلاحهم، ورد مظالمهم، وتفقد حالاتهم، وأداء أرزاقهم، وأعطياتهم عليهم. فإن شغب شاغب، أو نعر ناعر، فاسط به سطوة تجعله نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين. واضمم إلى الميمون ابن الميمون الفضل بن الربيع ولد أمير المؤمنين وخدمه وأهله؛ ومره بالمسير معهم فيمن معه، وجنده ورابطته؛ وصير إلى عبد الله بن مالك أمر العسكر وأحداثه، فإنه ثقة على ما يلي، مقبول عند العامة؛ واضمم

إليه جميع جد الشرط، من الروابط وغيرهم، إلى من معه من جنده؛ ومره بالجد والتيقظ، وتقديم الحزم في أمره كله، ليله ونهاره. فإن أهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يغتنمون مثل حلول هذه المصيبة؛ وأقر حاتم بن هرثمة على ما هو عليه، ومره بحراسة ما يحفظ به قصور أمير المؤمنين، فإنه ممن لا يعرف إلا بالطاعة، ولا يدين إلا بها، بمعاقد من الله، مما قدم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء؛ ومر الخدم بإحضار روابطهم، من يسد بهم وبأجنادهم مواضع الخلل من عسكرك، فإنهم حد من حدودك؛ وصير مقدمتك إلى أسد بن يزيد بن مزيد، وساقتك إلى يحيى بن معاذ، فيمن معه من الجنود، ومرهما بمناوبتك في كل ليلة.

والزم الطريق الأعظم، ولا تعدون المراحل، فإن ذلك أرفق بك؛ ومر أسد بن يزيد، أن يتخير رجلا من أهل بيته أو قواده، فيصير إلى مقدمته، ثم يصير أمامه، لتهيئة المنازل، أو بعض الطريق، فإن لم يحضرك في عسكرك بعض من سميت، فاختر لمواضعهم من تثق بطاعته، ونصيحته وهيبته، عند العوام؛ فإن ذلك لن يعوزك، من قوادك وأنصارك، إن شاء الله.

وإياك أن تنفذ رأيًا، أو تبرم أمرًا، إلا برأي شيخك، وبقية آبائك، الفضل بن الربيع، وأقرر جميع الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك؛ ولا تخرجن أحدًا منهم، من ضمن ما يلي، إلى أن تقدم عليّ. وقد أوصيت بكر بن المعتمر بما سيبلغكه؛ واعمل في ذلك بقدر ما تشاهد وترى. وإن أمرت لأهل العسكر بعطاء أو رزق فليكن الفضل بن الربيع المتولي لإعطائهم، على دواوين يتخذها لنفسه، بمحضر من أصحاب الدواوين؛ فإن الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمات الأمور. وأنفذ إليّ عند وصول كتابي هذا إليك إسماعيل بن صبيح، وبكر بن المعتمر، على مركبيهما من البريد؛ ولا يكون لك عرجة ولا مهلة، بموضعك الذي أنت فيه، حتى توجه إليّ بعسكرك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله. أخوك يستدفع الله عنك، ويسأله لك حسن التأييد برحمته. وكتب بكر بن المعتمر بين يدي وإملائي في شوال سنة ١٩٢هـ.

(٢) القول بخلق القرآن

وهاك مثلًا مما كتبه المأمون إلى ولاته في الأخذ بمذهبه في القول بخلق القرآن، وهو ما أرسله إلى عالمه إسحاق بن إبراهيم وما يرويه لنا الطبري مما حصل.

أما الكتاب فهو:

أما بعد، فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم، ومواريث النبوة التي أورثهم، وأثر العلم الذي استودعهم، والعمل بالحق في رعيتهم، والتشمير لطاعة الله فيهم؛ والله يسأل أمير المؤمنين، أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته، والإقساط فيما ولاه الله من رعيته، برحمته ومنته؛ وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم، والسواد الأكبر، من حشو الرعية، وسفلة العامة، ممن لا نظر له ولا روية، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله، وقصور أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم، ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكر والتذكر؛ وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى، وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين، واتفقوا غير متعاجمين، على أنه قديم أول، لم يخلقه الله، ويحدثه ويخترعه، وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه، الذي جعله لما في الصدور شفاء، وللمؤمنين رحمةً وهدى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. فكل ما جعله الله فقد خلقه، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾. وقال عز وجل: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾. فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها، وتلا به متقدمها، وقال: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾. وكل محكم مفصل، فله محكم مفصل، والله محكم كتابه ومفصله، فهو خالقه ومبتدعه؛ ثم هم الذين جادلوا بالباطل، فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته، مبطل قولهم، ومكذب دعواهم، يرد عليهم قولهم ونحلتهم، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة؛ فاستطالوا بذلك على الناس، وغروا به الجهال، حتى

مال قوم من أهل السمت الكاذب، والتخشع لغير الله، والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سيئ آرائهم، تزينا بذلك عندهم، وتصنعًا للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم، فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم، ونفذت أحكام الكتاب بهم، على دغل دينهم، ونغل أديمهم، وفساد نياتهم ويقينهم؛ وكان ذلك غايتهم التي إليها جروا، وإياها طلبوا في متابعتهم، والكذب على مولاهم، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب، ألا يقولوا على الله إلا الحق، ودرسوا ما فيه، أولئك الذين أصمهم الله، وأعمى أبصارهم، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة، ورءوس الضلالة، المنقوصون من التوحيد حظًا، والمخسوسون من الإيمان نصيبًا، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب، ولسان إبليس الناطق في أوليائه، والهائل على أعدائه، من أهل دين الله، وأحق من يتهم في صدقه، وتطرح شهادته، ولا يوثق بقوله ولا عمله، فإنه لا عمل إلا بعد يقين، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام، وإخلاص التوحيد؛ ومن عمى عن رشده وحظه، من أهل الإيمان بالله وبتوحيده، كان عما سوى ذلك من عمله، والقصد في شهادته، أعمى وأضل سبيلا؛ ولعمر أمير المؤمنين أن أحجى الناس بالكذب في قوله، وتخرص الباطل في شهادته من كذب على الله ووحيه، ولم يعرف الله حقيقة معرفته، وأن أولاهم برد شهادته، في حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه، وبهت حق الله بباطله، فاجمع من بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون، في خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلده الله، واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وخلوص توحيده ويقينه، فإذا أقروا بذلك، ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس، ومسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يُقر أنه مخلوق محدث ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده؛ واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك، عن قضاة أهل عملك في مسألتهم، والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرف عليهم، وتفقد آثارهم، حتى لا تنفذ أحكام الله، إلا بشهادة أهل البصائر في الدين، والإخلاص للتوحيد؛ واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله. وكتب في شهر ربيع الأول سنة ٢١٨هـ.

وكتب المأمون، إلى إسحاق بن إبراهيم، في أشخاص سبعة نفر، منهم: محمد بن سعد كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستملي يزيد بن هارون، ويحيى بن معين، وزهير بن حرب أبو خيثمة، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن الدورقي، فأشخصوا إليه، فامتحنهم، وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعًا أن القرآن مخلوق، فأشخصهم إلى مدينة السلام، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره، فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء، والمشايخ من أهل الحديث، فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلى سبيلهم، وكان ما فعل إسحاق بن إبراهيم من ذلك بأمر المأمون.

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم:

أما بعد، فإن من حق الله على خلفائه في أرضه، وأمنائه على عباده، الذين ارتضاهم لإقامة دينه، وحملهم رعاية خلقه، وإمضاء حكمه وسننه، والائتمام بعدله في بريته، أن يجهدوا لله أنفسهم، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم، ويدلوا عليه — تبارك اسمه وتعالى — بفضل العلم الذي أودعهم، والمعرفة التي جعلها فيهم، ويهدوا إليه من زاغ عنه، ويردوا من أدبر عن أمره، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم، ويقفوهم على حدود إيمانهم، وسبيل فوزهم وعصمتهم، ويكشفوا لهم عن مغطيات أمورهم، ومشتبهاتها عليهم، بما يدفعون الريب عنهم، ويعود بالضياء والبينة على كافتهم؛ وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم، إذ كان جامعًا لفنون مصانعهم، ومنتظمًا لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم، ويتذكروا أن الله مرصد من مساءلتهم عما حملوه، ومجازاتهم بما أسلفوه، وقدموا عنده؛ وما توفيق أمير المؤمنين، إلا بالله وحده، وحسبه الله وكفى به. ومما بينه أمير المؤمنين برويته، وطالعه بفكره، فتبين عظيم خطره، وجليل ما يرجع في الدين من وكفه وضرره ما ينال المسلمون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماما لهم، وأثرًا من رسول الله ﷺ، وصفيه محمد ﷺ باقيا لهم، واشتباهه على كثير منهم، حتى حسن عندهم، وتزين في عقولهم، ألا يكون مخلوقًا، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله، الذي بان به عن خلقه، وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته، وإنشائها بقدرته، والتقدم عليها بأوليته، التي لا يبلغ أولاها، ولا يدرك مداها، وكان كل شيء دونه، خلقا من خلقه، وحدثا هو المحدث له، وإن كان القرآن ناطقًا به، ودالا عليه، وقاطعا للاختلاف فيه، وضاهوا به قول النصارى، في ادعائهم في

عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق، إذ كان كلمة الله، والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. وتأويل ذلك: إنا خلقناه، كما قال جل جلاله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. فسوى عز وجل، بين القرآن، وبين هذه الخلائق، التي ذكرها في شية الصنعة، وأخبر أنه جاعله وحده، فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾. فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، ولا يحاط إلا بمخلوق، وقال لنبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾. وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾. وقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾. وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم، أنهم قالوا: ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾. ثم أكذبهم على لسان رسوله، فقال لرسوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَآءَ بِهِ مُوسَى﴾. فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذكرًا، وإيمانًا ونورًا وهدى ومباركًا وعربيا وقصصا، فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ﴾. وقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾. وقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾. فجعل له أولًا وآخرًا، ودل عليه، أنه محدود مخلوق، وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن؛ الثلم في دينهم، والحرج في أمانتهم، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرفوا، ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده وشبهوه به، والإشباه أولى بخلقه، وليس يرى أمير المؤمنين، لمن قال بهذه المقالة حظًا في الدين، ولا نصيبًا من الإيمان واليقين، ولا يرى أن يحل أحدًا منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة، ولا صدق في قول ولا حكاية، ولا تولية لشيء من أمر الرعية؛ وإن ظهر قصد بعضهم، وعرف بالسداد مسدد فيهم، فإن الفروع مردودة إلى أصولها، ومحمولة في الحمد والذم عليها، ومن كان جاهلا بأمر دينه، الذي أمره الله به، من وحدانيته، فهو بما سواه أعظم جهلا، وعن الرشد في غيره أعمى وأضل سبيلا.

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين، بما كتب به إليك، وانصصهما عن علمهما في القرآن، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين، إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنه لا توحيد لمن لم يُقر بأن القرآن مخلوق، فإن قالا بقول أمير المؤمنين في ذلك فتقدّم إليهما في امتحان من يحضر مجالسهما، بالشهادات على الحقوق، ونصهم عن قولهم في القرآن، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق، أبطلا شهادته، ولم يقطعا حكمًا بقوله، وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد في أمره، وافعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة، وأشرف عليهم إشرافًا يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته، ويمنع المرتاب من إغفال دينه، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك إن شاء الله.

ثم لننظر ما حصل بعد ذلك مما يرويه لنا الطبري قال: فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين، وأحضر أبا حسان الزيادي، وبشر بن الوليد الكندي، وعلي بن أبي مقاتل، والفضل بن غانم، والذيال بن الهيثم، وسجادة، والقواريري، وأحمد بن حنبل، وقتيبة، وسعدويه الواسطي، وعلي بن الجعد، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وابن الهرش، وابن علية الأكبر، ويحيى ابن عبد الرحمن العمري، وشيخًا آخر من ولد عمر بن الخطاب، كان قاضي الرقة وأبا نصر التمار وأبا معمر القطيعي، ومحمد بن حاتم بن ميمون، ومحمد بن نوح المضروب، وابن الفرخان، وجماعة منهم النضر بن شميل، وابن علي بن عاصم، وأبو العوام البزاز، وابن شجاع، وعبد الرحمن بن إسحاق؛ فأدخلوا جميعًا على إسحاق، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين، حتى فهموه، ثم قال لبشر بن الوليد: ما تقول في القرآن؟ فقال: قد عرفت مقالتي لأمير المؤمنين غير مرة، قال: فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى، فقال: أقول القرآن كلام الله، قال: لم أسألك عن هذا، أمخلوق هو؟ قال: الله خالق كل شيء، قال: ما القرآن شيء؟ قال: هو شيء، قال: فمخلوق؟ قال: ليس بخالق، قال: ليس أسألك عن هذا، أمخلوق هو؟ قال: ما أحسن غير ما قلت لك، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه، وليس عندي غير ما قلت لك، فأخذ إسحاق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه، فقرأها عليه، ووقفه عليها، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله أحدًا فردًا لم يكن قبله شيء، ولا بعده شيء، ولا يشبهه شيء من خلقه، في معنى من المعاني، ولا وجه من الوجوه، قال: نعم، وقد كنت أضرب الناس على دون هذا؛ فقال للكاتب: اكتب ما قال.

ثم قال لعلي بن أبي مقاتل: ما تقول يا علي؟ قال: قد سمعت كلامي لأمير المؤمنين في هذا غير مرة، وما عندي غير ما سمع، فامتحنه بالرقعة، فأقرّ بما فيها، ثم قال: القرآن مخلوق؟ قال: القرآن كلام الله، قال: لم أسألك عن هذا، قال: هو كلام الله وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا، فقال للكاتب: اكتب مقالته.

ثم قال للذيال نحوا من مقالته لعلي بن أبي مقاتل، فقال له مثل ذلك. ثم قال لأبي حسان الزيادي: ما عندك؟ قال: سل عما شئت، فقرأ عليه الرُّقعة، ووقفه عليها فأقرّ بما فيها. ثم قال: من لم يقل هذا القول فهو كافر، فقال: القرآن مخلوق هو؟ قال: القرآن كلام الله والله خالق كل شيء، وما دون الله مخلوق، وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم، وقد سمع ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم، وقد قلده الله أمرنا، فصار يقيم حجنا وصلاتنا، ونؤدي إليه زكاة أموالنا، ونجاهد معه، ونرى إمامته إمامة، وإن أمرنا ائتمرنا، وإن نهانا انتهينا، وإن دعانا أجبنا، قال: القرآن مخلوق هو؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته، قال: إن هذه مقالة أمير المؤمنين، قال: قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس، ولا يدعوهم إليها، وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتني به، فإنك الثقة، المأمون عليه، فيما أبلغتني عنه من شيء، فإن أبلغتني عنه بشيء صرت إليه، قال: ما أمرني أن أبلغك شيئًا، قال علي بن أبي مقاتل: قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في الفرائض والمواريث، ولم يحملوا الناس عليها؛ قال له أبو حسان: ما عندي إلا السمع والطاعة، فمرني آتمر، قال: ما أمرني أن آمرك، وإنما أمرني أن أمتحنك.

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل، فقال له: ما تقول في القرآن؟ قال: هو كلام الله، قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله لا أزيد عليها، فامتحنه بما في الرقعة، فلما أتى إلى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وأمسك عن لا يشبهه شيء من خلقه، في معنى من المعاني، ولا وجه من الوجوه؛ فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر، فقال — أصلحك الله —: إنه يقول: سميع من أذن، بصير من عين، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل: ما معنى قوله سميع بصير؟ قال: هو كما وصف نفسه، قال: فما معناه؟ قال: لا أدري هو كما وصف نفسه؛ ثم دعا بهم رجلًا رجلًا كلهم يقول: القرآن كلام الله، إلا هؤلاء النفر: قتيبة، وعبيد الله بن محمد بن الحسن، وابن علية الأكبر، وابن البكاء، وعبد المنعم بن إدريس ابن بنت وهب بن منبه، والمظفر ابن مرجا، ورجلا ضريرًا ليس من أهل الفقه، ولا يعرف بشيء منه إلا أنه دس في ذلك الموضع، ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقة، وابن الأحمر،

فأما ابن البكاء الأكبر فإنه قال: القرآن مجعول لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، والقرآن محدث لقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ قال له إسحاق: فالمجعول مخلوق؟ قال: نعم، قال: فالقرآن مخلوق؟ قال: لا أقول مخلوق ولكنه مجعول، فكتب مقالته، فلما فرغ من امتحان القوم وكتب مقالاتهم اعترض ابن البكاء الأصغر فقال: — أصلحك الله —: إن هذين القاضيين أئمة، فلو أمرتهما فأعادا الكلام! قال له إسحاق: هما من يقوم بحجة أمير المؤمنين، قال: فلو أمرتهما أن يسمعانا مقالتهما لتحكى ذلك عنهما! قال له إسحاق: إن شهدت عندهما بشهادة فستعلم مقالتهما إن شاء الله؛ فكتب مقالة القوم رجلا رجلا ووجهت إلى المأمون، فمكث القوم تسعة أيام ثم دعا بهم. وقد ورد كتاب المأمون، جواب كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم. وهاك هو ما نجعله ختامًا لكلمتنا.

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك جواب كتابه، كان إليك فيما ذهب إليه متصنعة أهل القبلة، وملتمسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة، من القول في القرآن، وأمرك به أمير المؤمنين، من امتحانهم، وتكشيف أحوالهم، وإحلالهم محالهم، تذكر إحضارك جعفر بن عيسى، وعبد الرحمن بن إسحاق، عند ورود كتاب أمير المؤمنين، مع من أحضرت ممن كان ينسب إلى الفقه، ويعرف بالجلوس للحديث، وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام، وقراءتك عليهم جميعا كتاب أمير المؤمنين، ومسألتك إياهم عن اعتقادهم في القرآن، والدلالة لهم على حظهم، وإطباقهم على نفي التشبيه، واختلافهم في القرآن، وأمرك من لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى، في السر والعلانية، وتقدمك إلى السندي، وعباس مولى أمير المؤمنين بما تقدمت به فيهم إلى القاضيين بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين، من امتحان من يحضر مجالسهما من الشهود، وبث الكتب إلى القضاة في النواحي من عملك بالقدوم عليك، لتحملهم وتمتحنهم على ما حده أمير المؤمنين، وتثبيتك في آخر الكتاب أسماء من حضر ومقالاتهم، وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت؛ وأمير المؤمنين يحمد الله كثيرًا كما هو أهله، ويسأله أن يصلي على عبده ورسوله محمد ﷺ، ويرغب إلى الله في التوفيق لطاعته، وحسن المعونة، على صالح نيته برحمته.

وقد تدبر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن، وما رجع إليك فيه كل امرئ منهم، وما شرحت من مقالتهم؛ فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد في نفي التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق، وادعى من تركه الكلام في ذلك واستعهاده

أمير المؤمنين، فقد كذب بشر في ذلك وكفر، وقال الزور والمنكر، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك، ولا في غيره، عهد ولا نظر أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص والقول بأن القرآن مخلوق، فادع به إليك، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وانصصه عن قوله في القرآن، واستتبه منه، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتبب من قال بمقالته إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه، وإن أصرّ على شركه، ودفع أن يكون القرآن مخلوقًا بكفره وإلحاده، فاضرب عنقه، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله، وكذلك إبراهيم بن المهدي فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا، فإنه كان يقول بقوله، وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالغ، فإن قال إن القرآن مخلوق، فأشهر أمره واكشفه، وإلا فاضرب عنقه، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله.

وأما علي بن أبي مقاتل فقل له: ألست القائل لأمير المؤمنين إنك تحلل وتحرم والمكلم له بمثل ما كلمته به، مما لم يذهب عنه ذكره؛ وأما الذيال بن الهيثم، فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله، وأنه لو كان مقتفيًا آثار سلفه، وسالكًا مناهجهم، ومحتذيا سبيلهم، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه؛ وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العوام، وقوله إنه لا يحسن الجواب في القرآن، فأعلمه أنه صبي في عقله، لا في سنه، جاهل، وأنه إن كان لا يحسن الجواب في القرآن فسيحسنه، إذا أخذه التأديب، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله.

وأما أحمد بن حنبل، وما تكتب عنه، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة، وسبيله فيها، واستدل على جهله، وآفته بها؛ وأما الفضل بن غانم، فأعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر، وما اكتسب من الأموال في أقل من سنة، وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله في ذلك، فإنه من كان شأنه شأنه، وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته، فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعًا فيهما، وإيثارًا لعاجل نفعهما، وإنه مع ذلك القائل لعلي بن هشام ما قال، والمخالف له فيما خالفه فيه، فما الذي حال به عن ذلك، ونقله إلى غيره؛ وأما الزيادي، فأعلمه أنه كان منتحلًا لأول دعى كان في الإسلام خولف فيه حكم رسول الله ﷺ، وكان جديرًا أن يسلك مسلكه فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد، أو يكون مولى لأحد من الناس، — وذكر أنه إنما نسب إلى زياد لأمر من الأمور — وأما المعروف بأبي نصر التمار، فإن أمير المؤمنين شبه خساسة

عقله بخساسة متجره؛ وأما الفضل بن الفرخان، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره، تربصا بمن استودعه، وطمعا في الاستكثار لما صار في يده، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده، وتطاول الأيام به، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك الله خيرًا عن تقويتك مثل هذا، وائتمانك إياه، وهو معتقد للشرك، منسلخ من التوحيد.

وأما محمد بن حاتم، وابن نوح، والمعروف بأبي معمر، فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا، عن الوقوف على التوحيد، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله ومجاهدتهم، إلا لإربائهم، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم، لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا، وصاروا للنصارى مثلا؛ وأما أحمد بن شجاع، فأعلمه أنك صاحبه بالأمس، والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذي كان استحله من مال علي بن هشام، وأنه ممن الدينار والدرهم دينه؛ وأما سعدويه الواسطي فقل له: قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث، والتزين به، والحرص على طلب الرياسة فيه، أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها: متى يمتحن فيجلس للحديث؛ وأما المعروف بسجادة، وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث، وأهل الفقه، القول بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى، وحكه لإصلاح سجادته، وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وألهاه، ثم سله عما كان يوسف بن أبي يوسف، ومحمد بن الحسن، يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما؛ وأما القواريري ففيما تكشف من أحواله، وقبوله الرشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه، وسوء طريقته، وسخافة عقله ودينه، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولى لجعفر بن عيسى الحسني مسائله، فتقدم إلى جعفر بن عيسى في رفضه، وترك الثقة به، والاستنامة إليه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمري، فإن كان من ولد عمر بن الخطاب فجوابه معروف؛ وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم فإنه لو كان مقتديًا بمن مضى من سلفه لم ينتحل النحلة التي حكيت عنه، وإنه بعد صبي يحتاج إلى تعلم، وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبي مسهر، بعد أن نصه أمير المؤمنين عن محنته في القرآن، فجمجم عنها، ولجلج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقر ذميما، فانصصه عن إقراره، فإن كان مقيمًا عليه فأشهر ذلك وأظهره إن شاء الله؛ ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدي، فاحملهم

أجمعين، موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم، وحراستهم في طريقهم، حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين، ويسلمهم إلى من يؤمر بتسليمهم إليه، لينصهم أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعًا على السيف إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله؛ وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بندارية، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلا به، تقربا إلى الله عز وجل بما أصدر من الحكم، ورجاء ما اعتمد، وإدراك ما أمل، من جزيل ثواب الله عليه، فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين، وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط، لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله. وكتب سنة ٢١٨هـ.

(٣) عهد طاهر بن الحسين

قال ابن طيفور: ولما عهد طاهر بن الحسين إلى عبد الله ابنه هذا العهد، تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره حتى بلغ المأمون، فدعا به وقرئ عليه، وقال: ما أبقى أبو الطيب شيئًا من الدين والدنيا، والتدبير والرأي، وإصلاح الملك والرعية، وحفظ البيعة، وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه، وأوصى به، وتقدم فيه. وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال. ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره على ما فيه من طول رغبة منا في ألا يخلو كتابنا من هذا الأثر العظيم القيمة والخطر، وهاكه: «عليك بتقوى الله وحده لا شريك له، وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه، وحفظ رعيتك، والزم ما ألبسك الله في العافية بالذكر لمعادك، وما أنت صائر إليه، وموقوف عليه، ومسئول عنه، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله وينجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه، فإن الله قد أحسن إليك، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده، وألزمك العدل عليهم، والقيام بحقه وحدوده فيهم، والذب عنهم، والدفع عن حريمهم وبيضتهم، والحقن لدمائهم، والأمن لسبيلهم، وإدخال الراحة عليهم في معايشهم، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك، وموقفك عليه، ومسائلك عنه، ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت، ففرغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورويتك، ولا يذهلك عنه ذهل، ولا يشغلك عنه شغل، فإنه رأس أمرك وملاك شأنك، وأول ما يوفقك الله به لرشدك، وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب إليه فعالك، المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس، والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها على سننها في إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله فيها، وترتل في قراءتك، وتمكن

في ركوعك وسجودك وتشهدك، ولتصدق فيها لربك نيتك، واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك، وادأب عليها فإنها كما قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله ﷺ، والمثابرة على خلائقه، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه، ولزوم ما أنزل الله في كتابه، من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وائتمام ما جاءت به الآثار عن النبي ﷺ، ثم قم فيه بما يحق لله عليك، ولا تمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت، لقريب من الناس أو بعيد، وآثر الفقه وأهله، والدين وحملته وكتاب الله والعاملين به، فإن أفضل ما تزين به المرء الفقه في دين الله، والطلب له والحث عليه، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله، فإنه الدليل على الخير كله، والقائد له، والآمر به، والناهي عن المعاصي والموبقات كلها، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفة بالله عز وجل، وإجلالا له ودركًا للدرجات العلى في المعاد، مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبة لسلطانك، والأنسة بك والثقة بعدلك. وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها فليس شيء أبين نفعًا ولا أحضر أمنًا ولا أجمع فضلا من القصد، والقصد داعية إلى الرشد، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق منقاد إلى السعادة، وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد، فآثره في دنياك كلها، ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة، والسنن المعروفة ومعالم الرشد، فلا غاية للاستكثار من البر والسعي له، إذا كان يطلب به وجه الله ومرضاته، ومرافقة أوليائه، في دار كرامته.

واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز، ويحصن من الذنوب وأنك لن تحوط نفسك ومن يليك، ولا تستصلح أمورك، بأفضل منه، فأته، واهتد به تتم أمورك، وتزد مقدرتك، وتصلح خاصتك وعامتك، وأحسن الظن بالله عز وجل، تستقم لك رعيتك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها، تستدم به النعمة عليك، ولا تنهض أحدًا من الناس، فيما توليه من عملك، قبل تكشف أمره بالتهمة، فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأثم، واجعل من شأنك، حسن الظن بأصحابك، واطرد عنك سوء الظن بهم، وارفضه عنهم، يعنك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم، ولا يجدن عدو الله الشيطان في أمرك مغمزًا، فإنه إنما يكتفي بالقليل من وهنك فيدخل عليك من الغم، في سوء الظن، ما ينغص عليك لذاذة عيشك، واعلم أنك تجد بحسن الظن، قوة وراحة، وتكفى به ما أحببت كفايته من أمورك، وتدعو به الناس إلى محبتك، والاستقامة في الأمور كلها لك. ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك، والرأفة برعيتك، أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء، والحياطة للرعية، والنظر فيما يقيمها ويصلحها، بل لتكن المباشرة لأمور الأولياء،

والحياطة للرعية، والنظر في حوائجهم، وحمل مؤوناتهم، آثر عندك مما سوى ذلك، فإنه أقوم للدين، وأحيا للسنة، وأخلص نيتك في جميع هذا، وتفرد بتقويم نفسك، تفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع، ومجزى بما أحسن، فإن الله جعل الدين حرزًا وعزًا، ورفع من اتبعه وعززه، فاسلك بمن تسوسه وترعاه، نهج الدين، وطريقة الهدى، وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم، وما استحقوه، ولا تعطل ذلك ولا تهاون به، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة، فإن في تفريطك في ذلك، لما يفسد عليك حسن ظنك، واعزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة، وجانب الشبه والبدعات، يسلم لك دينك، وتقم لك مروءتك، وإذا عاهدت عهدًا فف به، وإذا وعدت الخير فأنجزه، واقبل الحسنة، وادفع بها، وأغمض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وأبغض أهله، وأقص أهل النميمة، فإن أول فساد أمرك في عاجل الأمور وآجلها، تقريب الكذوب، والجرأة على الكذب، لأن الكذب رأس المآثم، والزور والنميمة خاتمتها، لأن النميمة لا يسلم صاحبها، وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم لمطيعها أمر، وأحب أهل الصدق والصلاح، وأعن الأشراف بالحق، وواصل الضعفاء، وصل الرحم، وابتغ بذلك وجه الله، وعزة أمره، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة، واجتنب سوء الأهواء والجور، واصرف عنهما رأيك، وأظهر من ذلك لرعيتك، وأنعم بالعدل سياستهم، وقم بالحق فيهم، وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى، واملك نفسك عند الغضب، وآثر الوقار والحلم، وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله، وإياك أن تقول: إني مسلط أفعل ما أشاء فإن ذلك سريع فيك إلى نقص الرأي، وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له، وأخلص لله وحده النية فيه، واليقين به، واعلم أن الملك لله، يعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة، وحلول النقمة، إلى أحد أسرع منه، إلى حملة النعمة، من أصحاب السلطان، والمبسوط لهم في الدولة، إذا كفروا بنعم الله وإحسانه واستطالوا بما آتاهم الله من فضله، ودع عنك شره نفسك، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكنز، البر والتقوى، والمعدلة، واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم، والتفقد لأمورهم، والحفظ لدمائهم، والإغاثة للهوفهم، واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن، لا تثمر، وإذا كانت في إصلاح الرعية، وإعطاء حقوقهم، وكف المؤونة عنهم، نمت وربت، وصلحت به العامة، وتزينت به الولاة، وطاب به الزمان، واعتقد فيه العز والمنفعة، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله، ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم، وأوف رعيتك من ذلك حصصهم، وتعهد بما يصلح أمورهم ومعايشهم، فإنك إذا فعلت ذلك قرت النعمة عليك، واستوجبت

المزيد من الله، وكنت بذلك على جباية خراجك، وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك، وأطيب نفسا بكل ما أردت، فاجهد نفسك، فيما حددت لك في هذا الباب، ولتعظم حسبتك فيه، فإنما يبقى من المال، ما أنفق في سبيل حقه، واعرف للشاكرين شكرهم، وأثبهم عليه، وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة، فتتهاون بما يحق عليك، فإن التهاون يوجب التفريط والتفريط يورث البوار، وليكن عملك لله، وفيه تبارك وتعالى، وارج الثواب، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا، وأظهر لديك فضله، فاعتصم بالشكر، وعليه فاعتمد، يزدك الله خيرًا وإحسانًا. فإن الله يثيب بقدر شكر الشاكرين وخيرة المحسنين، وقضاء الحق فيما حمل من النعم، والبس من العافية والكرامة، ولا تحتقرن ذنبًا، ولا تمالئن حاسدًا، ولا ترحمن فاجرًا، ولا تصلن كفورا، ولا تداهنن عدوا، ولا تصدقن نماما، ولا تأمنن غدارًا، ولا توالين فاسقًا، ولا تتبعن غاويًا، ولا تحمدن مرائيًا، ولا تحقرن إنسانًا، ولا تردن سائلًا فقيرًا، ولا تجيبن باطلا، ولا تلاحظن مضحكًا، ولا تخلفن وعدًا، ولا تذهبن فخرًا، ولا تظهرن غضبًا، ولا تأتين بذخًا، ولا تمشين مرحًا، ولا تركبن سفهًا، ولا تفرطن في طلب الآخرة، ولا تدفع الأيام عيانًا، ولا تغمضن عن الظالم رهبة منه، أو مخافة، ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا، وأكثر مشاورة الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلم، وخذ عن أهل التجارب وذوي العقل والرأي والحكمة، ولا تدخلن في مشورتك أهل الدقة والبخل، ولا تسمعن لهم قولا، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم، وليس شيء أسرع فسادًا لما استقبلت في أمر رعيتك من الشح، واعلم أنك إذا كنت حريصًا، كنت كثير الأخذ، قليل العطية، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلًا، فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم، وترك الجور عليهم، ويدوم صفاء أوليائك لك، بالإفضال عليهم، وحسن العطية لهم، فاجتنب الشح، واعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه، وأن العاصي بمنزلة خزي، وهو قول الله عز وجل، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فسهل طريق الجود بالحق، واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظًا ونصيبًا، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد، فأعدده لنفسك خلقًا، وارض به عملا ومذهبًا، وتفقد أمور الجند في دواوينهم، ومكاتبهم، وأدرر عليهم أرزاقهم، ووسع عليهم في معايشهم، ليذهب بذلك الله فاقتهم، ويقوم لك أمرهم، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك، خلوصًا وانشراحًا، وحسب ذي سلطان من السعادة، أن يكون على جنده ورعيته، رحمة في عدله وحيطته وإنصافه وعنايته، وشفقته وبره وتوسعته، فزايل مكروه إحدى البليتين، باستشعار تكملة الباب الآخر ولزوم العمل به تلق إن شاء الله نجاحًا وصلاحًا وفلاحًا.

واعلم أن القضاء من الله؛ بالمكان الذي ليس مثله شيء من الأمور، لأنه ميزان الله الذي تعتدل عليه الأحوال في الأرض، وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية، وتؤمن السبل، وينتصف المظلوم، ويأخذ الناس حقوقهم، وتحسن المعيشة، ويؤدي حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجرى السنن والشرائع، وعلى مجاريها ينتجز الحق والعدل في القضاء. واشتد في أمر الله ونورع عن النطف وامض لإقامة الحدود، وأقلل العجلة، وابعد من الضجر والقلق، واقنع بالقسم، ولتسكن ريحك، ويقر جدك، وانتفع بتجربتك، وانتبه في صمتك، واسدد في منطقك، وأنصف الخصم، وقف عند الشبهة، وأبلغ في الحجة، ولا يأخذك في أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة، ولا لوم لائم، وتثبت وتأنّ، وراقب وانظر، وتدبر وتفكر، واعتبر وتواضع لربك، وارأف بجميع الرعية، وسلط الحق على نفسك، ولا تسرعن إلى سفك دم، فإن الدماء من الله بمكان عظيم انتهاكًا لها بغير حقها، وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية، وجعله الله للإسلام عزا ورفعة، ولأهله سعة ومنعة، ولعدوه وعدوهم كبتًا وغيظًا، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلا وصغارًا، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية، والعموم فيه، ولا تدفعن منه شيئًا عن شريف لشرفه، وعن غني لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا أحد من خاصتك، فلا تأخذن منه، فوق الاحتمال له، ولا تكلفن أمرًا فيه شطط، واحمل الناس كلهم على مر الحق، فإن ذلك أجمع لألفتهم، وألزم لرضى العامة، واعلم أنك جعلت بولايتك خازنًا وحافظًا، وراعيًا، وإنما سمى أهل عملك رعيتك، لأنك راعيهم، وقَيِّمهم، تأخذ منهم ما أعطوك، من عفوهم ومقدرتهم، وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم، وتقويم أودهم، فاستعمل عليهم في كور عملك، ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل، والعلم بالسياسة والعفاف، ووسع عليهم في الرزق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت، وأسند إليك، ولا يشغلنك عنه شاغل، ولا يصرفنك عنه صارف، فإنك متى آثرته، وقمت فيه بالوجب، استدعيت به زيادة النعمة من ربك، وحسن الأحدوثة في عملك، واستجررت به المحبة من رعيتك، وأعنت على الصلاح، فدرت الخيرات ببلدك، وفشت العمارة بناحيتك، وظهر الخصب في كورك، وكثر خراجك، وتوفرت أموالك، وقويت بذلك على ارتباط جندك، وإرضاء العامة، بإفاضة العطاء فيهم من نفسك، وكنت محمود السياسة، مرض العدل في ذلك عند عدوك، وكنت في أمورك كلها، ذا عدل وقوة، وآلة وعدة، فنافس في هذا، ولا تقدم عليه شيئًا، تحمد مغبة أمرك، إن شاء الله، واجعل في كل كورة من عملك أمينًا، يخبرك أخبار عمالك، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم، حتى كأنك مع كل عامل في عمله، معاين لأمره كله، وإن أردت أن

تأمره بأمر، فانظر في عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السلامة فيه والعافية، ورجوت فيه حسن الدفاع، والنصح والصنع فأمضه، وإلا فتوقف عنه، وراجع أهل البصر والعلم، ثم خذ فيه عدته، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره، قد واتاه على ما يهوى، فقواه على ذلك وأعجبه، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه، ونقض عليه أمره، فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعد عون الله بالقوة، وأكثر استخارة ربك، في جميع أمورك، وافرغ من عمل يومك، ولا تؤخره لغدك، وأكثر مباشرته بنفسك، فإن لغد أمورًا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه، وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين، فشغلك ذلك حتى تعرض عنه، فإذا أمضيت لكل يوم عمله، أرحت نفسك وبدنك، وأحكمت أمور سلطانك، وانظر أحرار الناس وذوي الشرف منهم، ثم استيقن صفاء طويتهم، وتهذيب مودتهم لك، ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك، فاستخلصهم، وأحسن إليهم، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة، فاحتمل مؤونتهم وأصلح حالهم، حتى لا يجدوا لخلتهم مسا، وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه، فاسأل عنه أخفى مسألة، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم، وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم، واجعل لهم أرزاقًا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله في العطف عليهم والصلة لهم، ليصلح الله بذلك عيشهم، ويرزقك به بركة وزيادة، وأجر للأمراء من بيت المال، وقدم حملة القرآن منهم، والحافظين لأكثره، في الجراية على غيرهم، وانصب لمرضى المسلمين دورًا تؤويهم، وقوامًا يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم، ما لم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال، واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم، وأفضل أمانيهم لم يرضهم ذلك، ولم تطب أنفسهم، دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم؛ طمعا في نيل الزيادة، وفضل الرفق منهم، وربما برم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه، ويشغل فكره وذهنه، ومنها ما يناله به مؤونة ومشقة، وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل، كالذي يستقبل ما يقربه إلى الله، ويلتمس رحمته به، وأكثر الإذن للناس عليك، وأبرز لهم وجهك، وسكن لهم أحراسك، واخفض لهم جناحك، وأظهر لهم بشرك، ولن لهم في المسألة والمنطق، واعطف عليهم بجودك وفضلك، وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس، والتمس الصنيعة والأجر، غير مكدر ولا منان، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله، واعتبر بما ترى من أمور الدنيا، ومن مضى

من قبلك، من أهل السلطان والرياسة، في القرون الخالية والأمم البائدة، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبته، والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه، ودعا إلى سخط الله، واعرف ما تجمع عمالك من الأموال، وينفقون منها، ولا تجمع حرامًا، ولا تنفق إسرافًا، وأكثر مجالسة العلماء، ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها، وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيبا فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك، في سر، وإعلامك ما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك، وانظر عمالك الذين بحضرتك، وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورعيتك، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك، وفهمك وعقلك، وكرر النظر إليه والتدبير له، فما كان موافقًا للحزم والحق فامضه واستخر الله فيه، وما كان مخالفًا لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه، ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه إليهم، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك، وتفهم كتابي إليك، وأكثر النظر فيه، والعمل به، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره، فإن الله مع الصلاح وأهله، وليكن أعظم سيرتك، وأفضل رغبتك، ما كان لله رضا، ولدينه نظامًا، ولأهله عزًا وتمكينًا، وللذمة والملة عدلا وصلاحًا، وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك، ورشدك وكلاءك، وأن ينزل عليك فضله ورحمته، بتمام فضله عليك، وكرامته لك، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيبًا، وأوفرهم حظًا، وأسناهم ذكرا وأمرا، وأن يهلك عدوك ومن ناوأك وبغى عليك، ويرزقك من رعيتك العافية، ويحجز الشيطان عنك ووساوسه، حتى يستعلى أمرك بالعز والقوة والتوفيق، إنه قريب مجيب.

(٤) رسالة الخميس

من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين، إلى المبايعين على الحق، والناصرين للدين، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام: سلام عليكم، فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله.

أما بعد، فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذي العز والسلطان، والنور والبرهان، فاطر السموات والأرض وما بينهما، والمتقدم بالمن والطول على أهلهما، قبل استحقاقهم لمثوبته، بالمحافظة على شرائع طاعته، الذي جعل ما أودع عباده من نعمته،

دليلا هاديًا لهم إلى معرفته، بما أفادهم من الألباب، التي يفهمون بها فصل الخطاب، حتى اقتنوا علم موارد الاختبار، وثقفوا مصادر الاعتبار، وحكموا على ما بطن بما ظهر، وعلى ما غاب بما حضر؛ واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته، ومتقن صنعته، وحاجة متزايل خلقه ومتواصله، إلى القوم[1] بما يلمه ويصلحه، على أن له بارئًا أنشأه وابتدأه، ويسر بعضه لبعض. فكان من أقرب وجودهم، ما يباشرون به من أنفسهم في تصرف أحوالهم، وفنون انتقالهم، وما يظهرون عليه من العجز عن التأتي لما تكاملت به قواهم، وتمت به أدواتهم؛ مع أثر تدبير الله عز وجل وتقديره فيهم، حتى صاروا إلى الخلقة المحكمة، والصورة المعجبة، ليس لهم في شيء منها تلطف يتممونه، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم؛ فإنه قال تعالى ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۞ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾. ثم ما يتفكرون فيه من خلق السموات، وما يجري فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخرات، على مسير لا يثبت العالم إلا به من تصاريف الأزمنة التي بها صلاح الحرث والنسل، وإحياء الأرض، ولفاح النبات والأشجار، وتعاور الليل والنهار، ومر الأيام والشهور والسنين التي تحصى بها الأوقات؛ ثم ما يوجد من دلائل التركيب في طبقات السقف المرفوع، والمهاد الموضوع، باختلاف أجزائه والتئامها، وخلق الأنهار، وإرساء الجبال. ومن البيان الشاهد ما أخبر الله عز وجل به من إنشائه الخلق، وحدوثه بعد أن لم يكن مترقيًا في النماء، وثباته إلى أجله في البقاء، ثم محاره منقضيًا إلى غاية الفناء. ولو لم يكن له مفتتح عدد ولا منقطع أمد، ما ازداد بنشوء، ولا تحيفه نقصان، ولا تفاوت على الأزمان؛ لأن ما لا حد له ولا نهاية، غير ممكن الاحتمال للنقص والزيادة. ثم ما يوجد عليه منفعته من ثبات بعضه لبعض، وقوام كل شيء منه بما يسر له، في بدء استمداده إلى منتهى نفاده؛ كما احتج الله عز وجل على خلقه، فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾. وقال عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾. وكل ما تقدم من الأخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته في سمواته التي بنى، وأطباق الأرض التي دحا، وآثار صنعه فيما برأ وذرأ، ثابت في فطر العقول، حتى يسخر أولي الزيغ ما يدخلون على أنفسهم من الشبهة فيما يجعلون له من الأضداد والأنداد. جلّ عما يشركون. ولولا توحده بالتدبير، عن كل معين وظهير، لكان الشركاء جدراء أن تختلف بهم إرادتهم فيما يخلقون، ولم يكن التخلف في إثباته وإزالته ليخلو من أحد وجهيه، وأيهما كان فيه فالعجز والنقص مما أتاه وبرأه. جل البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك وتعالى علوًا كبيرًا؛ كما قال

سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾. ثم من عظيم نعمة الله عز وجل على خلقه افتقاده إياهم، وأنه يسددهم ويدلهم على منافعهم، ويجنبهم مضارهم، ويهديهم لما فيه صلاحهم، ويرغبهم في المحافظة على التمسك بدين الله عز وجل، الذي جعله عصمة لهم وحاجزًا بينهم.

ولولا ما تقدم به من تلافيهم واستدراكهم بفضل رحمته، لاجتاحهم التلف، لقصور معرفتهم عن التأتي لأقواتهم ومعايشهم، ولم يكونوا ليقتصروا على حظوظهم وأقسامهم عما بنوا عليه من الجمع والرغبة، ولتهالكوا ببغي بعضهم على بعض، وعدوان قويهم على ضعيفهم، ولكنه بعد تعريفه إياهم ملك قدرته وجلالة عزته، بعث إليهم أنبياءه ورسله مبشرين ومنذرين، بالآيات التي لا تنالها أيدي المخلوقين؛ فرضوا بما قسط بينهم، وارتدعوا عن التباغي والتظالم، لما وعدوا من الثواب الجسيم وخوفوا من العقاب الأليم؛ ولم يكونوا ليطيعوا أمرًا لآمر ولا نهيا لناه، إلا بحجة يتبين بها الحق على من خالفه من المبطلين، وتخويف يتقون به مقارفة ما حرم عليهم، ورجاء يتجشمون له مؤونة ما تعبدوا به. فافتتح الله عز وجل بأبيهم آدم عليه السلام، فعلمه الأسماء كلها، وأمر الملائكة بالسجود له — كما اقتص في وحيه المنزل — وكرم ولده وفضلهم، فقال جل وعز: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾. وجعل ما فطرهم عليه من العطف على ذراريهم وأبنائهم سببًا لما أراد من بقائهم وتناسلهم، وما اختصهم به من العلم والفهم حجة عليهم، ليمتحن طاعتهم، ويبلوهم أيهم أحسن عملا. ولم تزل رسل الله عز وجل إلى خلقه تترى بالنور الساطع، والبرهان القاطع، لا يجدون لما يوردون عليهم من الحق القاهر مردًا ولا مدفعًا؛ لقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فلم يجد المكذبون مساغًا إلى دفع ما أقيم عليهم من لازم الحجة، إلا المعاندة والمجاحدة. وكان أنبياء الله صلوات الله عليهم، يبعثون في أعصار الحقب، نذرًا للأمم، حتى ختمهم الله عز وجل بالنبي الأمي محمد ﷺ، فبعثه فردًا وحيدًا لا عاضد له ولا رافد، إلى قوم يعبدون أصنامًا بكما، وحجارة صمًا، فكذب به القوم الذين بعث فيهم أول ما دعاهم، ورامه ملوك أقطار البلاد بتوجيه الأجناد، ومرافدة القوة والعتاد وبغي الغوائل، ونصب الحبائل، وهو يدعو إلى سبيل ربه بما أمره به، إذ يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. ثم

جاهد بمن أطاعه من عصاه، وبمن اتبعه من خالفه، حتى أعز الله كلمته، وأظهر دعوته، وأكمل لعباده دينهم الذي ارتضى لهم. فلما اختار الله له ما لديه، واختصه بما عنده: من النعيم المقيم، والجزاء الكريم، بعد استقامة الدين ودخول الناس فيه أفواجًا، خلفه، إذ ختم به الأنبياء، بالبررة النجباء من أدانيه ولحمته، لإقامة الشرائع المفترضة، وإنفاذ حكم الله المنزل، واقتفاء السنة المأثورة وحفظًا له في قرابته ومجيبي دعوته، وإتمامًا لما أوجب له من الفضيلة، وقريب الوسيلة، وانجازًا لما وعده من إظهار ما بعثه به، من دينه الذي اصطفاه وارتضاه. وكان اختيار أولي الفضل من لحمته وعصبته لإرث خلافته، ومن عظيم الزلف التي رغب إلى الله فيها أنبياؤه، وبما اقتص في منزل وحيه، واختص تبارك وتعالى نبيه ﷺ بما أمره به من مسألة أمته تصيير مودته في القربى جزاءه ممن تبعه على الرسالة، وهداه من الضلالة؛ فكانت فضيلتهم عزيمة من الله عز وجل، دون طلب رسول الله ﷺ؛ ألزمه تأديته إلى خلقه وألزمهم أداءه، فقال عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. ودل بما أخبر به وأظهره من تطهيره إياهم وإذهابه الرجس عنهم، على اصطفائه لهم؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وكان مما أوجب لهم به حق الوراثة في محكم تنزيله قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾. ثم قرن طاعتهم بطاعته، فقال: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وأحلهم من النباهة والصيت بالمحل الذي أعلى به أمرهم ورفع به ذكرهم، لما أحب من النبيين في الدلالة عليهم، والهداية إليهم، فإنه يقول عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. ولو كان الأئمة المقلدون أمر عباده خاملة أنسابهم، متقطعة أسبابهم، غير مخصوصين بفضيلة يرونهم بها دون غيرهم، لم تعد طلبتهم عقد الخلافة لهم، وأن تكون من المفترضات على كافة الأمة، أو على بعض دون بعض؛ فإن كان لأهل الشرق والغرب من ذوي النقص والكمال أن يختاروا لأنفسهم، فليس في اجتماع آرائهم مع تفرقهم واختلافهم طمع آخر أيام الدهر. وإن كان إلى خاصة دون عامة، فستحتاج العامة من طلب معرفة تلك الحال إلى مثل ما احتاجوا إليه في أئمتهم، إذ لم يكن أهل الارتياب والطلب من أعلام الآفاق ليتواطئوا على اتفاق، لنفاد آجالهم قبل بلوغهم غاية الاجتهاد في الفحص والتكشيف، وحاجتهم إلى اختبار البلدان، وتمحيص أولي الفضائل بالامتحان، وما هو حاق عليهم من الشبه في اختيارهم، والاختلاف فيمن عسوا أن يجتبوه ويقدموه، حتى تتهالك الرعية بتظالمها بينها، ويطرق من يليها من الأمم إياها؛ إذ لا ذائد عنها ولا محامي. فإذا ألزمت الأمة الحاجة إلى نصب

الحكام لإقامة الدين، وتقسيط الحقوق من المسلمين، ومجاهدة عدوهم من المشركين، لم يكن لهم في الإمام عليهم مجاز إلى التخلص من حقه إليهم، ولا ريب عند المعرفة برأفة الله ورحمته، ولطفه وحكمه، في دفعه عن عباده ما لم يجعل في حيلتهم له وسعًا، ولا في حيلتهم له درکًا، وكفايته إياهم ما يعجزهم من البحث والتنقيب عن ولاة أمرهم، بنصبه إياهم، وما رفعهم إليه من الدرجة التي أعلاها وأسناها، إذ وصل نسبهم برسول الله ﷺ، وافترض مودتهم على خلقه، ولم يشنهم جهلهم للغرض الذي لزمهم له، ولم يجب عليهم فرض في معرفة من سواهم. ولم يزل سياق أئمة الهدى مطردًا، ونظامهم متصلا، يتلقاه كابر عن كابر، ويؤديه أول إلى آخر، حتى تناهى إلى أمير المؤمنين، وهو حال دار دعوته، وبين أنصاره من أهل خراسان، فنظر به خيرهم، وعرفوا ما تصرفت به أحوالهم، وظهر لهم من بيان حجته على من نازعه في الأمر، وشاهدوا من إبلاغه في العذر، واستظهاره بالتأني والصبر، ما أزاح عنهم الشبهة وكشط الحيرة، حتى استزالوا[٢] نهوضه بحقه، وخافوا الزيغ على أديانهم فيما أعطوه من صفقة أيمانهم؛ وهو ماض على عادته، مستديم للموادعة، متلوم على المراجعة، بالغ غاية ما في وسعه من الرخصة في دفع الولاية التي نهنه بها الرعية، حتى ضاق عليه في دينه ترك القيام بما أنهضه الله به من ثقلها وقلده من حملها، وخاف المخلوع فانبعث بالشرة والغرة، فتناول أولياء الحق باغيًا طاغيًا، لما أراد الله من تأييدهم عليه بالبيان والحجة التي يجب لها قلبه، ويفت بها في عضده، ويقبل الله ما شرفكم به من النصر والغلبة فيه التي جعلها الله للمتقين. فاجتمع لكم معشر أهل خراسان في دولة أمير المؤمنين ثلاث خلال اختصكم الله بفضيلتها، وسنى مراتبها، دون ثلاث شملتكم وغيركم.

أما الأولى من اللواتي خصكم الله بهن؛ فما تقدم لأسلافكم من نصرة أهل بيت النبي، والقائمين بميراثه من آباء أمير المؤمنين.

وأما الثانية، فما آثركم الله به من نصرته في دعوته الثانية.

وأما الثالثة، فما تقدمتم به من صحة ضمائركم، ومحض مناصحتكم.

وأما الثلاث اللواتي هن لكم ولغيركم: فمنهم ما أكد الله لأمير المؤمنين في أعناق المسلمين: من العهد الذي أخذ إصره، وألهمهم الوفاء به والتمسك بوثائق عصمته، عند محاولة المخلوع ما حاول من الإعلان بالردة، والتمس من تبديل معالم الدين وتعفية آثاره، فلم يلف الرعية سدى مهملين، لا جامع لأمرهم، ولا ضام لنثرهم.

ومنهن ما أفادكم الله وإياهم من العبر، عند حلول الغير بمن غدر وختر، تذكرة لأولي النهى، وحجة بالغة على من أدبر وتولى، ليهتدي متحير ويتعظ مزدجر، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾. ومنهن اجتماع أهل الفضل من المسلمين: ممن لم يكن له نصر ولا أزر في الدعوة الأولى على المشايعة في الدعوة الثانية؛ فأصبح دعاة أمير المؤمنين من أهل الحرمين والمصرين ومدينة السلام والمشرق والمغرب ممن غار أو أنجد من المتمسكين بذممهم الموفين بنذورهم، من إخوانكم؛ وإن كان الله قد قدمكم في الأمرين جميعًا بتفوق حالكم على غيركم، يعتدون من معاضدتكم ومكانفتكم بما جعله الله عز وجل ألفة لكم ومودة بينكم، يبيد بها ما كان الشيطان ينزغ به بين أهل التباعد في الأنساب، والتنائي في الأوطان من إيقاع العداوة والبغضاء، والانطواء على الأحقاد والدمن، وطلب تقديم الإحن، وصار أهل السمو إلى الدرجة العليا والاعتصام بالعروة الوثقى من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، منشرحة صدورهم بمكانفته، منبسطة أيديهم بمعاونته على حقه، منفسحة آمالهم في إذكاء ناره على عدوه والإثخان في بلاده وافتتاح ممتنع حصونه، بما جمعهم الله عليه من الألفة، ورفع عنهم من الحمية والعصبية؛ راجين عودتهم إلى أحسن ما مضى عليه سلفهم، في عهد نبيه ﷺ، من سلامة الصدور، وصلاح ذات البين، واجتماع القوى على مجاهدة من شاقهم؛ قد أفرد الله عنهم نفرة التحارب والتجاذب، وجعل ما كان يسعى به بعضهم من الإعداد لبعض، زيادة في ريحهم، وحدّا في شوكتهم، لائتلافهم في دولة أمير المؤمنين المحدودة المؤيدة بصدق الضمائر، ونفاذ البصائر. وإلى الله يرغب أمير المؤمنين في إعانته على صالح نيته، وتبليغه منتهى سؤله وغاية همته، في إعزاز دينه وإذلال من صد عن سبيله؛ إنه سميع قريب.

ومن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعمة تذكر ما كانت عليه الحال قبلها، فاستديموا الإفاضة فيما رفع الله من خساستكم وأعلى من أقداركم، بنصرة أهل بيت نبيكم ﷺ، وما أبلاكم الله في الدعوة الأولى مما لا يؤدي حقه إلا بعون الله وتوفيقه، فإنه ارتاح لهم بلطفه وتوفيقه، فأنا لهم رغائب الأقسام وسنى الخطوات، ورفع درجهم ودرج خلوفهم وأعقابهم من بعدهم، بعد إذ هم مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس، مذعنون بقهر عدوهم واستئثاره عليهم، ثم لم يلبثوا أن صاروا إلى الحال التي يرونهم بها من الغبطة والبهجة، إلا أنهم أخذوها بحقها؛ وكانت في أيدي الظلمة من أهل بيت اللعنة وأتباعهم بحنثة[٨] الباطل ومحنة الابتلاء، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. وليس أحد منكم بخارج من المحنة بما ألبس من النعمة، وإن كنتم أهلها الآخذين لها بحقها، بل الذي يلزمكم استدامتها والقيام بحفظها، على حسب ما أولاكم الله منها، فربما كان الذي يعقب أهلها من الغفلة والاغترار ويلهيهم بها من

حبورها وسرورها، أعظم إثما وحوبًا مما يخاف على أهل البطالة والصبر من ضعف العزم وقلة الصبر، لما يستولي عليهم من استكانة الذلة، والاغترار بالتقصير، والفزع إلى ربهم في تنفيس كربهم، فإنه تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾. فحاجتكم إذا أنجح الله سعيكم وأظفركم بطلبتكم، إلى حياطة ما أودعكم الله من مننه وحراسة ما آتاكم من فضله، بالشكر المترى للمزيد. فتعهدوا معشر شيعة أمير المؤمنين أنفسكم بتذكر ما سهل الله لكم من الحزونة، وذلل لكم من الصعوبة، وحكم لكم به من النصر، على مراق الملة ومخالفي أهل القبلة، وأباحكم من ديارهم وأموالهم؛ فأصبحتم بمن الله عليكم حماة الدين، وأنصار الأئمة الراشدين، وحصون كافة المسلمين، بعد ما اجتث الله بكم قرون النفاق، وأباد بكم صناديد الضلالة، وشرد من لم تستحمله سيوفكم، وأضرع إليكم من أذعن واستسلم، وقد استشرفكم معشر شيعة أمير المؤمنين أهل الشنآن، ولاحظوكم بأعين الحسد والمنافسة، فبين ذلك مجهر معالن، ومستسر مداهن، وداخل في عدادكم، ووالج في سوادكم، يرى أمنه بين ظهوركم، فطعنه عليكم في دولتكم بريبة التمويه وخدع التشبيه، أيسر عليه كلفة وأعظم فيكم خرجا ونكاية؛ فتوقوا هذه الطبقة أشد التوقي، فإن أكثر من يلجأ إلى استباحة الحيلة، من عجز عن المباداة والإصحار، وعند ظهور الحازم وغلبته يحترز من لطيف الخدع وخفى الاستدراج.

واحذروا معشر شيعة أمير المؤمنين من استمراء الطراءه، والركون إلى راحة الدعة ما قد رأيتم وباله عاد على أهله، وأورثتهم عواقبه طول الندم والحسرة؛ فإنكم قد كنتم في حال المراقبة لعدوكم، والخوف لبائقته متيقظين متحفظين لما كان يرومكم به من ختله وحيله، ثم أفضيتم إلى الحج وقد جهدكم السعي ومسكم النصب، وسيلقي الشيطان في أمانيكم أن قد اكتفيتم بسالف ما قاسيتم، ويجد من ضعف العزائم معينًا داعيًا إلى اغتنام الخفض، والإخلاد إلى الأرض، ما لم تعتصموا بما عاينتم من الاعتبار، وتمتثلوا مواضي الآثار فيمن سلف من القرون الخالية، وما أفضت به إليه العزة من زوال النعم ووقوع الغير، فإن جميع ما خولكم الله وأفادكم مرتهن بما ألزمكم من حياطته واستنمائه؛ فقد وجبت عليكم الحجة بما حضكم الله عليه، وعظمت عليكم المنة بما هداكم إليه، وأراكم من آياته ومثلاته فيمن خلا قبلكم ما فيه أبلغ الإعذار والإنذار لكم، ومن اجتمع له اقتناء صواب من تقدمه إلى ما ينبعث من نفسه، فكأنه قد اختبر بالتجربة، مع استمداده بما يستفيد، ويستزيد ما يفتح لبه ورأيه، وأيقنوا أنكم لن تصلوا إلى من سواكم، ممن هو

أعسر طاعة عليكم وأعذر بمعصيتكم، حتى تبدءوا باستصلاح أنفسكم، وأنه لن يرجى لكم القوة على مجاهدة عدوكم حتى تقووا على مجاهدة أهوائكم، فإن على كل امرئ ريبة من أمره، وغطاء من غيبة، لا يكشفه إلا صحة المعرفة، والإذعان بالنصفه؛ فهناك يؤمن عليه الجهل والمعاندة، وإذا أمنت هاتان الخلتان انسدت بإذن الله ثلم الآفات، وفتوق المكاره، فإنه لا يخاف الضلال على من اهتدى، ولا اعتماد الجور على من انتصف من هوى.

وليكن أول ما تتعهدون به أنفسكم، وتثابرون عليه من صالح أدبكم تناصف الحق بينكم، بتقديم أهل الفضائل والآثار المحمودة منكم وتفخيم أمركم؛ فقد علمتم أن منكم المبرز الفائت الذي لا يدرك شأوه ولا يوازي بلاؤه، حين كشف الإبلاء ضمائر القلوب وجلا مشتبهات الظنون، فصرح بالمحاربة بعد التقدم في الحجة، وفاء بمؤكد العهد وركوبًا منه لهائل الخطر، غير هائب مع صحبة الحق ما برق لديه الناكس المخلوع ورعد، ولا مستوحش فيما تفرّد به على من تولى وأدبر، حتى أتى الغاية التي أجرى إليها في الله عز وجل وفي خليفته، ثم لرؤسائكم من أهل المشايعة والمكانفة والنصرة والحظ الجزيل والأثر المبين، ثوابهم واجب وحقهم لازم؛ ثم منكم من يحفظ لسلفه وأوله من الآباء الذين يحفظون ولايتهم، فإن الله عز وجل يقول في ذكر اليتيمين: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾. وقال على لسان يعقوب لابنه يوسف: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾. وأمير المؤمنين يرى توريث الحكمة والذمام سنة عليه في أخلاقه التي يرعاها ويحافظ عليها؛ كما أنه يرى وراثة التركة فريضة واجبة، فيخلف السلف الصالح عنده من المزية والفضل ما يتلون به أهل الغناء بأنفسهم، ثم يتلوهم من اقتدى [بهم] واهتدى بهديهم. والسابق المتقدم من اعتد ببلاء نفسه إلى بلاء سلفه، ثم يتبعه بعد المبلى بنفسه، ثم يتلوهما المتوسل بآبائه، ثم الصاعد به هواه ورأيه، طبقة فطبقة؛ فليقصر كل امرئ منكم على المرتبة التي أحله بها سعيه، وليسلك إلى الازدياد فيها بالزيادة من نفسه؛ فإن من الفتوق العظيمة على أهل الدول ما ينزغ به الشيطان بينهم، ويكثر عندهم ما يكون منه، فيوافق من الحيف للأنفس ما يجد به مساغًا إلى ما يروم من إيقاع الشحناء بينهم، وتثبيت الإحن في صدورهم، بعد التآزر والتناصر. ومتى يجمع المرء لمزية من فوقه، واغتباط من دونه كفى ما ترك. ولن تخلص نياتكم. وتسلم ضمائركم، حتى تمحضوا شكر ما أوليه إخوانكم، وتعتدوا ما نالهم شاملا لكم، وتجانبوا طريقة من اقتصر بأمنيته على خاصته، وتعتب فيما أوثر به أهل الفضل دونه. وكفى عظة فيما نهاكم الله عنه من

ذلك؛ يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾. ولا يلتمسن أحد مودته عن سوء نية بحسن مداراة في ظاهر، فإن الله مقلد كل امرئ ربقة عمله ومطوقه طوق سريرته. ولا يغدرن فيما يلزمه لإمامه؛ فإنه إنما يغدر في حظه ويبخس قسمه، وينحس نفسه. ثم لا يقتصرن على استصلاحها حتى يتناول من كانت منته عليه من أقربيه وحسويه،[٨] فإن يسير ما هو معان من تأديتهم لا ينشب أن يتجاوز أدنى المراتب إلى أقاصيها، وقريبها إلى متناهيها، حتى يستفيض شاملا عاما، بعد أن بدا محللًا خاصًا.

واعلموا أن أمير المؤمنين متفقد من تثقيفكم وتقويمكم على صالح الأدب ومحمود السيرة، ما لا يتفقد به من سواكم؛ فإنه إن كان يوجب على نفسه استصلاح الرعية وحملهم على ما فيه رشدهم وقوامهم، لما يلزمه من فضل العناية بالأخص والأولى فالأولى، فإن في أخلائكم من التقديم في التأديب والتعهد، وجوها من الضرر: منها: أنكم أولى بحسن الطاعة وسرعة الإجابة، للطف محلكم وقرب مكانكم عند أمير المؤمنين.

ومنها: أنكم يأنس بكم المؤتمون ويقتدي بكم التابعون؛ فمتى قصرتم وأخللتم، اقتفى أثركم من نصبتم له أعلاما، ثم لم يكن لكم أن تزروا عليه، ولا أن تأخذوا فوق يده، بل كان قمينا أن يكون يسومكم الرضا بمثل ما سمعتموه، ثم تجري هذه العادة في الطبقات، حتى يطرد السياق، إلى أن يستفيض الفساد في حشو الناس وعامتهم، فلا تغني قوة ولا حزم ولا شدة، إلا العجز والاضاعة؛ ثم يجد الأعداء مساغًا إلى الطعن والعيب، فلا يملكون أن يرهقوكم ويستولي عليكم الفشل؛ فإن الأيدي إنما تبسط بنفاذ العزائم، والعزائم إنما تنفذ بثبات الحجة، والحجة إنما تثبت إذا كانت عن الحق. وإذا أضيع أول هذه الرسوم، التي رسم لكم أمير المؤمنين، تبعته تواليه وشفعته لواحقه، ووجد العدو الملاحظ مكان العورة، مطمعًا في إهمال ما كان يعد له من الغرة، ويتوفق به من مناهزة الفرصة، وليكن ما تفيضون فيه وتعدونه ظهيرا على طاعن إن طعن في دولتكم، ما ألهم الله أمير المؤمنين: من شمول رعيته بالعدل، وفرش الأمر في مضمراتها ومنقلبها، ورفع به عنهم من سير الجود، وبسط به يده من إثابة أهل البلاء، وتغمد الجرائم لأولى الزلل، والإبلاغ في دعاء من عاند وشاق إلى التوبة والإناية، وإقالة العثرة بعد القدرة، والحقن لمباح الدماء، فلم تعلموه صبر محملا، ولا هتك لأحد ممن أظفره الله به سترًا، ولا وقفه على عورة. ثم تولى الله أمير المؤمنين، في حروبه شرقًا وغربًا، التي أغناه الله عن الإطناب في وصف صنع الله لكم فيها، لاستفاضة أخبارها في دهمائكم، مع ما أحب من مطالعته

إياكم ببالغ أدبه وشافي عطفه، أن يتنكب من الإسهاب، في غير ما صمد له ورأى من تقريع أسماعكم وأذهانكم، لوعي ما التمس أن تعوه من تبصيركم حظكم، وتنبيهكم على رشدكم. وحسب أمير المؤمنين في نفسه وفيكم الله، وكفى به مبينًا.

وإن أمير المؤمنين مع ما تقدم به إليكم لعلى ثقة من حياطة الله خلافته التي جعلها عزًا لدينه وقوامًا لخلقه، وأنه ليس بها ممن أدبر عن حقها اختلال بل من خلع ربقتها وأضاع حظه منها، جلب الخلة والحاجة وخسران الدنيا والآخرة. وإنما أتى المقصرون في إعظام حقها من ضعف الروية عن بلوغ ما تفضي بهم إليه مصادر العواقب، وتؤديهم إليه رواجع ما قدموا، فلا يكونون بعملهم غير متجاوزين بهممهم، وفيهم الذي هم فيه إلى ما يمنعه.[٨]

واستديموا معشر المسلمين سابغ النعمة بحمد موليها والمتطول بها. وقد ترون ما كنتم فيه قبلها وما آلت إليه حال من سلبها؛ ثم يعقب الندامة حين لا مستعتب ولا نظرة يمكن فيها استقالة الفارط بتقصير ولا هفوة زلل. وثقوا من رعاية أمير المؤمنين محمود آثاركم، وما مضى من بلاء كل امرئ منكم، بما تطمئنون إليه وتتوقعون عادته، بأسنى ما ترتفع إليه آمالكم وتسمو إليه هممكم، إلى ما يدخر الله لمن تمسك بهداه، واعتصم بتقواه، وجاهد عن حقه، وافيًا بأمر عهده من جزيل ثوابه وكريم مآبه، إلى الدار التي هي أكبر درجات: وأكبر تفضيلا.

أحب أمير المؤمنين أن يتعهدكم بعظة تنبهكم على حظكم، وتثبت من بصائركم، وتقطع من طمع الشيطان وحزبه فيكم، لما يجب عليه من إرشادكم، ويرجو من تأدية حق الله عز وجل فيكم، ولما يرى من اتصالكم بحبله، وما يشمله من الصنيع فيما ولاكم الله به، وتولاه لكم.

وأمير المؤمنين يسأل الله الذي دل على الدعاء تطولًا، وتكفل بالإجابة حتمًا، فقال عز وجل: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، أن يجمع على رضاه ألفتكم، وأن يصل على الطاعة حبلكم، وأن يمتعكم بأحسن ما أودعكم من مننه، ويوزعكم عليها من شكره، ما يواصل لكم مزيده، وأن يكفيكم كيد الكافرين، وحسد الباغين، ويحفظ أمير المؤمنين فيكم بأفضل ما حفظ به إمام هدى في أوليائه وشيعته، ويحمل عنه ثقل ما حمله منكم. وبالله يستعين أمير المؤمنين، على ما ينوي من جزائكم بالحسنى، وحملكم على الطريقة المثلى، وبه يرضى ناصرًا ووليًا، وكفى بالله وليًا وكفى بالله نصيرًا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وللمأمون — لما كتبت إليه السيدة زبيدة بعد مقتل ولدها الأمين خطابها الآتي تستعطفه:

كل ذنب يا أمير المؤمنين وإن عظم صغير في جنب عفوك. وكل زلل وإن جل حقير عند صفحك. وذلك الذي عودك الله؛ فأطال مدتك، وتمم نعمتك، وأدام بك الخير، ورفع بك الشر.

هذه رقعة الواله التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر، وفي الممات لجميل الذكر. فإن رأيت أن ترحم ضعفي، واستكانتي، وقلة حيلتي، وأن تصل رحمي، وتحتسب فيما جعلك الله له طالبًا وفيه راغبًا فافعل، وتذكر من لو كان حيًا لكان شفيعي إليك.

فكتب إليها المأمون:

وصلت رقعتك يا أماه، أحاطك الله وتولاك بالرعاية، وقفت عليها وساءني — شهد الله — جميع ما أوضحت فيها، لكن الأقدار نافذة، والأحكام جارية، والأمور متصرفة، والمخلوقون في قبضتها، لا يقدرون على دفاعها، والدنيا كلها إلى شتات، وكل حي إلى ممات، والغدر والبغي حتف الإنسان، والمكر راجع إلى صاحبه. وقد أمرت برد جميع ما أخذ لك، ولم تفقدي ممن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه. وأنا بعد ذلك لك على أكثر مما تختارين؛ والسلام.

(٥) أحمد بن يوسف[٣]

رسالة ممتعة لأحمد بن يوسف ذكرها ابن طيفور في اختيار المنظوم والمنثور وهي: أما بعد فالحمد لله القاهر القادر، الخالق الرازق، فاطر السموات والأرض، الذي أحاط بكل شيء علمًا، ونطق به خبرا، وأتقنه حكمه وعلما، وألف بين مختلفه ومتفقه، ليدل بقوام بعضه على بعض، على اتصال تدبير مشيئته ومبتدعه، وأنه أحد صمد، لا ضد له ولا ند، إذ قدر له حاجته ثم شدها ببلاغها إلى الغاية التي جعلها، فقال جل وعز: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ وحكى عن نجيه موسى عليه السلام، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ ثم لم يكلف العباد من شكره كفاء نعمته، بل رضى منهم باليسير، وقبل منهم العفو، وجعل طاعتهم إياه عائدة عليهم بجزيل الحظ في دينهم ودنياهم، لغناه عن عبادتهم، واتساع قدرته بالتطول عليهم، مفتتحًا وخاتمًا، وبادئًا وعائدًا.

والحمد لله الذي اصطفى محمدا ﷺ، نبيًا لرسالته، وأتمنه على وحيه، وأنزل عليه كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فأدى إلى خلقه الرسالة، واستنقذهم من الضلالة، وصدع بأمر ربه وجاهد في سبيله، ونصح لأمته حتى أتاه اليقين من ربه، بعد استنارة الحق، وظهور الحجة، فصلى الله عليه بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا قد تلافى من الهلكه، وجمع الألفة بعد الفرقة، وأوضح الهدى بعد الدروس، ومعالم الرشد بعد الطموس، وكان بالمؤمنين رحيمًا.

والحمد لله الذي قفى على آثار المرسلين، والأئمة الراشدين، الهادي التقي، الطاهر الزكي، الإمام المأمون أمير المؤمنين، أعز الله نصره، فسد ثلمتهم، ورأب صدعهم وقلده خلافتهم، وجعله لكافة المسلمين غياثًا ورحمة، وجعل ما ألهمه من العدل والإحسان إليهم، منة عليه ورحمة ذخرها له، دون الخلفاء قبله، فيما أظهر من فضل زمانه على الأزمنة، وسياسة من تقدمه، ومنح الرعية من عطفه ونظره، ما لا يحمل عنهم أو به ولا يؤدي عنهم شكره، إلا هو لا شريك له؛ وأحسن الله جزاء أمير المؤمنين ومثوبته، على صلة رحم رسول الله ﷺ، التي هي رحمه وقرابته، واختياره لولاية عهده الأمير الرضي علي بن موسى، حفظه الله، حين أحمد سيرته، ورضى محبته، وعرف استقلاله، بما قلده في هديه، ودينه ووفائه، بما أكد الله به عليه، من عهد أمير المؤمنين أيده الله، في اعتيامه من أزره وأساه بما شفع رأيه، وأنفذ تدبيره، حين هم لاستصلاح ما استرعاه الله، من أمور عباده، لما انتقى القائم بدعوته، ورئيس شريعته، الأمير ذا الرياستين رحمه الله، فاتخذه مكاتفًا ظهيرًا ووزيرًا دون من سواه، فاتبع منهاج أمير المؤمنين أيده الله، وسار بسيرته، شرقًا وغربًا، وغورًا ونجدا، موفيًا بعهده، قائمًا بدعوته، مقتفيًا لأثره وسنته، فحسم الله به الأدواء، وقمع به الأعداء، من عتاة الأمم، وطواغيت الشرك، وأباد على يده، أهل الشقاق والنفاق، في كل أفق وطرف، بجد أمير المؤمنين أعزه الله، وبركة سياسته ودولته، ونجح سعى من قام بنصرة من قام بحقه، وأنار برهانه، حتى توفاه الله عز وجل، حين بلغ همته وغايته، وحتم أجله، وانقطعت مدته، سعيدًا حميدًا، شهيدًا فقيدًا، عند إمامه أكرمه الله، وعند الخاصة والعامة، وكان من إجلال أمير المؤمنين، الحادث الذي نزل به، فأحيا آثاره، بوصف محاسنه، في مشاهده ومجامعه، وترحمه عليه عند ذكره، وحفظه في لحمته، وأهل حرمته، وفيمن كان يحمد الله على طاعته ونصيحته، ما أتم به نعمته، عندنا وعندكم معشر الشيعة، فقد أصبح أمره بكم متصلا، وموقعه من جماعتكم متمكنًا، يقبضكم ما قبضه، ويبسطكم ما بسطه من لومة المصيبة، وحسن العقبى، وقد علمتم معشر أهل

الحجا والنهى، والطاعة لله عز وجل وخليفته، وذوي الغباء والبلاء في دعوته من أهل خراسان وغيرهم ممن حضر ممن امتحن الله قلبه بوفاء العهد والاستبصار في حق أمير المؤمنين أبقاه الله، والمجاهدة دونه، والصبر على مواطن الصدق واللأواء، والذب عن البيضة والحريم، والمتحملين للنصب، والمصائب التي انجلت، حتى كأن لم تكن، وبقى أجرها على الله عز وجل، ومحمود ذكرها شائعًا في الناس، إن نعم الله، قد جلت ولطفت، وخصت وعمت، وعلت وسمقت، وتمت ودامت، حتى قصرنا عن موازينها، والإحاطة بأدائها، فإذا لم يكن لنا معشر إخواننا سبب إلى مكافأة بلائه بالعمل، فنحن جدراء أن نجتهد في القول، ونطنب في الوصف إن شاء الله جل وعز، فقد جعل ذكر النعم من أسباب الشكر، وقد جدد لنا أمير المؤمنين أيده الله من الحياة والكرامة، وجزيل الحيطة، وسنى الرتبة التي قرئ بها عليكم كتابه ما يستغرق جهدنا، ويستفرغ وسعنا، فنرغب إلى الله عز وجل، ولي الرغبة، ومؤتي السؤل والطلبة، في إعانتنا على تأدية ما وجب له، فيما منحنا من فوائده ونحله، ثم نسترقدكم ونستعينكم على شكره، وإمدادنا بما بلغته طاقتكم في السعي له فقد آدنا ثقل ما حملنا، وثقل ما طوقنا، وعظمت فاقتنا إلى استعمال القوي من الأنفس والحامة، والخاصة والعامة، في جزاء ما جلل أمير المؤمنين فينا من سننه، وشملنا من تالد أياديه وطارفها، وقديمها وحديثها، وكيف يوجد إلى موازاة أمير المؤمنين سبيل ببذل جهد، أو بلوغ حشد، فإنما نقتدي بهداه، ونعشو بنوره في ديننا، وليس عجزنا عن أن نجزي حقه، بواضع عنا مؤونة الدؤوب في التحري لتأديته، فإن الله عز وجل، قد أخبر بفضائل الشكر ومناقبه، وجعله من أسمائه، ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، وقد قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾. وقال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾. ولولا أن الله عز وجل رضيه لنفسه، لأجللناه عن التسمية إذ كان أكثر ما نستعمله، ونعرفه في مكافأة من منَّ وتطول، ثم ثنى بذكر فضله في العباد، فإن الله تبارك وتعالى افتتح أول ما علم خلقه بالحمد، وجعله بدء كتابه، وخاتمة دعوة أهل جنته، فقال عز وجل: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وخلق الله السموات والأرض، ومن برأ وذرأ في الحياة ليبلو عباده بشكره، وأعد الجنة في الآخرة لمن شكره، والنار لمن كفره، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ فجمل التقوى واقعة، والشكر مرجوا ليدل على ارتفاع رتبته، وعلو درجته عنده، وقال لنجيه

موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾. فلم يكلفه إلا أخذ ما أعطاه، والشكر على ما أتاه، وأخبر بعزته في العباد، فقال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، فأية نعمة أجل قدرًا، وأسنى أمرًا، معشر الشيعة من نعمة أمير المؤمنين، أيده الله، عند الأمير ذي الرياستين، ومراتبه التي رتبه بها، فإنه أعطاه رياسة الحرب، ورياسة التدبير، وعقد له على رأسهما علما في رواية دعوته، وقلده سيفهما وختمه بخاتم الخلافة، وخاتم الدولة، وجعل صلاته بين صاحب حرسه، وصاحب شرطته، ومسيره بين أمير المؤمنين وبينهما، أمامه وخلفه، وصير له الجلوس على الكرسي بحضرته، في صدر كل مجلس جلس، إلا أن يؤثر به من أحب من أبناء الخلفا، وقدمه في دخول دار الأمير راكبًا إلى أقصى مكان ينتهي إليه أحد من بني هاشم، لأنه منهم، وأعظمهم غناء عنهم، فسماه صاحب دعوته وسيفه على عدوه وبابه الذي يدخل إليه منه، وولاه خيوله في أقطار الأرض، ومقدمته بحصرته، وقلده من الثغور ما قد علمت، بما أفرده في عهده، إلى ما أنفذه من أمره، في جميع سلطانه وملكه، من مشارق الأرض ومغاربها، وأين يأتي الوصف على ما فضله به، وقدمه وشرفه على الناس كافة، ولكنا نخطر بذكره، ثم نكل السامعين إلى ما يرجعون إليه من المعرفة التي لا تبلغها الصفة، ثم لم يكن ما أكرمه به في حياته بأعلى مما أكرمه به في وفاته، تولى غسله وتكفينه، ومباشرته لجهازه، إلى حفرته بيده، وقاسى من الغصص، وبرحاء الحزن، وإذراء العبرة، وإراقة الدمعة ما حال بينه وبين الكلام، وكاد يمنعه من القول والدعاء في صلاته عليه، من الحكم، وحفظ أهل الحرمة، به رعاية له فيهم، ووفاء بعهده من بعده، وأقر خاصته، وقواده وعماله. وكتابه على مراتبهم، وحمد بحمده، وذم بذمه، وجدد لجنده، وتل[٨] كريته، نظرا وعطفًا، فلم يبق عليه في إحياء ذكره، وبلوغ كل ما يحبه في حياته غاية إلا أتى من ورائها؛ وأمر بقراءة فتوحه، كما كانت تقرأ على عهده، وأضاف كل ما حدث من بعده إلى ما تقدم من سعيه، وأخبر أنه كان سببه، والمفتتح به، وولى محمد بن الحسن خلافته، ونصبه منصبه، وأقامه مقامه إلى أن جدد العهد لي، فاستخلفته على ما ولى بحضرته، ثم تتابعت كتب أمير المؤمنين، أكرمه الله بعد مصاب الأمير ذي الرياستين، بما لا يقارب التفضيل، والإطلاق والتفويض الذي كنتم سمعتم به وبلغكم، فلم يكن يرى وراءه مجاراة، ولا فوقه مصعدًا، حتى جدد لنا من كرامته، ما قد قرئ عليكم في كتابه، فبلغ بنا ما لم تكن الهمم تبلغه، والأماني لتحيط به، لولا ما منحنا الله عز وجل من الترقي في الفضل، إلى ما تنحسر من دونه الأبصار، وتنقطع دونه الآمال، وإنما اقتصصناه وذكرنا ما أبلانا واصطنع عندنا من

بلائه بدعائنا إلى الله عز وجل، وإلى طاعته بالعدل والإحسان إلى رعيته والنظر بالصفح، والأخذ بالفضل، والأمر بالمعروف، وصلة المروءة بالوفاء بالعهد، والشكر للمنن، ورعاية الأخلاق المحمودة، وإحظاء أهلها، وإقامة سوقها، حتى تنافسوها وتشاحوا فيها، وصارت هي الذرائع إليه، والوسائل عنده، فلو تأمل متأمل أهل الزلفة، والأثرة لديه، لوجد الأخص فالأخص، والأعلى قدرًا عنده هو الأفضل دينا ومروءة، فلو لم يكن في الحظوة عنده إلا إيجابها لصاحبها صحة المحبة، والنزاهة عن كل ظنة، لكان فيها أعظم الغبطة، وأعدل الشهادة والدلالة؛ وسنقص عليكم بما أخبرناكم عنه ما لا سبيل إلى جحده وإنكاره، بوضوح معالمه ومنائره؛ أو ليس المجاهد عن دين الله، والمحامي عن بيضة المسلمين، والمواتي لأغلظ عدوهم شوكة، وأخوفهم عداوة، والمنجح في بلادهم، بمن كان لا يرام، ولا يحاول لاستصعابه وشدة مقاساته، حتى أذعن جيغويه بالعبودية له، ثم أباح حريمه حين تمرد عليه، حتى بلغ السبي إلى ولده، وحاربونا به، وتغلغلت خيوله، حتى توصلت إلى قبته، ومنتهى عزه، أو ليس مسكن التهيج بالمشرق، حتى خبت النيران فيه، وأذعن رؤساؤها وقادتها. أو ليس غازي بلاد بابل حين طغى أميرها، وبدّل، ونكث ونقض، حتى اجتثت أرومته، وأباح حريمه، وأراح المسلمين من معرته، أو ليس ساد الثغور، ومحصن عوراتها، والمباشر لتدبيرها، والمسعدا لمكايدة المنجح فيمن أرادها، وفاك العناة، من رق الإسار، وناشر الرحمة على فقراء المسلمين وضعفائهم وأهل المسكنة، والخلة منهم، وقاسم الصدقات في أهلها، وعامر الموسم ومحصنه من الآفات حياطة للمسلمين في حجهم، وما يتقربون به إلى ربهم؛ وهل اقترن لأحد من الأئمة ما اقترن له في الملك والدين والعز، والتواضع والسعة، والبذل والقدرة، والعفو والغلظة، والليان في مواضعها، والنسك مع الهمة، والسطوة مع الاقالة، وهل ترك معشر الأولياء والإخوان في الدين غاية لم يسم بنا إلى شرفها، وعلى مراتبها، ومستزاد الحظ في عاجل وآجل، لم يبلغناه ونختار لنا خاص مكرمته، ومدخر عاقبته، أرشدنا إلى الدين، وسلك بنا سبل الجنة، حاز لنا الملك، فلم يبق وراء ما ملكنا غاية، وورد بنا الحروب وساسها لنا، فلم يدع غاية للتعليم والدراية، سلط علينا بسلطان الله الذي أتاه فلم يدع غاية في التقلد والفقه، فكم علمنا الفضائل، ثم فضلنا بها، غلب لنا الأمم، ثم خولناها. علمنا طرائق الشرف، ثم شرفنا بها. أخبرنا عن الأنباء فكفانا مؤونة التماسها، وأغنانا بما عنده فيها، أخذ على أيدينا الخير للرعية، فوهب لنا شكرها، وصدق مقالتنا عند الشبهة، وأنفذ أمرنا في التدبير.

فيا أيها الإمام المنصور المهدي الرشيد حزت فضائل الآباء، واهتديت بهدي الأنبياء، أنشكرك عن الإسلام، فأنت القائم به الداعي له، والناصر لحقه، أم نشكرك عن الأمصار،

فأنت المفتتح لمتنعها عنوة، والمتطول على أهلها بالرحمة، والمنعطف عليهم بحسن الفائدة بعد ما هيجت منك سورة الغضب، فأطفأت نارها، وأخمدت لهبها، وعدت على من سفه، وأضاع حظه؛ أم نشكرك على المساجد، فأنت الذي أسستها على التقوى، وعمرتها بتلاوة القرآن، وطهرت المنابر وركبتها، نعلوها صائمًا، وتنطق عليها صادقًا، وتدعو إلى الرشد عليها ناصحًا، وتختم القرآن قبل أن تبدأها محسنًا، وتتلو من قوارعه، ما تصيخ له الأسماع وتلين له القلوب؛ أم نشكرك على البيت العتيق، والركن والمقام، والحجر وزمزم، ومشاعر الحج، وأنت ذببت عنها، وأعدت إليها عهدها، في مبعث نبيها ﷺ، فأمنت النازع إليها، من كل فج عميق، والحالين بها من الركوع والسجود، أم نشكرك عن رسول الله ﷺ، فيما حفظت فيه من عترته، بعفوك عن مجرمهم، ومضاعفتك نواب محسنهم، وإحيائك من أمرهم، ما كان قد اندرس وانطمس، بعد اللقاء بنبي الله ﷺ، وقد راعيت منه في قرابته وقرابتك، وذوي رحمه ورحمك، ما ضيع الناس. ووصلت منهم ما كان وصله، إذ كان الله عز وجل، قد فرض صلة الأرحام، فكان أطوع خلق الله عز وجل فيما فرض عليه أم نشكرك عن العوام، فقد ألبست المسلمين ثوب الأمن، وأذقتهم طعم السعة والرفاهة، وعدلت بينهم بالإنصاف، وتوليت دونهم النصب، وآثرتهم الراحة. أم نشكرك عن الملوك والقواد والأجناد، فأنت الذي رفعت منازلهم، ووفرت عددهم، فلم يكن في دهر أحد من الخلفاء أسعد ولا أحظى منهم في سلطانك، بما بذلت لهم من المعاون، ووليتهم من الثغور والأمصار، وأدررت عليهم من الأرزاق والخواص، أم نشكرك عن الأحكام والسنن، فأنت الذي أنهجت سبيلها، فأوجبت فرضها، ونافست في أهلها؛ أم نشكرك عن الأعداء فأنت الذي بدأتهم بالحجة، ودعوتهم إلى الفيئة والإنابة، ثم ثنيت معقبًا بالعفو، ونعشتهم بعد البؤس، وآنستهم من الوحشة؛ أم نشكرك على مكارم الأخلاق، وأنت الذي ثبت وطأتها، ونفيت عنها أضدادها، ولو نطقت بالفضل، لنطقت بشكرك، في إزالتك إياها عن اللئام، وإخطائك من اعتزى إليها. أم نشكرك عن الثغور، فأنت الذي تممتها، وحصنت عوراتها؛ أم نشكرك عن السلف، فأنت الذي أشدت بفعالهم، وحفظتهم في أبنائهم؛ أم نشكرك عن برد رسول الله ﷺ، وعن القضيب الذي شخص به، حتى جعلتهما زينتك، وسموت بهما في أعيادك، عند حشدك، على الطهر والزكاة، والنسك والتقوى؛ أم نشكرك عن المسلمين في رعايتك إياهم، وما ترعيهم من جنابك، وتنفي عنهم من الآفات، وتقل عنهم من جبابرة الكفر، وتفض من جيوش الشرك والنكث، وتفتح من الحصون المستصعبة، وتسهل من الطرق الوعرة، أم نشكرك عن تواضعك لله عز وجل ولصالح المسلمين طلبًا للرفعة عند

الله. أم نشكرك عن الدين وقد جعلت السلطان عبدًا وقائدًا ومنفذًا، وكان مأمورًا فجعلته آمرًا، وآلة للقوة فجعلت القوة له آلة، فيا من اتصل شكره بشكر الله عز وجل، ونعمته بنعمة الله تعالى وطاعته، بطاعة الله فوهب الله لك شرف المنازل، ورقاك درج الفضائل، وجزاك الله عنا وعن غيرنا، مما شكر من ناطق أو صامت، جزيل الثواب ورفيع الدرجات، وأمتعك ما أتاك وأمتع الأمة ما آتاهم منك، والحمد لله ذي الرغبات، ومتمم الصالحات، شكرًا لرب العالمين، فإنه مبلغ طاقتنا، ومنتهى جهدنا، وبه نستعين على تأدية فرائضه، أنه لا يعين على ذلك إلا هو، أحببت أن نشكر إليكم أمير المؤمنين أيده الله، إذ ورد عليّ من أنعامه وأفضاله، ما لا أبلغه، بالفعل، وأن يكون ما اقتصصنا عليكم، داعيًا لكم، إلى أن تشكروه عنا، وعن أنفسكم، وعن الإسلام والمسلمين، ورجوت بما وفقنا الله له، فيما شرحنا وأوضحنا، من الدلالة والبيان أن يكون مجتمعًا ينتفع به من حضرنا، ومن عسى أن يؤدى إليه الخبر عنا، أو حدث بعدنا، وضننت بهذه المكرمة الرائعة، والمأثرة البارعة، التي ادخرها الله لأمير المؤمنين، أعز الله نصره، وأفرده بها، دون الأئمة والخلفاء، أن تمر بالأسماع صفحًا، وتجتاز على القلوب سهوا، حتى تؤكد بالشواهد والبرهان، ليبقى ذكرها ونفعها في الخلوف والأعقاب، ونحن نسأل الله عز وجل الذي جمع بأمير المؤمنين — مد الله في عمره — ألفتنا، وعلى طاعته أهواءنا وضمائرنا، وأنالنا من الغبطة في دولته وسلطانه، ما لم تحوه شيعة إمام، ولا أنصار خليفة، أن يتم نور أمير المؤمنين، ويعلي كعبه، ويمتعنا ببقائه، حتى يبلغه سؤله وهمته في الاستكثار من البر وادخار الأجر، واستيجاب الحمد والشكر، وأن يلم به الشعث، ويرأب به الصدع، ويصلح على يديه الفساد ويرتق به فتوق هذه الأمة، ويثخن بسياسته ونكايته في عدوها، ويتابع الفتوح في بلدانهم حتى يؤتيه من نجح السعي، ورغائب الحظ في الدنيا، ما يجزل عليه ثوابه في الآخرة، وأرشد نجباءه وأصفياءه، الذين يقول لهم: ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومن توقيعاته نقلا عن كتاب الصولي.

وقع إلى عامل ظالم «الحق طريق واضح لمن طلبه تهديه محجته ولا تخاف عثرته وتؤمن في السر مغبته فلا تستقلن منه ولا تعدلن عنه فقد بالغت في مناصحتك فلا تحوجني إلى معاودتك فليس بعد التقدمة إليك إلا سطوة الإنكار عليك».

ووقع في عناية بإنسان إلى بعض العمال «أنا بفلان تام العناية وله شديد الرعاية وكنت أحب أن يكون ما أرعيته طرفك من أمره في كتابي مستودعًا سمعك من خطابي

فلا تعدلن بعنايتك إلى غيره ولا تمنحن بعقدك سواه حتى تنيله إرادته وتتجاوز به أمنيته إن شاء الله».

وفي كتاب ابن طيفور من توقيعات أحمد بن يوسف الشيء الكثير فارجع إليه إن شئت.

(٦) رسائل سهل بن هارون[٤]

من كلامه:

حكى الجاحظ قال: لقى رجل سهل بن هارون فقال: هب لي ما لا ضرر به عليك؛ فقال: وما هو يا أخي؛ قال: درهم؛ قال: لقد هونت الدرهم وهو طائع الله في أرضه لا يعصى، وهو عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف دية المسلم، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذي هونته، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم! فانصرف الرجل؛ ولولا انصرافه لم يسكت.

وحكى دعبل الخزاعي الشاعر قال: أقمنا يومًا عند سهل بن هارون، وأطلنا الحديث حتى أضرّ به الجوع، فدعا بغذائه فأتى بصحفة فيها مرق تحته ديك هرم، فأخذ كسرة وتفقد ما في الصحفة فلم يجد رأس الديك فبقى مطرقا، ثم قال للغلام: أين الرأس؟ قال: رميت به؛ قال: ولم؟ قال: لم أظنك تأكله؛ قال: ولم ظننت ذلك! فوالله إني لأمقت من يرمي برجله فكيف برأسه! ولو لم أكره ما صنعت إلا للطيرة والفأل لكرهته، أما علمت أن الرأس رئيس يتفاءل به، وفيه الحواس الخمس، ومنه يصيح الديك، ولولا صوته ما أريد، وفيه فرقه الذي يتبرك به، وعينه التي يضرب بصفائها المثل فيقال: شراب كعين الديك، ودماغه عجب لوجع الكلية، ولم أر عظمًا قط أهش تحت الأسنان منه، وإن كان بلغ من نبلك أنك لا تأكله، فعندنا من يأكله، أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن رأس العنق! أنظر أين رميته؛ فقال: والله ما أدري؛ قال: أنا والله أدري! إنك رميت به، والله في بطنك، فالله حسيبك.

ومن مؤلفاته كتاب البخلاء.

ولما صنف سهل كتابه في البخل أهداه إلى الحسن بن سهل واستماحه، فكتب إليه الحسن: قد مدحت ما ذمه الله، وحسنت ما قبحه الله، وما يقوم بفساد معناك صلاح لفظك، قد جعلنا ثواب مدحك فيه قبول قولك، فما نعطيك شيئًا.

واتهم سهل بن هارون بالبخل وأورد له في ذلك قصص ونوادر وعده الجاحظ من «متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء» قال: ما علمت أن أحدًا جرد في البخل كتابًا إلا سهل بن هارون، وأبا عبد الرحمن الثوري، والبخل في الفرس غالب في الجملة، غلبة الكرم على طبائع العرب، فاقتضى ذلك التفريط الذي رآه سهل في تبذير العرب، أن يدلي لقومه بآرائه المفرطة في الاقتصاد والإمساك. وما شوهد قط تفريط إلا وإلى جانبه إفراط.

كتبه وطريقته في التأليف

كان سهل بن هارون منقطع القرين في صنوف العلم والآداب، وناهيك بعالم كبير كالجاحظ كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني، الحسن النظم، فينسبه إلى نفسه فلا يرى الأسماع تصغي إليه، ولا القلوب تيمم نحوه ثم يؤلف كما قال عن نفسه، ما هو أنقص منه مرتبة وأقل منه فائدة، فينحله عبد الله بن المقفع، أو سهل بن هارون، فيقبل الناس عليها، ويسارعون إلى نسخها.

ويقال إن طريقة سهل في كتابته طريقة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لا يتكلف لكلامه، فلا يشاهد فيه الناقد أثر التعمل، بل لا يكلف بغير إرسال النفس على سجيتها، فهو وابن المقفع والجاحظ على غرار واحد.

وقيل إن سهلا كاتب سلاطين، والجاحظ مؤلف دواوين. وكأن كلامه نغمة موسيقية تعرف انتهاء جملته من رنتها بعد أن ملكت عليك مشاعرك، لا يحفل بالأسجاع إلا إذا جاءت عفو الخاطر، شأن بلغاء الصدر الأول. وكان يقول الشعر وأكثر شعره مما أملاه قلبه، في غرض من أغراض المجتمع. وعده الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار، والكتب الكبار المجلدة، والسير الحسان المولدة، والأخبار المدونة. ولقبه مرة بالكاتب، ولعل لقب الكاتب في شرفه أكبر من عالم. وذكره ابن النديم في البلغاء وقال: إنه شاعر مقل، وعده في الشعراء الكتاب. وقال: إنه كان ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم هو وعبد الله بن المقفع وعلي بن داود كاتب زبيده. وشعره خمسون ورقة. أما الدهشة ففي تآليفه، فله ديوان رسائله، وكتاب النمر والثعلب، وكتاب اسباسيوس (أسانوس) في اتخاذ الإخوان، كتاب أسد بن أسد، كتاب سحرة العقل، كتاب تدبير الملك والسياسة، كتاب إلى عيسى بن أبان في القضاء، كتاب الفرس، كتاب الغزالين، كتاب ندود وودود ولدود، كتاب الرياض،

كتاب ثعلة وعفراء، (وفي رواية ثعلة وعفرة) على مثال كتاب كليلة ودمنة، قلده في أبوابه وأمثاله.

وقال المسعودي: يزيد عليه أي على كليلة ودمنة في حسن نظمه وقد صنفه للمأمون. ومن تآليفه: كتاب الهزلية والمخزومي، كتاب الوامق والعذراء إلى غير ذلك من المصنفات التي لم تبق الأيام ويا للأسف على واحد منها فيما علمنا.

دخل سهل على الرشيد وهو يضاحك المأمون؛ فقال: اللهم زده من الخيرات، وابسط له من البركات، حتى يكون في كل يوم من أيامه مربيًا على أمسه، مقصرًا عن غده، فقال الرشيد: يا سهل، من روى من الشعر أحسنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحه وأوضحه، إذا رام أن يقول لا يعجزه القول؟ فقال سهل: يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن أحدًا تقدمني إلى هذا المعنى، قال بل أعشى همدان حيث يقول:

رأيتُك أمسِ خيرَ بني لُؤَيٍّ وأنتَ اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنت غَدًا تَزيد الخيرَ ضعفًا كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقد شهد مقتل البرامكة في سنة ١٨٧هـ وحدّث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال: إن سجاعى الخطب، ومحبري القريض عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلام يتصور درًا، ويحيله المنطق السري جوهرًا، لكان كلامهما، والمنتقى من لفظهما، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بديهته وتوقيعاته في كتبه، فدمين عيين، وجاهلين اميين، ولقد عمرت معهم، وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل إلا فيهم، ولم تكن مقصورة إلا عليهم، ولا انقادت إلا لهم، وأنهم محض الأنام، ولباب الكرام، وملح الأيام، عشق منظر، وجودة مخبر، وجزالة منطق، وسهولة لفظ، ونزاهة نفس، واكتمال خصال، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم، والمأثور من خصالهم، كثير أيام من سواهم من لدن آدم أبيهم إلى النفخ في الصور، وابتعاث أهل القبور، حاشا أنبياء الله المكرمين، وأهل وحيه المرسلين، لما باهت إلا بهم، ولا عولت في الفخر إلا عليهم، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم، وكريم أعراقهم، وسعة آفاقهم، ورفق ميثاقهم، ومعسول مذاقهم، وبهاء إشراقهم، ونقاوة أعراضهم، وتهذيب أغراضهم، واكتمال خلال الخير فيهم، إلى ملء الأرض مثلهم في جنب محاسن المأمون كالنفثة (التفلة) في البحر، والخردلة في المهمة القفر.

قيل: وهذا الكلام على ما فيه من حقيقة في بيان سجايا البرامكة والرشيد والمأمون لم يختتم بالنصفة الحقة، ومال به سهل إلى المصانعة، وخرجه على نحو مبالغة الفرس، في الإطراء والملق لوليّ الأمر.

وروى بعض الرواة أن المأمون كان استقل سهل بن هارون؛ وقد دخل عليه يومًا والناس على مراتبهم، فتكلم المأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب، فلما فرغ من كلامه أقبل سهل بن هارون على الجمع فقال: ما لكم تسمعون ولا تعون، وتشاهدون ولا تفقهون، وتفهمون ولا تتعجبون، وتتعجبون ولا تنصفون! والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير ما فعل بنو مروان في الدهر الطويل، عربكم كعجمكم، وعجمكم كعبيدكم، ولكن كيف يعرف بالدواء من لا يشعر بالداء. فرجع المأمون فيه إلى الرأى الأول؛ وعرف أنه الرجل كل الرجل، فقرّبه وأدناه على النحو الذي كان عليه في عهد والده.

ومن كلام له في كتابه ثعلة وعفرة:

> اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدمًا قبل الذي تجودون به من تفضلكم، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء في الفريضة شاهد على وهن العقيدة، وتقصير الروية، ومضر بالتدبير، ومخل بالاختيار، وليس في نفع تحمد به عوض من فساد المروءة، ولزوم النقيصة.

وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر:

عَدُوٌّ تِلَاد المالِ فيما يَنُوبُهُ مَنُوعٌ إذا ما مَنْعُهُ كان أَحْزَمًا
مُذَلِّلُ نفسٍ قد أبتَ غيرَ أن تَرَى مكارِهَ ما تَأْتِي من العيش مَغْنَما

وكتب إلى صديق له أبل من ضعف:

> بلغني خبر الفترة في إلمامها وانحسارها، والشكاة في حلولها وارتحالها، فكاد يشغل القلق بأوله عن السكون لآخره، وتذهل الحيرة في ابتدائه، عن المسرة في انتهائه، وكان تغيري في الحالين بقدرهما ارتياعًا للأولى، وارتياحًا للأخرى.

وكتب في البخل:

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح الله أمركم وجمع شملكم وعلمكم الخير وجعلكم من أهله. قال الأحنف بن قيس: يا معشر بني تميم، لا تسرعوا إلى الفتنة فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياء من الفرار. وقد كانوا يقولون: إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عيابًا فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب. ومن أعيب العيب أن تعيب ما ليس بعيب. وقبيح أن تنهي مرشدًا وأن تغرى بمشفق. وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم، وإصلاح فاسدكم، وإبقاء النعمة عليكم. وما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم. وقد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما اخترناه لكم، ولأنفسنا قبلكم، وشهرنا به في الآفاق دونكم؛ ثم نقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فما كان أحقنا منكم في حرمتنا بكم أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم على ما رعيناه من واجب حقكم؛ فلا العذر المبسوط بلغتم ولا بواجب الحرمة قمتم. ولو كان ذكر العيوب يراد به فخر لرأينا في أنفسنا من ذلك شغلا.

عبتموني بقولي لخادمي: أجيدي العجين فهو أطيب لطعمه وأزيد في ريعه.[٥] وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أملكوا العجين[٦] فإنه أحد الربعين.

وعبتموني حين ختمت على ما فيه شيء ثمين من فاكهة رطبة نقية ومن رطبة غريبة على عبد نهم وصبي جشع وأمةٍ لكعاء[٧] وزوجة مضيعة.

وعبتموني بالختم وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق[٨] وعلى كيس فارغ. وقال: طينة خير من طية، فأمسكتم عمن ختم على لا شيء وعبتم من ختم على شيء.

وعبتموني أن قلت للغلام: إذا زدت في المرق فزد في الإنضاج ليجتمع مع التأدم باللحم طيب المرق.

وعبتموني بخصف[٩] النعل وبتصدير القميص[١٠] وحين زعمت أن المخصوفة من النعل أبقى وأقوى وأشبه بالشد وأن الترقيع من الحزم والتفريط من التضييع، وقد كان رسول الله ﷺ يخصف نعله ويرقع ثوبه ويقول: لو أهدى إلى ذراع لقبلت، ولو دعيت إلى كراع لأجبت. وقالت الحكماء:

لا جديد لمن لم يلبس الخلق. وبعث زياد رجلا يرتاد له محدثًا واشترط عليه أن يكون عاقلا فأتاه به موافقًا فقال له: أكنت به ذا معرفة؟ قال: لا، ولكني رأيته في يوم قائظ يلبس خلقا ويلبس الناس جديدًا، فتفرست فيه العقل والأدب. وقد علمت أن الخلق في موضعه مثل الجديد في موضعه. وقد جعل الله لكل شيء قدرًا وسما به موضعا كما جعل لكل زمان رجالا ولكل مقام مقالا. وقد أحيا الله بالسم وأمات بالدواء وأغص بالماء. وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكاسبين كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين. وقد جبر الأحنف بن قيس يد عنز وأمر مالك بن أنس بفرك النعل. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: من أكل بيضة فقد أكل دجاجة. ولبس سالم بن عبد الله جلد أضحية. وقال رجل لبعض الحكماء: أريد أن أهدي إليك دجاجة. فقال: إن كان لابد فاجعلها بيوضًا.

وعبتموني حين قلت: من لم يعرف مواضع السرف في الموجود الرخيص لم يعرف مواضع الاقتصاد في الممتنع الغالي. ولقد أتيت بماء للوضوء على مبلغ الكفاية وأشد من الكفاية، فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء وإلى التوفير عليها من وضيعة[١١] الماء وجدت في الأعضاء فضلا عن الماء، فعلمت أن لو كنت سلكت الاقتصاد في أوائله لخرج آخره على كفاية أوله ولكان نصيب الأول كنصيب الآخر، فعبتموني بذاك وشنعتم عليّ؛ وقد قال الحسن وذكر السرف: أما إنه ليكون في الماء والكلأ فلم يرض بذكر الماء حتى أردفه الكلأ.

وعبتموني أن قلت: لا يغترن أحدكم بطول عمره وتقويس ظهره ورقة عظمه ووهن قوته وأن يرى نحوه أكثر ذريته، فيدعوه ذلك إلى إخراج ما له من يده وتحويله إلى ملك غيره وإلى تحكيم السرف فيه وتسليط الشهوات عليه، فلعله يكون معمرًا وهو لا يدري، وممدودًا له في السن وهو لا يشعر، ولعله أن يرزق الولد على اليأس ويحدث عليه من آفات الدهر ما لا يخطر على بال ولا يدركه عقل، فيسترده ممن لا يرده ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه أصعب ما كان عليه الطلب وأقبح ما كان به أن يطلب، فعبتموني بذلك؛ وقد قال عمرو بن العاص: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا».

وعبتموني بأن قلت: بأن السرف والتبذير إلى مال المواريث وأموال الملوك وأن الحفظ للمال المكتسب والغنى المجتلب وإلى من لا يعرض فيه بذهاب

الدين واهتضام العرض ونصب البدن واهتمام القلب أسرع ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل. ومن لم يعرف للغني قدره فقد أوذن بالفقر وطاب نفسًا بالذل.

وعبتموني بأن قلت: إن كسب الحلال يضمن الإنفاق في الحلال. وإن الخبيث ينزع إلى الخبيث، وإن الطيب يدعو إلى الطيب، وإن الإنفاق في الهوى حجاب دون الهدى؛ فعبتم عليّ هذا القول، وقد قال معاوية: لم أر تبذيرًا قط إلا وإلى جنبه حق مضيع. وقد قال الحسن: إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله فانظروا فيماذا ينفقه فإن الخبيث إنما ينفق في السرف. وقلت لكم بالشفقة عليكم وحسن النظر مني لكم وأنتم في دار الآفات، والجوائح غير مأمونات: فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يرجع إلا إلى نفسه. فاحذروا النقم باختلاف الأمكنة إن البلية لا تجري في الجميع إلا بموت الجميع.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والأمة والشاة والبعير: فرقوا بين المنايا. وقال ابن سيرين لبعض البحريين: كيف تصنعون بأموالكم؟ قالوا: نفرقها في السفن فإن عطب بعض سلم بعض. ولولا أن السلامة أكثر ما حملنا أموالنا في البحر. قال ابن سيرين: «تحسبها خرقاء وهي صناع[١٢]».

وعبتموني بأن قلت لكم عند إشفاقي عليكم: إن للغنى لسكرًا وللمال لنزوة[١٣] فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه، ومن لم يرتبط المال لخوف الفقر فقد أهمله.

فعبتموني بذلك وقد قال زيد بن جبلة: ليس أحد أقصر عقلا من غني أمن الفقر، وسكر الغنى أكثر من سكر الخمر. وقد قال الشاعر في يحيى بن خالد بن برمك:

وَهُوبُ تِلاد المال فيما يَنُوبه مَنُوعٌ إذا ما مَنْعُه كان أحزما

وعبتموني حين زعمتم أني أقدم المال على العلم، لأن المال به يفاد العلم وبه تقوم النفس قبل أن تعرف فضل العلم، فهو أصل والأصل أحق بالتفضيل من الفرع، فقلتم: كيف هذا؟ وقد قيل لرئيس الحكماء: الأغنياء أفضل أم العلماء؟ قال: العلماء. قيل له: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر ما يأتي الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال وجهل الأغنياء

بحق العلم. فقلت: حالهما هي القاضية بينهما. وكيف يستوي شيء حاجة العامة إليه وشيء يغني فيه بعضهم عن بعض.

وكان النبي ﷺ يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم والفقراء باتخاذ الدجاج. وقال أبو بكر رضي الله عنه: إني لأبغض أهل بيت ينفقون نفقة الأيام في اليوم الواحد. وكان أبو الأسود الدؤلي يقول لولده: إذا بسط الله لك الرزق فابسط وإذا قبض فاقبض.

وعبتموني حين قلت: فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في البيت إذا احتيج إليها استعملت وإن استغني عنها كانت عدة. وقد قال الحصين بن المنذر: وددت أن لي مثل أحد ذهبًا لا أنتفع منه بشيء. قيل له: فما كنت تصنع به؟ قال: لكثرة من كان يخدمني عليه لأن المال مخدوم. وقد قال بعض الحكماء: عليك بطلب الغنى فلو لم يكن فيه إلا أنه عز في قلبك وذلك في قلب عدوك لكان الحظ فيه جسيما والنفع فيه عظيمًا.

ولسنا ندع سيرة الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لأصحاب اللهو؛ ولستم عليَّ تردون ولا رأيي تفندون، فقدموا النظر قبل العزم وأدركوا ما لكم قبل أن تدركوا مآلكم والسلام عليكم.

وسهل هو القائل:

تَقَسَّمنِي هَمَّانِ قد كَسَفَا بالِي ... وقد تَرَكَا قَلْبِي مَحَلّةَ بِلْبَالِ
هما أَذْرَيَا دَمْعي ولم تُذْرِ عَبْرَتِي ... رهينةُ خَدٍّ ذاتُ سِمْطٍ وَخَلْخَالِ
ولا قَهْوة لم يَبْقَ منها سوى الذي ... على أن تُحاكي النورَ في رأس ذَيّالِ
تحلَّل منها جُرْمُها وتماسكتْ ... لها نفسُ معدومٍ على الزَّمن الخَالِي
ولكنما أَبْكِي بعينٍ سَخِيَّةٍ ... على حَدَثٍ تَبْكِي له عينُ أمثالي
فِراقُ خليلٍ لا يقومُ به الأَسَى ... وخَلَّةُ حُرٍّ لا يقومُ بها مالي
فَوَاحسرتى حتّى مَتَى القلبُ مُوجَعٌ ... لنَفْر خلِيلٍ أو تعذُّر إفضال
وما الفضلُ إلّا أن تَجُودَ بنائلٍ ... وإلا لِقاء الخِلِّ ذي الخُلُقِ العَالِي

وهو القائل:

إذا امرؤٌ ضاقَ عنِّي لم يَضِقْ خُلُقِي من أن يَراني غَنِيًا عنه بالْيَاسِ
لا أطلبُ المالَ كي أُغْنَى بفَضْلَتِهِ ما كان مَطْلَبُه فَقْرًا من الناسِ

(٧) عمرو بن مسعدة[١]

١٤

كان كاتبًا بليغًا، جزل العبارة وجيزها، سديد المقاصد، فضله شائع، ونبله ذائع؛ أشهر من أن ينبه عليه، أو يدل بالوصف إليه؛ قد ولي للمأمون الأعمال الجليلة، وألحق بذوي المراتب النبيلة. وسماه بعض الشعراء وزيرًا لعظم منزلته لا لأنه كان وزيرًا، وهو قوله:

لقد أسعدَ اللهُ الوزيرَ بن مَسْعَدَهْ وبُثَّ له في الناس شُكْرٌ ومَحْمَدْه

فهو كما كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضي وقد احتاج إلى رجل يوليه بعض الأعمال فقال: إنه يريد رجلا جامعًا لخصال الخير، ذا عفة ونزاهة طعمة[١٥]؛ قد هذبته الآداب، وأحكمته التجارب، ليس بظنين في رأيه، ولا بمطعون في حسبه إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهما من الأمور أجزأ[١٦] فيه، له سن مع أدب ولسان، تعقده الرزانة، ويسكته الحلم، قد فر[١٧] عن ذكاء وفطنة، وعض[١٨] على قارحة من الكمال، تكفيه اللحظة، وترشده السكتة، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها، وقام في أمور فحمد فيها، له أناة الوزراء، وصولة الأمراء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، وجواب الحكماء، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه، وحسن بيانه، دلائل الفضل عليه لائحة، وأمارات العلم له شاهدة، مضطلعًا بما استنهض، مستقلًا بما حمل.

ومن كلام عمرو بن مسعدة:

> أعظم الناس أجرًا، وأنبههم ذكرًا، من لم يرض بموت العدل في دولته، وظهور الحجة في سلطانه، وإيصال المنافع إلى رعيته في حياته، وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق في أيامه، وبعد وفاته وانقراضه.

وقال: الخط صور الكتب ترد إليها أرواحها.

وقال: الخط صورة ضئيلة لها معان جليلة، وربما ضاق عن العيون، وقد ملأ أخطار الفنون.

وقال: لا تستصحب من يكون استمتاعه بمالك وجاهك، أكثر من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائد علمه، ومن كانت غايته الاحتيال على مالك وإطراءك في وجهك، فإن هذا لا يكون إلا ردىء الغيب، سريعًا إلى الذم.

وكتب إلى الحسن بن سهل:

أما بعد، فإنك ممن إذا غرس سقى، وإذا أسس بنى، ليستتم تشييد أسسه، ويجتني ثمار غرسه، وثناؤك عندي قد شارف الدروس، وغرسك مشف على اليبوس، فتدارك بناء ما أسست، وسقى ما غرست إن شاء الله.

وكتب إلى بعض أصحابه في شخص يعز عليه:

أما بعد، فموصل كتابي إليك سالم والسلام. أراد قول الشاعر:

يُديرونَنِي عن سالمٍ وأُديرُهم وجِلدَةُ بين العينِ والأَنْفِ سالمُ

أي يحل مني هذا المحل.

وكتب إلى المأمون في رجل من بني ضبة يستشفع له بالزيادة في منزلته وجعل كتابه تعريضًا:

أما بعد، فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين لتطولك عليّ، في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام.

فكتب إليه المأمون: «قد عرفنا توطئتك له، وتعريضك لنفسك، وأجبناك إليهما، ووافقناك عليهما». وقوله: «إن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته»: من الكلام السري الذي يدل على مبلغ عمرو وبعد غوره في السياسة ووقوفه على روح عصره ونفسية الخلفاء.

قدم رجل من أبناء دهاقين[١٩] قريش، على المأمون لعدة سلفت منه، فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون، فقال لعمرو بن مسعدة: توصل مني رقعة إلى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتبها تكن لك عليّ نعمتان. فكتب: «إن رأى أمير المؤمنين أن يفك أسر عبده من ربقة المطل بقضاء حاجته، أو يأذن له بالانصراف إلى بلده فعل إن شاء الله».

فلما قرأ المأمون الرفعة دعا عمرا فجعل يعجب من حسن لفظها، وإيجاز المراد. فقال عمرو: فما نتيجتها يا أمير المؤمنين؟ قال: الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه، وبجائزة مائة ألف درهم، صلة عن دناءة المطل. وسماجة الإغفال.

وهذا مما يدل على سعة عقل المأمون وولوعه بالبلاغة وقدره أهلها حق قدرهم، دع ما هنالك من نفس ما أحبت إلا الجود والعطاء.

ومن حكم عمرو بن مسعدة:

العبودية عبودية الإخاء. لا عبودية الرق. الود أعطف من الرحم. إن الكريم ليرعى من المعرفة ما رعى الوصل من القرابة. عليكم بالإخوان فإنهم زينة في الرخاء، وعدة للبلاء. مثل الإخوان مثل النار، قليلها متاع، وكثيرها بوار. النفس بالصديق، آنس منها بالعشيق، وغزل المودة، أرق من غزل الصبابة. من حقوق المودة، عفو الإخوان، والإغضاء عن تقصير إن كان. ذكر رجل رجلا فقال: حسبك أنه خلق كما تشتهي إخوانه. المودة قرابة مستفادة. ما تواصل اثنان فدام تواصلهما، إلا لفضلهما أو فضل أحدهما. أسرع الأشياء انقطاعًا مودة الأشرار. المحروم من حرم صالحي الإخوان. لقاء الخليل شفاء الغليل. قلة الزيارة، أمان من الملالة. إخوان السوء كشجر النار يحرق بعضه بعضا. علامة الصديق إذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب، ولا يبتدئ بالكتاب. لا يفسدنك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له. من لم يقدم الامتحان قبل الثقة، والثقة قبل الأنس، أثمرت مودته ندمًا. إذا قدمت الحرمة، تشبهت بالقرابة. العتاب حياة المودة. ظاهر العتاب خير من باطن الحقد. ما أكثر من يعاتب لطلب علة، ويبقى الود ما بقى العتاب. كمون الحقد في الفؤاد ككمون النار في الزناد. القريب بعيد بعداوته، والبعيد قريب بمودته. لا تأمنن عدوك وإن كان مقهورًا، واحذره وإن كان مفقودًا، فإن حد السيف فيه وإن كان مغمودًا لا تتعرض لعدوك في دولته، فإنها إذا زالت كفتك مؤونته. نصح الصديق تأديب، ونصح العدو تأنيب.

روى البيهقي قال: أخبرنا بعض أصحابنا قال: شهدت المأمون يومًا وقد خرج من باب البستان ببغداد فصاح به رجل بصري: يا أمير المؤمنين إني تزوجت بامرأة من آل زياد وإن أبا الرازي فرق بيننا وقال: هي امرأة من قريش؟ قال: فأمر عمرو بن مسعدة فكتب إلى أبي الرازي: إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزيادية وخلعك إياها إذ كانت من قريش. فمتى تحاكمت إليك العرب؟ لا أم لك في أنسابها، ومتى وكلتك قريش يابن اللخناء بأن تلصق بها من ليس منها؟ فخل بين الرجل وامرأته، فلئن كان زياد من قريش، إنه لابن سمية بغي عاهرة، لا يفتخر، بقرابتها ولا يتطاول بولادتها. ولئن كان ابن عبيد، لقد باء بأمر عظيم، إذ ادعى إلى غير أبيه، لحظ تعجله، وملك قهره.

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب لرجل به عناية إلى بعض العمال في قضاء حقه، وأن يختصر كتابه ما أمكنه، حتى يكون ما يكتب به في سطر واحد، لا زيادة عليه، فكتب عمرو:

> كتابي إليك كتاب واثق بمن كتبت إليه، معني بمن كتب له، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله.

وكتب إلى بعض الرؤساء، وقد تزوجت أمه فساءه ذلك، فلما قرأها ذلك الرئيس تسلى بها، وذهب عنه ما كان يجده. وقيل: إن هذه الرسالة من إنشاء ابن العميد وهي:

> الحمد لله الذي كشف عنا ستر الحيرة، وهدانا لستر العورة. وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة، ومنع من عضل الأمهات، كما منع من وأد البنات، استنزالا للنفوس الأبية، عن الحمية حمية الجاهلية، ثم عرض لجزيل الأجر، من استسلم لواقع قضائه، وعوض جليل الذخر من صبر على نازل بلائه، وهنأك الذي شرح للتقوى صدرك، ووسع في البلوى صبرك، وألهمك من التسليم لمشيئته، والرضا بقضيته، ما وفقك له من قضاء الواجب في أحد أبويك، ومن عظم حقه عليك، وجعل الله تعالى جده ما تجرعته من أنف، وكظمته من أسف، معدودًا فيما يعظم به أجرك، ويجزل عليه ذخرك، وقرن بالحاضر من امتعاضك بفعلها، المنتظر من ارتماضك بدفنها، فتستوفي بها المصيبة، وتستكمل عنها المثوبة، فوصل الله لسيدي ما استشعره من الصبر على عرسها، بما يكتسبه من الصبر على نفسها، وعوضه من أسرة فرشها، أعواد نعشها، وجعل تعالى جده ما ينعم به عليه بعدها من نعمة، معرى من نقمة، وما يوليه بعد قبضها

من منحة، مبرأ من محنة، فأحكام الله تعالى جده، وتقدست أسماؤه، جارية على غير مراد المخلوقين، لكنه تعالى يختار لعباده المؤمنين ما هو خير لهم في العاجلة، وأبقى لهم في الآجلة، اختار الله لك في قبضها إليه، وقدومها عليه، ما هو أنفع لها، وأولى بها، وجعل القبر، كفوءًا لها والسلام.

وقال عبد العزيز بن يحيى المكي الذي ناظر بشر بن غياث المريسي بحضرة أمير المؤمنين في مسألة خلق القرآن:

جاءني خليفة عمرو بن مسعدة ومعه جمع من الفرسان والرجالة فحملني مكرمًا على دابته حتى صار إلى باب أمير المؤمنين فأوقفني حتى جاء عمرو بن مسعدة فدخل فجلس في حجرته التي كان يجلس فيها ثم أذن لي بالدخول عليه فدخلت فلما صرت بين يديه أجلسني ثم قال لي: أنت مقيم على ما كنت عليه أو قد رجعت عنه؟ فقلت: بل مقيم على ما كنت وقد ازددت بتوفيق الله تعالى إياي بصيرة في أمري؛ فقال لي عمرو بن مسعدة: أيها الرجل، قد حملت نفسك على أمر عظيم، وبلغت الغاية في مكروهها، وتعرضت لما لا قوام لك به في مخالفة أمير المؤمنين، وادعيت بما لا يثبت لك به حجة على مخالفتك، ولا لأحد غيرك، وليس وراءك بعد الحجة عليك إلا السيف، فانظر لنفسك وبادر أمرك، قبل أن تقع المناظرة وتظهر عليك الحجة، فلا تنفعك الندامة ولا يقبل منك معذرة ولا تقال لك عثرة، فقد رحمتك وأشفقت عليك مما هو نازل بك، وأنا أستقيل لك أمير المؤمنين وأسأله الصفح عن جرمك، وعظيم ما كان منك إذا أظهرت الرجوع عنه والندم على ما كان، وآخذ لك الأمان منه والجائزة، فإن كانت لك ظلامة أزلتها عنك وإن كانت لك حاجة قضيتها لك، فإنما جلست رحمة لك مما هو نازل بك بعد ساعة إن أقمت على ما أنت عليه ورجوت أن يخلصك الله تعالى على يدي من عظيم ما أوقعت نفسك فيه.

شعره

نقلنا أمثلة قليلة من نثر عمرو بن مسعدة، أما شعره فقليل جدًا. ذكر المترجمون له أنه كان له فرس أدهم غر، لم يكن لأحد مثله فراهة وحسنًا. فبلغ المأمون خبره، وبلغ عمرو بن مسعدة ذلك. فخاف أن يأمر بقوده إليه فلا يكون له فيه محمدة، فوجه به إليه هدية وكتب معه:

يـا إمـامًـا لا يُـدا نـيـهِ إذا عُـدّ إمـامُ
فَضلَ الناسَ كما يَفْـ ـضُل نقصانًا تَمامُ
قد بَعـثْنا بـجَـوادٍ مـثـلُـه لـيس يُـرامُ
فرَسٌ يُزْهى به للـ ـحُسن سَرْجٌ ولجَامُ
دُونه الخيلُ كما مثـ ـلك في الفضلِ الأنامُ
وجـهُهُ صُبحٌ ولكن سـائَر الـجسم ظلامُ
والذي يَصْلُح للمَو لَى على العبدِ حَرَامُ

وعمرو هو القائل:

ومستعذِب للهَجْرِ والوصل أعذَبُ أُكـاتِـمُـه حُـبِّـي فَـيَـنْـأَى وأَقْـرُبُ
إذا جدتُ مني بالرضا جاد بالجَفَا ويَـزْعُـم أَنِّـي مُـذْنبٌ وهـو أذنبُ
تعلّمتُ ألوانَ الرضا خوفَ هَجْرِه وعلّمه حُبِّي له كيف يَغْضَبُ
ولي غيرُ وجه قد عرفتُ طريقَهُ ولـكن بـلا قـلـبٍ إلـى أيـن أذهـبُ

ووقع مرة في ظهر رقعة لرجل:

أَعْـزِزْ عَـلـيَّ بـأمـرٍ أنـت طَـالِـبُـهُ لم يُمكِن النُّجْحُ فيه وانقضى أَمَدُهْ

ولعمرو بن مسعدة حكايات منها ما حكاه القاضي التنوخي في كتاب الفرج[٢٠] بعد الشدة: قال عمرو بن مسعدة: كنت مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم حتى إذا نزلت الرقة قال: يا عمرو، ما ترى الرجحى قد احتوى على الأهواز، وهي سلة الخير وجميع المال قبله وطمع فيها، وكتبه متصلة بحملها، وهو يتعلل ويتربص بي الدوائر؟

فقلت: أنا أكفي أمير المؤمنين هذا، وأنفذ من يضطره إلى حمل ما عليه، فقال: ما يقنعني هذا، فقلت: فيأمر أمير المؤمنين بأمره، فقال: فاخرج إليه بنفسك حتى تصفده بالحديد، فتحمله إلى بغداد وتقبض على جميع ما في يده من أموالنا، وتنظر في أعمالنا وترتب لها عمالا، فقلت: السمع والطاعة، فلما كان في غد دخلت عليه فقال: ما فعلت فيما أمرتك به؟ قلت: أنا على ذلك، قال: أتريد أن تجيء في غد مودعًا؟ قلت: السمع والطاعة، فلما كان في غد جئته مودعًا، فقال: أريد أن تحلف لي أنك لا تقيم ببغداد إلا يومًا واحدًا، فاضطربت من ذلك إلى أن حضّني واستحلفني ألا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجت حتى قدمت بغداد، فلم أقم بها إلا ثلاثة أيام وانحدرت في زلالي أريد البصرة وجعل لي في الزلالي خيش واستكثرت من الثلج لشدة الحر.

فلما صرت بين جرجان[٢١] وجبل سمعت صوتًا من الشاطئ يصيح: يا ملاح، فرفعت سجف الزلالي وإذا بشيخ كبير السن جالس حاسر الرأس حافي القدمين خلق القميص، فقلت للغلام: أجبه، فأجابه، فقال: يا غلام، أنا شيخ كبير السن على هذه الصورة التي ترى، وقد أحرقتني الشمس وكادت تتلفني، وأريد جبل، فاحملوني معكم فإن الله يحسن أجر صاحبكم، قال: فشتمه الملاح وانتهره، فأدركتني رقة عليه وقلت: خذوه معنا، فتقدمنا الشط وصحنا به وحملناه، فلما صار معنا في الزلالي وانحدرنا نتقدم فدفعت إليه قميصًا ومنديلا وغسل وجهه واستراح وكأنه كان ميتًا وعاد إلى الدنيا فحضر وقت الغذاء وتقدمت وقلت للغلام: هاته يأكل معنا، فجاء وقعد على الطعام، فأكل أكل أديب نظيف غير أن الجوع أثر فيه، فلما رفعت المائدة أردت أن يقوم ويغسل يده ناحية كما تفعل العامة في مجالس الخاصة فلم يفعل، فغسلت يدي وتذممت أن آمر بقيامه، فقلت: قدموا له الطشت فغسل يده، وأردت بعدها أن يقوم لأنام فلم يفعل، فقلت: يا شيخ، أي شيء صناعتك؟ قال: حائك أصلحك الله، فقلت في نفسي: هذه الحياكة علمته سوء الأدب، فتناومت عليه ومددت رجلي فقال: قد سألتني عن صناعتي وأنت أعزك الله ما صناعتك؟ فأكبرت ذلك وقلت: أنا جنيت على نفسي هذه الجناية ولابد من احتمالها، أتراه الأحمق لا يرى زلالي وغلماني ونعمتي وأن مثلي لا يقال له هذا! فقلت: كاتب، فقال: كاتب كامل أم كاتب ناقص فإن الكتاب خمسة، فأيهم أنت؟ فورد عليّ قول الحائك موردا عظيمًا وسمعت كلامًا أكبرته وكنت متكئًا فجلست، ثم قلت: فصل الخمسة قال: نعم، كاتب خراج يحتاج أن يكون عالمًا بالشروط والطسوت والحساب والمساحة والبثوق والفتوق والرتوق. وكاتب أحكام يحتاج أن يكون عالمًا بالحلال والحرام والاحتجاج

والإجماع والأصول والفروع. وكاتب معونة يحتاج أن يكون عالمًا بالقصاص والحدود والجراحات والمواثبات والسياسات. وكاتب جيش يحتاج أن يكون عالمًا بحلى الرجال وشيات الدواب ومداراة الأولياء وشيئًا من العلم بالنسب والحساب. وكاتب رسائل يحتاج أن يكون عالمًا بالصدور والفصول والإطالة والإيجاز وحسن البلاغة والخط، قال: فقلت: إني كاتب رسائل، قال: فأسألك عن بعضها، قلت: قل. فقال لي: أصلحك الله، لو أن رجلا من إخوانك تزوج أمك فأردت أن تكاتبه مهنئًا فكيف كنت تكاتبه؟ ففكرت في الحال فلم يخطر ببالي شيء، فقلت: ما أرى للتهنئة وجهًا، قال: فكيف تكتب إليه تعزيه ففكرت فلم يخطر ببالي شيء، فقلت: اعفني، قال: قد فعلت، ولكنك لست بكاتب رسائل، قلت: أنا كاتب خراج، قال: لا بأس، لو أن أمير المؤمنين ولاك ناحية وأمرك فيها بالعدل والإنصاف وتقضي حاجة السلطان فيتظلم إليك بعضهم من مساحيك وأحضرتهم للنظر بينهم وبين رعيتك، فحلف المساح بالله العظيم لقد أنصفوا وما ظلموا، وحلفت الرعية بالله إنهم لقد جاروا وظلموا، وقالت الرعية: قف معنا على ما مسحوه وانظر من الصادق من الكاذب، فخرجت لتقف عليه، فوقفوا على براح شكله قاتل قثا، كيف كنت تمسحه؟ قلت: كنت آخذ طوله على انعراجه وعرضه ثم أضربه في مثله، قال: إن شكل قاتل قثا أن يكون زاويتاه محدودتين وفي تحديده تقويس، قلت: فآخذ الوسط فأضربه في العرض، قال: إذا ينثني عليك العمود، فأسكتني، فقلت: ولست كاتب خراج، قال: فإذا ما أنت؟ قلت: أنا كاتب قاض، قال: أرأيت لو أن رجلا توفى وخلف امرأتين حاملتين إحداهما حرة والأخرى سرية، فولدت السرية غلامًا والحرة جارية، فعدت الحرة إلى ولد السرية فأخذته، وتركت بدله الجارية فاختصما في ذلك، فكيف الحكم بينهما؟ قلت: لا أدري، قال: فلست بكاتب قاض، قلت: فأنا كاتب جيش، فقال: لا بأس، أرأيت لو أن رجلين جاءا إليك لتحليهما وكل واحد منهما اسمه واسم أبيه كاسم الآخر إلا أن أحدهما مشقوق الشفة العليا، والآخر مشقوق الشفة السفلى؟ كيف كنت تحليهما، قال: قلت: فلان الأفلح وفلان الأعلم، قال: إن رزقهما مختلفان وكل واحد منهما يجيء في دعوة الأخر، قلت: لا أدري، قال: فلست بكاتب جيش، قلت: أنا كاتب معونة، قال: لا تبالي، لو أن رجلين رفعا إليك قد شج أحدهما الآخر شجة موضحة[٢٢]، وشج الآخر شجة مأمونة، كيف كنت تفصل بينهما؟ قلت: لا أدري، قال: لست إذا كاتب معونة، اطلب لنفسك أيها الرجل شغلا غير هذا، قال: فصغرت إلي نفسي وغاظني، فقلت: قد سألت عن هذه الأمور ويجوز ألا يكون عندك جوابها كما لم يكن عندي، فإن كنت عالمًا بالجواب فقل. فقال: نعم، أما

الذي تزوج أمك فتكتب إليه: أما بعد، فإن الأمور تجري من عند الله بغير محبة عباده ولا اختيارهم، بل هو تعالى يختار لهم ما أحب، وقد بلغني تزويج الوالدة خار الله لك في قبضها، وإن القبور أكرم الأزواج وأستر العيوب والسلام.

وأما براح قاتل قثا فتمسح العمود حتى إذا صار عددًا في يدك ضربته في مثله ومثل ثلثه فما خرج فهو المساحة.

وأما الجارية والغلام فيوزن لبن الاثنتين، فأيهما كان أخف فالجارية له.

وأما الجنديان المتفقا الاسمين، فإن كان الشق في الشفة العليا قيل فلان الأعلم، وإذا كان في الشفة السفلى قلت فلان الأفلح.

وأما صاحب الشجتين فلصاحب الموضحة ثلث الدية، ولصاحب المأمونة نصف الدية، فلما أجاب بهذه المسائل تعجبت منه وامتحنته بأشياء كثيرة غيرها فوجدته ماهرًا في جميعها حاذقًا بليغًا، فقلت: ألست زعمت أنك حائك، فقال: أنا أصلحك الله حائك كلام ولست بحائك نساجة، وأنشأ يقول:

ما مَرَّ بؤسٌ ولا نعيمٌ إلا ولي فيهما نصيبُ
فذقتُ حُلْوًا وذقتُ مُرًا كذاك عَيْشُ الفتى ضُروبُ
نوائبُ الدهر أدَّبتني وإنّما يُوعَظُ الأديبُ

قلت: فما الذي بك من سوء الحال؟ قال: أنا رجل كاتب دامت عطلتي، وكثرت عيلتي، وتواصلت محنتي، وقلت حيلتي، فخرجت أطلب تصرفًا فقطع عليَّ الطريق فصرت كما ترى، فمشيت على وجهي، فلما لاح لي الزلالي استغثت بك، قلت: فإني قد خرجت إلى متصرف جليل أحتاج فيه إلى جماعة مثلك، وقد أمرت لك بخلعة حسنة تصلح لمثلك وخمسة آلاف درهم تصلح بها أمرك، وتنفذ منها إلى عيالك، وتقوي نفسك بباقيها، وتصير معي إلى عملي فأوليك أجله، فقال: أحسن الله جزاءك إذًا تجدني بحيث أسرك، ولا أقوم مقام معذر إليك إن شاء الله، وأمرت بتقبيضه ما رسمت له قبضه، وانحدر إلى الأهواز معي، فجعلته المناظر للرجحي والمحاسب له بحضرتي، والمستخرج لما عليه، فقام بذلك أحسن قيام وعظمت حاله معي، وعادت نعمته إلى أحسن ما كانت عليه.

وفي عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي:

أَعِنِّي على بارقٍ ناضبٍ ... خَفِيٍّ كوَحْيِك بالحاجبِ
كأنّ تألُّقَه في السماء ... يدا كاتبٍ أو يدا حاسب
فروَّى منازلَ تَذْكارُها ... يُهَيِّج من شوقك الغالب
غريبٌ يحِنّ لأوطانه ... ويَبْكي على عصره الذاهب
كفاك أبو الفضل عمرُو النَّدَى ... مطالعةَ الأملِ الكاذبِ
وصدقُ الرجاء وحُسْنُ الوفاء ... لعمرو بن مَسْعَدَة الكاتب
عريضُ الفِنَاء طويلُ البِنَا ... ء في العِزِّ والشَّرَفِ الثاقب
بنى الملك طودٌ له بيتُه ... وأهلُ الخلافةِ من غالب
هو المرتَجَى لصرُوف الزمان ... ومُعْتَصَمُ الراغبِ الراهب
جوادٌ بما ملكتْ كفُّه ... على الضيف والجار والصاحب
بأدْمِ الرِّكاب ووَشْي الثيا ... بِ والطِّرْفِ والطَّفْلة الكاعب
نؤمِّلُه لِجسامِ الأمور ... ونرجوه للجَلَلِ الكارب
خَصِيبُ الجناب مَطِيرُ السحاب ... بشيمته لَيِّنُ الجانب
يُرَوِّي القَنَا من نحور العِدَا ... ويُغْرِقُ في الجُود كاللّاعب
إليك تبدّت بأكوارها ... حراجيجُ في مَهْمَهٍ لاحب
كأنّ نعامًا تَبَارَى بنا ... بوابِلِ من بَرَدٍ عاصب
يَرِدْنَ نَدَى كفِّك المُرْتَجَى ... ويَقْضِينَ من حقّك الواجب
ولله ما أنتَ من خابرٍ ... بسَجْلٍ لقومٍ ومن خارب
فتَسْقِي العدا بكؤوس الرَّدَى ... وتسبِقُ مسئلةَ الطالب
وكم راغبٍ نلتَه بالعَطَا ... وكم نِلتَ بالعَطْف من هارب
وتلك الخلائقُ أعْطِيتَها ... وفَضْلٌ من المْانع الواجب
كَسَبتَ الثناءَ وكسبُ الثنا ... ء أفضلُ مَكْسبةِ الكاسب
يقينُك يجلو ستورَ الدُّجَى ... وظنُّك يُخْبِر بالغائب

(٨) رسائل الجاحظ

رسالته في بني أمية

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ[٢٣]: أطال الله بقاءك، وأتم نعمته عليك، وكرامته لك. اعلم أرشد الله أمرك، أن هذه الأمة قد صارت بعد إسلامها، والخروج من جاهليتها، إلى طبقات متفاوتة، ومنازل مختلفة: فالطبقة الأولى عصر النبي ﷺ، وأبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، وست سنين من خلافة عثمان رضي الله عنه، كانوا على التوحيد الصحيح، والإخلاص المحض،[٢٤] مع الألفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة، وليس هناك عمل قبيح، ولا بدعة فاحشة، ولا نزع يد من طاعة، ولا حسد ولا غل ولا تأول، حتى كان الذي كان: من قتل عثمان، رضي الله عنه، وما انتهك منه، ومن خبطهم إياه بالسلاح، وبعج بطنه بالحراب، وفرى أوداجه بالمشاقص، وشدخ هامته بالعُمد، مع كفه عن البسط، ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قبل ذلك: من كم وجه يجوز قتل من شهد الشهادة، وصلى القبلة، وأكل الذبيحة؛ ومع ضرب نسائه بحضرته، وإقحام الرجال على حرمته، مع اتقاء نائلة بنت الفرافصة[٢٥] عنه بيدها، حتى أطنوا[٢٦] إصبعين من أصابعها، وقد كشفت عن قناعها، ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك رادعًا لهم، وكاسرًا من غربهم؛ مع وطئهم في أضلاعه بعد موته، وإلقائهم على المزبلة جسده مجردًا بعد سحبه، وهي الجزرة التي جعلها رسول الله ﷺ كفئا لبناته وأياماه وعقائله، بعد السب والتعطيش والحصر الشديد، والمنع من الفوت، مع احتجاجه عليهم وإفحامه لهم؛ ومع اجتماعهم على أن دم الفاسق حرام، كدم المؤمن، إلا من ارتد بعد إسلام، أو زنى بعد إحصان، أو قتل مؤمنًا على عمد، أو رجل عدا على الناس بسيفه فكان في امتناعهم منه عطبه؛ ومع اجتماعهم على ألا يقتل من هذه الأمة، ولا يجهز منها على جريح؛ ثم مع ذلك كله ذمروا[٢٧] عليه وعلى أزواجه وحرمه وهو جالس في محرابه ومصحفه يلوح في حجره، لن يرى أن موحدًا يقدم على قتل من كان في مثل صفته وحاله.

لا جرم لقد احتلبوا به دمًا لا تطير رغوته، ولا تسكن فورته، ولا يموت ثائره، ولا يكل طالبه، وكيف يضيع الله دم وليه، والمنتقم له، وما سمعنا بدم بعد دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، غلا غليانه، وقتل سافحه، وأدرك بطائلته، وبلغ كل محبته، كدمه رحمة الله عليه.

ولقد كان لهم في أخذه، وفي إقامته للناس، والاقتصاص منه، وفي بيع ما ظهر من رباعه، وحدائقه، وسائر أمواله، وفي حبسه بما بقي عليه، وفي طمره حتى لا يحس،

بذكره، ما يغنيهم عن قتله إن كان قد ركب كل ما قذفوه به، وادعوه عليه، وهذا كله بحضرة جلة المهاجرين والسلف المقدمين، والأنصار والتابعين.

ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة، ومراتب متباينة: من قاتل ومن شادّ على عضده، ومن خاذل عن نصرته، والعاجز ناصر بإرادته، ومطيع بحسن نيته، وإنما الشك منا فيه، وفي خاذله، ومن أراد عزله والاستبدال به؛ فأما قاتله، والمعين على دمه، والمريد لذلك منه، فضلال لا شك فيهم، ومراق لا امتراء في حكمهم؛ على أن هذا لم يعد منهم الفجور: إما على سوء تأويل، وإما على تعمد للشقاء، ثم ما زالت الفتن متصلة، والحروب مترادفة، كحرب الجمل، وكوقائع صفين، وكيوم النهروان، وقبل ذلك يوم الزابوقة،[٢٨] وفيه أسر ابن حنيف، وقتل حكيم بن جبلة، إلى أن قتل أشقاها عليٌّ بن أبي طالب رضوان الله عليه، فأسعده الله بالشهادة، وأوجب لقاتله النار واللعنة؛ إلى أن كان من اعتزال الحسن عليه السلام الحروب وتخليته الأمور، عند انتثار أصحابه، وما رأى من الخلل في عسكره، وما عرف من اختلافهم على أبيه، وكثرة تلونهم عليه؛ فعندها استوى معاوية على الملك، واستبد على بقية الشورى، وعلى جماعة المسلمين، من الأنصار والمهاجرين، في العام الذي سموه عام الجماعة، وما كان عام جماعة، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة، والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكًا كسرويا، والخلافة غصبا قيصريا، ولم يعد ذلك أجمع الضلال والفسق. ثم ما زالت معاصيه من جنس ما حكينا، وعلى منازل ما رتبنا، حتى رد قضية رسول الله ﷺ ردا مكشوفًا، وجحد حكمه جحدًا ظاهرًا، في ولد الفراش وما يجب للعاهر، مع اجتماع الأمة أن سمية لم تكن لأبي سفيان فراشا، وأنه إنما كان بها عاهرًا. فخرج بذلك من حكم الفجار إلى حكم الكفار، وليس قتل حُجر بن عدي، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر، وبيعة يزيد الخليع، والاستئثار بالفيء، واختيار الولاة على الهوى، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة، من جنس جحد الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسنن المنصوبة، وسواء في باب ما يستحق من الكفار جحد الكتاب، ورد السنة إذا كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره، إلا أن أحدهما أعظم، وعقاب الآخرة عليه أشد، فهذه أول كفرة، كانت من الأمة، ثم لم تكن إلا فيمن يدعي إمامتها، والخلافة عليها؛ على أن كثيرًا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره، وقد أربت عليهم نابتة عصرنا، ومبتدعة دهرنا، فقالت: لا تسبوه، فإن له صحبة، وسب معاوية بدعة، ومن يبغضه فقد خالف السنة، فزعمت أن من السنة ترك البراءة، ممن جحد السنة؛ ثم الذي كان من يزيد ابنه، ومن عماله، وأهل نصرته، ثم غزو مكة، ورمى

الكعبة، واستباحة المدينة، وقتل الحسين عليه السلام، في أكثر أهل بيته، مصابيح الظلام، وأوتاد الإسلام، بعد الذي أعطى من نفسه، من تفريق أتباعه، والرجوع إلى داره وحرمه، أو الذهاب في الأرض، حتى لا يحس به أو المقام حيث أمر به، فأبوا إلا قتله، والنزول على حكمهم، وسواء قتل نفسه بيده، أو أسلمها إلى عدوه، وخير فيها من لا يبرد غليله إلا بشرب دمه، فاحسبوا قتله ليس بكفر، وإباحة المدينة، وهتك الحرمة، ليس بحجة؛ كيف تقولون في رمي الكعبة، وهدم البيت الحرام، وقبلة المسلمين؟ فإن قلتم ليس ذلك أرادوا بل إنما أرادوا المتحرز به، والمتحصن بحيطانه، أفما كان في حق البيت وحريمه أن يحصروه فيه، إلى أن يعطى بيده! وأي شيء بقى من رجل، قد أخذت عليه الأرض إلا موضع قدمه! واحسبوا ما رووا عليه من الأشعار، التي قولها شرك، والتمثل بها كفر، شيئًا مصنوعًا؛ كيف تصنع بنقر القضيب بين ثنيتي الحسين عليه السلام، وحمل بنات رسول الله ﷺ حواسر على الأقتاب العارية، والإبل الصعاب، والكشف عن عورة علي بن الحسين عند الشك في بلوغه! على أنهم إن وجدوه، وقد أنبت قتلوه وإن لم يكن أنبت حملوه، كما يصنع أمير جيش المسلمين، بذرارى المشركين؛ وكيف تقول في قول عبيد الله بن زياد لإخوته وخاصته، دعوني أقتله، فإنه بقية هذا النسل، فأحسم به هذا القرن، وأميت به هذا الداء، وأقطع به هذه المادة!

خبرونا علام تدل هذه القسوة، وهذه الغلظة! بعد أن شفوا أنفسهم بقتلهم، ونالوا ما أحبوا فيهم، أتدل على نصب، وسوء رأي وحقد، وبغضاء ونفاق، وعلى يقين مدخول وإيمان مخروج! أم تدل على الإخلاص، وعلى حب النبي ﷺ، والحفظ له، وعلى براءة الساحة وصحة السريرة! فإن كان على ما وصفنا لا يعدو الفسق والضلال، وذلك أدنى منازله؛ فالفاسق ملعون، ومن نهى عن نهي الملعون فملعون.

وزعمت نابتة عصرنا، ومبتدعة دهرنا، أن سب ولاة السوء فتنة، ولعن الجورة بدعة، وإن كانوا يأخذون السِّمِىّ بالسِّمِىّ، والولي بالولي، والقريب بالقريب، وأخافوا الأولياء، وأمّنوا الأعداء، وحكموا بالشفاعة والهوى، وإظهار الغدرة والتهاون بالأمة، والقمع للرعية، وأنهم في غير مداراة ولا تقية، وإن عدا ذلك إلى الكفر، وجاوز الضلال إلى الجحد، فذاك أضل ممن كف عن شتمهم، والبراءة منهم، على أنه ليس من استحق اسم الكفر بالقتل كمن استحقه برد السنة وهدم الكعبة، وليس من استحق اسم الكفر بذلك كمن شبه الله بخلقه، وليس من استحق الكفر بالتشبيه كمن استحقه بالتجوير،[٢٩] والنابتة في هذا الوجه أكفر من يزيد وأبيه، وابن زياد وأبيه، ولو ثبت أيضًا على يزيد أنه تمثل بقول بن الزيعري:

ليتَ أَشْياخي ببدْرٍ شهِدوا جزعَ الخَزْرَج من وَقْعِ الأَسَلْ
لاستطاروا واستهلّوا فَرَحًا ثم قالوا يا يزيدُ لا تسَل
قد قتلنا الغُرّ من ساداتهم وعدَلْناهُ ببدرٍ فاعتدَل

كان تجوير النابتي لربه، وتشبيهه بخلقه، أعظم من ذلك وأقطع، على أنهم مجمعون على أنه ملعون من قتل مؤمنًا، متعمدًا أو متأولًا؛ فإذا كان القاتل سلطانًا جائرًا، أو أميرًا عاصيًا، لم يستحلوا سبه، ولا خلعه، ولا نفيه، ولا عيبه، وإن أخاف الصلحاء، وقتل الفقهاء، وأجاع الفقير، وظلم الضعيف، وعطل الحدود والثغور، وشرب الخمور، وأظهر الفجور؛ ثم ما زال الناس يتسكعون مرة، ويداهنونهم مرة، ويقاربونهم مرة، ويشاركونهم مرة إلا بقية ممن عصمه الله تعالى ذكره، حتى قام عبد الملك بن مروان، وابنه الوليد، وعاملهما الحجاج بن يوسف، ومولاه يزيد بن أبي مسلم، فأعادوا على البيت بالهدم، وعلى حرم المدينة بالغزو، فهدموا الكعبة، واستباحوا الحرمة، وحولوا قبلة واسط، وأخروا صلاة الجمعة، إلى مغير بان الشمس، فإن قال رجل لأحدهم: اتق الله فقد أخرت الصلاة عن وقتها، قتله على هذا القول جهارًا غير ختل، وعلانية غير سر، ولا يعلم القتل على ذلك إلا أقبح من إنكاره، فكيف يكفر العبد بشيء ولا يكفر بأعظم منه!

وقد كان بعض الصالحين ربما وعظ الجبابرة، وخوفهم العواقب، وأراهم أن في الناس بقية ينهون عن الفساد في الأرض، حتى قام عبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، فزجرا عن ذلك، وعاقبا عليه، وقتلا فيه، فصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه؛ فاحسب تحويل القبلة كان غلطًا، وهدم البيت كان تأويلا، واحسب ما رووا من كل وجه، أنهم كانوا يزعمون أن خليفة المرء في أهله[٣٠] أرفع عنده من رسوله إليهم، باطلا ومسموعًا مولدًا، واحسب وسم أيدي المسلمين ونقش أيدي المسلمات، وردهم بعد الهجرة إلى قراهم، وقتل الفقهاء، وسب أئمة الهدى، والنصب لعترة رسول الله ﷺ، لا يكون كفرًا؛ كيف تقول في جمع ثلاث صلوات فيهن الجمعة، ولا يصلون أولاهن، حتى تصير الشمس على أعالي الجدران، كالملاء المعصفر، فإن نطق مسلم، خبط بالسيف، وأخذته العمد، وشك بالرماح، وإن قال قائل: اتق الله أخذته العزة بالإثم، ثم لم يرض إلا بنثر دماغه على صدره، وبصلبه حيث تراه عياله، ومما يدل على أن القوم لم يكونوا إلا في طريق التمرد على الله عز وجل، والاستخفاف بالدين، والتهاون بالمسلمين، والابتذال لأهل الحق، أكل أمرائهم الطعام، وشربهم الشراب على منابرهم أيام جمعهم وجموعهم، فعل

ذلك حبيش[٣١] بن دلجة، وطارق مولى عثمان، والحجاج بن يوسف، وغيرهم، وذلك إن كان كفرا كله فلم يبلغ كفر نابتة عصرنا، وروافض دهرنا، لأن جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك. كان اختلاف الناس في القدر على أن طائفة تقول كل شيء بقضاء وقدر، وتقول طائفة أخرى كل شيء بقضاء وقدر إلا المعاصي، ولم يكن أحد يقول إن الله يعذب الأبناء ليغيظ الآباء، وإن الكفر والإيمان مخلوقان في الإنسان، مثل العمى والبصر، وكانت طائفة منهم تقول إن الله يرى، لا تزيد على ذلك، فإن خافت أن يظن بها التشبيه قالت يرى بلا كيف تقززا من التجسيم والتصوير، حتى نبتت هذه النابتة، وتكلمت هذه الرافضة، فقالت جسيما، وجعلت له صورة وحدا، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير، ثم زعم أكثرهم أن كلام الله حسن وبين وحجة وبرهان، وأن التوراة غير الزبور، والزبور غير الإنجيل، والإنجيل غير القرآن، والبقرة غير آل عمران؛ وأن الله تولى تأليفه، وجعله برهانه على صدق رسوله، وأنه لو شاء أن يزيد فيه زاد، ولو شاء أن ينقص منه نقص، ولو شاء أن يبدله بدله، ولو شاء أن ينسخه كله بغيره نسخه؛ وأنه أنزله تنزيلا، وأنه فصله تفصيلا، وأنه بالله كان دون غيره، ولا يقدر عليه إلا هو، غير أن الله مع ذلك كله لم يخلقه؛ فأعطوا جميع صفات الخلق، ومنعوا اسم الخلق.

والعجب أن الخلق عند العرب إنما هو التقدير نفسه، فلذا قالوا: خلق كذا وكذا، ولذلك قال: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. وقال: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ وقال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ فقالوا: صنعه وجعله وقدره، وأنزله وفصله وأحدثه، ومنعوا خلقه، وليس تأويل خلقه أكثر من قدره، ولو قالوا بدل قولهم: قدره ولم يخلقه خلقه ولم يقدره ما كانت المسألة عليهم إلا من وجه واحد؛ والعجب أن الذي منعه بزعمه أن يزعم أنه مخلوق، أنه لم يسمع ذلك من سلفه، وهو يعلم أنه لم يسمع أيضًا من سلفه أنه ليس بمخلوق، وليس ذلك يهم، ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف، وعلى جهة تقطيع الحروف، وإعمال اللسان والشفتين، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام، ولما كنا عندهم على غير هذه الصفة، وكنا لكلامنا غير خالقين، وجب أن الله عز وجل لكلامه غير خالق؛ إذ كنا غير خالقين لكلامنا، فإنما قالوا ذلك، لأنهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه فرقًا، وإن لم يقروا بذلك بألسنتهم فذلك معناهم وقصدهم.

وقد كانت هذه الأمة لا تجاوز معاصيها الإثم والضلال، إلا ما حكيت لك عن بني أمية، وبني مروان، وعمالهم، ومن لم يدن بإكفارهم حتى نجمت النوابت، وتابعتها هذه

العوام، فصار الغالب على هذا القرن الكفر، وهو التشبيه والجبر، فصار كفرهم أعظم من كفر من مضى في الأعمال التي هي الفسق، وشركاء[٣٢] من كفر منهم بتوليهم، وترك إكفارهم، قال الله عز وجل من قائل: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.

وأرجو أن يكون الله قد أغاث المحقين، ورحمهم وقوى ضعفهم، وكثر قلتهم، حتى صار ولاة أمرنا في هذا الدهر الصعب والزمن الفاسد أشد استبصارًا في التشبيه من عليتنا، وأعلم بما يلزم فيه منا، وأكشف للقناع من رؤسائنا؛ وصارفوا الناس وقد انتظموا معان[٣٣] الفساد أجمع، وبلغوا غايات البدع، ثم قرنوا بذلك العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم، والحمية التي لا تبقي دينًا إلا أفسدته، ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية، وما قد صار إليه الموالي من الفخر على العجم والعرب، وقد نجمت من الموالي ناجمة، ونبتت منهم نابتة، تزعم أن المولى بولائه قد صار عربيًا، لقول النبي ﷺ: «مولى القوم منهم» ولقوله: «الولاء لُحْمَة كلُحْمَة النسب لا يباع ولا يوهب».

قال: فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا أشرف من العرب، ولما حول ذلك إلى العرب صارت العرب أشرف منهم، قالوا: فنحن معاشر الموالي بقديمنا في العجم أشرف من العرب، وبالحديث الذي صار لنا في العرب أشرف من العجم، وللعرب القديم دون الحديث؛ ولنا خصلتان جميعًا وافرتان فينا، وصاحب الخصلتين أفضل من صاحب الخصلة، وقد جعل الله المولى بعد أن كان عجميًا عربيًا بولائه، كما جعل حليف قريش من العرب قرشيًا بحلفه، وجعل إسماعيل بعد أن كان أعجميًا عربيًا ولولا قول النبي ﷺ: «إن إسماعيل كان عربيًا» ما كان عندنا إلا أعجميًا لأن الأعجمي لا يصير عربيًا، كما أن العربي لا يصير أعجميًا، فإنما علمنا أن إسماعيل صيره الله عربيًا بعد أن كان أعجميًا، بقول النبي ﷺ، فكذلك حكم قوله «مولى القوم منهم» وقوله: «والولاء لُحْمة». قالوا: وقد جعل الله إبراهيم عليه السلام أبًا لمن لم يلد، كما جعله أبًا لمن ولد، وجعل أزواج النبي أمهات المؤمنين، ولم يلدن منهم أحدًا، وجعل الجار والد من لم يلد في قول غير هذا كثير قد أتينا عليه في موضعه، وليس أدعى إلى الفساد، ولا أجلب للشر من المفاخرة، وليس على ظهرها إلا فخور (إلا قليل) وأي شيء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك، وهو مقر أنه صار شريفًا بعتقك إياه.

وقد كتبت — مد الله في عمرك — كتبًا في مفاخرة قحطان، وفي تفضيل عدنان، وفي رد الموالي إلى مكانهم من الفضل والنقص، وإلى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف؛ وأرجو أن يكون عدلًا بينهم، وداعية إلى صلاحهم، ومنبهة عليهم ولهم؛

وقد أردت أن أرسل بالجزء الأول إليك ثم رأيت ألا يكون إلا بعد استئذانك، واستئمارك، والانتهاء في ذلك إلى رغبتك، فرأيك فيه موفق إن شاء الله عز وجل وبه الثقة.

ما كتبه إلى بعض إخوانه في ذم الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله حفظ من وفقه للقناعة، واستعمله بالطاعة؛ كتبت إليك وحالي حال من كثفت غمومه، وأشكلت عليه أموره، واشتبه عليه حال دهره، ومخرج أمره، وقل عنده من يثق بوفائه، أو يحمد مغبة إخائه، لاستحالة زماننا، وفساد أيامنا، ودولة أنذالنا؛ وقدما كان من قدم الحياء على نفسه، وحكم الصدق في قوله، وآثر الحق في أموره، ونبذ المشتبهات عليه من شؤونه، تمت له السلامة، وفاز بوفور حظ العافية، وحمد مغبة مكروه العاقبة؛ فنظرنا إذ حال عندنا حكمه، وتحولت دولته؛ فوجدنا الحياء متصلا بالحرمان والصدق آفة على المال، والقصد في الطلب بترك استعمال القحة، وإخلاق العرض من طريق التوكل دليلًا على سخافة الرأي، إذ صارت الحظوة البالغة، والنعمة السابغة، في لؤم المشيئة؛ وسناء الرزق من جهة محاشاة الرخاء، وملابسة معرة العار؛ ثم نظرنا في تعقب المتعقب لقولنا، والكاشر لحجتنا؛ فأقمنا له علمًا واضحًا، وشاهدًا قائمًا، ومنارًا بينا؛ إذ وجدنا من فيه السفولية الواضحة، والمثالب الفاضحة، والكذب المبرح، وأن الخلف المصرح، والجهالة المفرطة، والركاكة المستخفة، وضعف اليقين والاستثبات، وسرعة الغضب والجراءة، قد استكمل سروره، واعتدلت أموره، وفاز بالسهم الأغلب، والحظ الأوفر، والقدر الرفيع، والجواز الطائع، والأمر النافذ؛ إن زل قيل حكم، وإن أخطأ قيل أصاب، وإن هذى في كلامه وهو يقظان قيل رؤيا صادقة من نسمة مباركة؛ فهذه حجتنا والله على من زعم أن الجهل يخفض، وأن النوك يردي، وأن الكذب يضر، والخلف يزري؛ ثم نظرنا في الوفاء والأمانة والنبل والبلاغة وحسن المذهب وكمال المروءة وسعة الصدر وقلة الغضب وكرم الطبيعة، والفائق في سعة علمه، والحاكم على نفسه، والغالب لهواه، فوجدنا فلان بن فلان؛ ثم وجدنا الزمان لم ينصفه من حقه، ولا قام له بوظائف فرضه، ووجدنا فضائله

القائمة له قاعدة به؛ فهذا دليل أن الطلاح أجدى من الصلاح، وأن الفضل قد مضى زمانه، وعفت آثاره، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضده؛ ووجدنا العقل يشقى به قرينه، كما أن الجهل والحمق يحظى به خدينه؛ ووجدنا الشعر ناطقًا على الزمان، ومعربًا عن الأيام حيث يقول:

تَحامَقْ مع الحمقى إذا ما لقِيتَهم ولاقِهم بالجهل فِعْلَ أخي الجهل
وخلِّط إذا لاقيتَ يومًا مخلِّطًا يخلط في قول صحيح وفي هزل
فإني رأيت المرء يشقى بعقله كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

فبقيت — أبقاك الله — مثل من أصبح على أوفاز،[٣٤] ومن النقلة على جهاز، لا يسوغ له نعمة، ولا تطعم عينه غمضة، في أهاويل يباكره مكروهها، ويراوحه عقائبها؛ فلو أن الدعاء أجيب، والتضرع سُمع، لكانت العدة العظمى، والرجفة الكبرى؛ فليت أي أخي ما أستبطئه من النفخة، ومن فجأة الصيحة، قُضي فحان، وأُذن به فكان؛ فوالله ما عذبت أمة برجفة، ولا ريح ولا سخطة، عذاب عيني برؤية المغايظة المدمنة، والأخبار المهلكة، كأن الزمان يوكل بعذابي، أو ينصب بأيامي، فما عيش من لا يسر بأخ شفيق، ولا يصطبح في أول نهاره، إلا برؤية من يكرهه، ويغمه بطلعته؛ فقد طالت الغمة، وواظبت الكربة، وادلهمت الظلمة؛ وخمد السراج، وتباطأ الانفراج.

وصف الجاحظ لقريش وبني هاشم

قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها، وكيف عقولها ودهاؤها؛ وكيف رأيها وذكاؤها، وكيف سياستها وتدبيرها؛ وكيف إيجازها وتحسيرها، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم، وحدة أذهانها إذا كل الحديد؛ وكيف صبرها عند اللقاء، وثباتها في اللأواء؛ وكيف وفاؤها إذا استحسن الغدر؛ وكيف جودها إذا حب المال؛ وكيف ذكرها لأحاديث غد، وقلة صدودها عن جهة القصد؛ وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه؛ وكيف وصفها له ودعاؤها إليه؛ وكيف سماحة أخلاقها، وصونها لأعراقها؛ وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم، وطريفهم بتليدهم؛ وكيف أشبه علانيتهم سرهم، وقولهم فعلهم، وهل سلامة

صدر أحدهم إلا على قدر بعد غديره، وهل غفلته إلا في وزن صدق ظنه، وهل ظنه إلا كيقين غيره.

ما كتبه في الاعتذار

أما بعد فنعم البديل من الزلة الاعتذار، وبئس العوض من التوبة الإصرار، وإن أحق من عطفت عليه بحلمك من لم يستشفع إليك بغيرك، وإنني بمعرفتي بمبلغ حلمك وغاية عفوك، ضمنت لنفسي العفو من زلتها عندك، وقد مسني من الألم ما لم يشفه غير مواصلتك.

ما كتبه في الاستعطاف

ليس عندي أعزك الله سبب ولا أقدر على شفيع إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذي لا يكون إلا من نتاج حسن الظن وإثبات الفضل بحال المأمول وأرجو أن تكون من الشاكرين فتكون خير معتب، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله يجعل هذا الأمر سببًا لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سببًا للانقطاع إليكم والكون تحت أجنحتكم، فيكون لا أعظم بركة، ولا أنمى بقية من ذنب أصبحت فيه، وبمثلك — جعلت فداك — عاد الذنب وسيلة، والسيئة حسنة، ومثلك من انقلب به الشر خيرًا والغُرْم غُنْمًا.

من عاقب فقد أخذ حظه، وإنما الأجر في الآخرة، وطيب الذكر في الدنيا، على قدر الاحتمال وتجرع المرائر وأرجو، ألا أضيع وأهلك فيما بين كرمك وعقلك، وما أكثر من يعفو عمن صغر ذنبه وعظم حقه، وإنما الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم ضعيف الحرمة، وإن كان العفو عظيمًا مستطرفًا من غيركم فهو تلاد فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيرًا من الناس إلى مخالفة أمركم، فلا أنتم عن ذلك تنكلون، ولا على سالف إحسانكم تندمون، وما مثلكم إلا كمثل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يمر بملأ من بني إسرائيل إلا أسمعوه شرًا وأسمعهم خيرًا، فقال له شمعون الصفا: ما رأيت كاليوم كلما أسمعوك شرًا أسمعتهم خيرًا فقال: كل امرئ ينفق مما عنده وليس عندكم إلا الخير ولا في أوعيتكم إلا الرحمة «وكل إناء بالذي فيه ينضح».

ما كتبه في ذم الحسد

الحسد — أبقاك الله — داء ينهك الجسد، علاجه عسير وصاحبه ضجر وهو باب غامض، وما ظهر منه فلا يداوى وما بطن منه فمداويه في عناء، ولذلك قال النبي ﷺ: «دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء». الحسد عقيد الكفر، وحليف الباطل، وضد الحق منه تتولد العداوة وهو سبب كل قطيعة ومفرق كل جماعة، وقاطع كل رحم من الأقرباء ومحدث التفرق بين القرناء، وملقح الشر بين الحلفاء.

دفاعه عن مؤلفاته

وقد ذكر الجاحظ جل مؤلفاته في كتاب «الحيوان» ودافع عنها بعد أن وصفها فقال:[٣٥] جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة وجعل بينك وبين المعرفة نسبًا، وبين الصدق سببًا، وحبب إليك التثبت، وزين في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عز الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذل الطمع، وعرفك ما في الباطل من الذلة، وما في الجهل من القلة، ولعمري لقد كان غير هذا الدعاء أصوب في أمرك، وأدل على مقدار وزنك، وعلى الحال التي وضعت نفسك فيها، ووسمت عرضك بها، ورضيتها لدينك حظًا، ولمروءتك شكلا؛ فقد انتهى إليّ ميلك على أبي إسحاق، وحملك عليّ، وطعنك على معبد، وتنقصك له في الذي كان جرى بينهما في مساوي الديك ومحاسنه، وفي ذكر منافع الكلب ومضاره؛ والذي خرجا إليه من استقصاء ذلك وجمعه، ومن تتبعه ونظمه، ومن الموازنة بينهما، والحكم فيهما.

ثم عبتني بكتاب حيل اللصوص، وكتاب غش الصناعات؛ وعبتني بكتاب الملح والطرف، وما حر من النوادر وبرد، وعاد باردها حارً بفرط برده، حتى أمتع بأكثر من أمتاع الحار؛ وعبتني بكتاب احتجاجات البخلاء، ومناقضتهم للسمحاء، والقول في الفرق بين الصدق إذا كان ضارًا في العاجل، والكذب إذا كان نافعًا في الآجل، ولم جعلنا الصدق أبدًا محمودًا، والكذب أبدًا مذمومًا، والفرق بين الغيرة وإضاعة الحرمة، وبين الإفراط في الحمية والأنفة، وبين التقصير في حفظ حق الحرمة، وقلة الاكتراث بسوء القالة؛ وهل الغيرة اكتساب وعادة، وبعض ما يعرض من جهة الديانة ولبعض التزيد فيه والتحسن به، أو يكون ذلك شيئًا في طبع الحرية وحقيقة الجوهرية، ما كانت العقول سليمة، والآفات منفية، والأخلاط معتدلة؛ وعبتني بكتاب الصرحاء والهجناء، ومفاخرة السودان

والحمران، والموازنة بين حق الخؤولة والعمومة؛ وعبتني بكتاب الزرع والنخل، والزيتون والأعناب، وأقسام فضول الصناعات، ومراتب التجارات؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفرق ما بين الذكور والإناث، وفي أي موضع يغلبن ويفضلن، وفي أي موضع يكن المغلوبات والمفضولات، ونصيب أيهما في الولد أوفر، وفي أي موضع يكون حقهن أوجب، وأي عمل هو بهن أليق، وأي صناعة هن فيها أبلغ؛ وعبتني بكتاب القحطانية وكتاب العدنانية في الرد على القحطانية، وزعمت أني تجاوزت فيه حد الحمية، إلى حد العصبية، وأني لم أصل إلى تفضيل العدنانية إلا بتنقص القحطانية؛ وعبتني بكتاب العرب والموالي، وزعمت أني بخست الموالي حقوقهم، كما أني أعطيت العرب ما ليس لهم؛ وعبتني بكتاب العرب والعجم، وزعمت أن القول في فرق ما بين العرب والعجم هو القول في فرق ما بين الموالي والعرب، ونسبتني إلى التكرار والترداد، وإلى التكثير والجهل بما في المعاد من الخطل، وحمل الناس المؤن؛ وعبتني بكتاب الأصنام، وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إياها، وكيف اختلفا في جهة العلة مع اتفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عباد البَدَدَة[٣٦] والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة، والأصنام المنجورة، أشد الناس إلفا لما دانوا به، وشعفا بما تعبدوا له، وأظهرهم جدا، وأشدهم على من خالفهم ضغنا، وبما دانوا صبابة وعجبا، وما الفرق بين البد والوثن، وما الفرق بين الوثن والصنم، وما الفرق بين الدمية والجثة، ولِم صوروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم صور عظمائهم ورجال دعوتهم، ولم تأنقوا في التصوير، وتجردوا في إقامة التركيب، وبالغوا في التحسين والتفخيم، وكيف كانت أولية تلك العبادات، وكيف افترقت تلك النحل، ومن أي شيء كانت خدع تلك السدنة، وكيف لم يزالوا أكثر الأصناف عددا، وكيف شمل ذلك المذهب الأجناس المختلفة!

وعبتني بكتاب المعادن، والقول في جواهر الأرض، وفي اختلاف أجناس الفِلِزِّ، والإخبار عن ذائبها وجامدها، ومخلوقها ومصنوعها، وكيف يسرع الانقلاب إلى بعضها ويبطئ عن بعضها، وكيف صار بعض الألوان يصبغ ولا ينصبغ، وبعضها ينصبغ ولا يصبغ، وبعضها يصبغ وينصبغ، وما القول في الإكسير والتلطيف؛ وعبتني بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس، وبكتاب فرق ما بين الجن والإنس، وفرق ما بين الملائكة والجن، وكيف القول في معرفة الهدهد واستطاعة العفريت، وفي الذي كان عنده علم من الكتاب، وما ذلك العلم، وما تأويل قولهم: كان عنده اسم الله الأعظم؛ وعبتني بكتاب الأوفاق والرياضات، وما القول في الأرزاق والإنفاقات، وكيف أسباب التثمير[٣٧] والترقيح

وكيف تجتلب التجار الحرفاء، وكيف الاحتيال للودائع، وكيف التسبب إلى الوصايا، وما الذي يوجب لهم التعديل، ويصرف إليهم باب حسن الظن، وكيف ذكرنا غش الصناعات والتجارات، وكيف التسبب إلى تعرف ما قد ستروا، وكشف ما موهوا، وكيف باب الاحتراس منه والسلامة من أهله! وعبتني برسائلي، وبكل ما كتبت به إلى إخواني وخلطائي من مزح وجد، ومن إفصاح وتعريض، ومن تغافل وتوقيف، ومن هجاء لا يزال وسمه باقيا، ومديح لا يزال أثره ناميًا، ومن ملح، تضحك، ومواعظ تبكي؛ وعبتني برسائلي الهاشميات، واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيها، وتصويري لها في أحسن صورة، وإظهاري لها في أتم حلية، وزعمت أني قد خرجت من حد المعتزلة إلى حد الزيدية، ومن حد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه إلى حد السرف والإفراط فيه، وزعمت أن مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة، ومقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية، وزعمت أن في أصل القضية، والذي جرت عليه العادة أن كل كبير فأوله صغير، وأن كل كثير فإنما هو قليل جمع إلى قليل، وأنشدت قول الراجز:

قد يَلْحَق الصغيرُ بالجليل وإنّما القَرْمُ من الأَفِيلِ[٣٨]
وسُحُقُ النَّخْلِ من الفَسِيل

وأنشدت قول الشاعر:

رُب كبيرٍ هاجَه صغيرُ وفي البحور تَغْرق البُحورُ

وقلتَ وقال يزيد بن الحكم:

واعلم بُنَيّ فإنّه بالعلم يَنْتَفِع العليم
إنّ الأمور دَقيقُها مما يَهِيج له العظيم

وقلت وقال الآخر:

صار جِدّا ما مَزَحتُ به رُبَّ جِدٍّ ساقه اللَّعِبُ

وأنشدت قول الآخر وهو عنترة:[٣٩]

ما تَنْظرون بحقّ وَرْدةَ فيكمُ تُقْضى الأمور ورَهْط وردة غُيّبُ
قد يَبْعَثُ الأمرَ الكبيرَ صغيرُهُ حتّى تَظَلَّ له الدِّماء تَصَبَّبُ

وقالت كبشة بنت معد يكرب:

جَدَعْتُمْ بِعَبْد الله آنُفَ قَوْمِه بَنِي مازِنٍ أَنْ سُبّ راعِي المُخَزِّمِ

وقال الآخر:

أَيَّة نارٍ قدَح القادح وأيَّ جِدٍّ بلغ المازِحُ

وتقول العرب: «العصى من العصية ولا تلد الحية إلا حيية»؛ وعبت كتابي في خلق القرآن، كما عبت كتابي في الرد على المشبهة؛ وعبت كتابي في أصول الفتيا والأحكام، كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن، وغريب تأليفه، وبديع تركيبه؛ وعبت معارضتي الزيدية، وتفضيلي الاعتزال على كل نِحْلة، كما عبت كتابي في الوعد والوعيد، وكتابي على النصارى واليهود؛ ثم عبت جملة كتبي في المعرفة، والتمست تهجينها بكل حيلة، وصغرت من شأنها، وحططت من قدرها، واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها.

وعبت كتاب الجوابات وكتاب الرسائل، وكتاب الرد على أصحاب الإلهام، وكتاب الحجة في تثبيت نبوة النبي ﷺ، وكتاب الأخبار؛ ثم عبت كتابي إنكاري بصيرة غنام المرتد، وبصيرة كل جاحد وملحد، وتفريقي بين اعتزام الغُمْر[٤٠] وبين استبصار المُحِقّ؛ وعبت كتاب الرد على الجهمية في الإدراك، وفي قولهم في الجهالات، وكتاب الفرق ما بين النبي والمتنبي، والفرق بين الحيل والمخاريق، وبين الحقائق الظاهرة والأعلام القاهرة؛ ثم قصدت إلى كتابي هذا بالتصغير لقدره، والتهجين لنظمه، والاعتراض على لفظه، والتحقير لمعانيه فزريت على نحته وسبكه، كما زريت على معناه ولفظه، ثم طعنت في الغرض الذي إليه نزعنا، والغاية التي إليها أجرينا،[٤١] وهنا كتاب معناه أنبه من اسمه، وحقيقته آنق من لفظه، هو كتاب يحتاج إليه المتوسط العامي، كما يحتاج إليه العالم الخاصي، ويحتاج إليه الريض، كما يحتاج إليه الحاذق.

أما الريض فللتعلم والدربة، وللترتيب والرياضة، وللتمرين وتمكين العادة، إذ كان جليله يتقدم دقيقه، وإذ كانت مقدماته مرتبة، وطبقات معانيه منزلة؛ وأما الحاذق فلكفاية المؤونة، ولأن كل من التقط كتابًا جامعًا، وبابًا من أمهات العلم مجموعًا كان له غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، وكان له نفعه، وعلى صاحبه كده، مع تعرضه لمطاعن البغاة، ولاعتراض المنافسين، ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغة، ومعانيه على الجهابذة، وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة، ومتى ظفر بمثله صاحب علم، أو هجم عليه طالب فقه، وهو وادع رافه، ونشيط جام، ومؤلفه متعب مكدود، فقد كفي مؤونة جمعه، وخزنه وتتبعه، وطلبه، وأغناه ذلك عن طول التفكير، واستنفاد العمر، وفل الحد، وأدرك أقصى حاجته، وهو مجتمع القوة، وعلى أن له عند ذلك أن يجعل هجومه عليه ضربًا من التوفيق، وظفره به بابا من التسديد.

(وهذا كتاب) تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيًا أعرابيًا، وإسلاميًا جماعيًا، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان كما يشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه الجدي ذو الحزم، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأديب، ويشتهيه الغبي كما يشتهيه الفطن؛ وعبتني بحكاية قول العثمانية والضرارية وأنت تسمعني أقول في أول كتابي: وقالت العثمانية والضرارية، وكما سمعتني أقول: وقالت الرافضة والزيدية، فحكمت علي بالنصب لحكايتي قول العثمانية، فهلا حكمت علي بالتشيع لحكايتي قول الرافضة، وهلا كنت عندك من الغالية لحكايتي حجج الغالية، كما كنت عندك من الناصبة لحكايتي قول الناصبة، وقد حكينا في كتابنا قول الإباضية والصفرية، كما حكينا أقاويل الأزارقة والنجدية، وعلى هذه الأركان الأربعة بنيت الخارجية، وكل اسم سواها فإنما هو فرع ونتيجة واشتقاق منها، ومحمول عليها، فهلا كنا عندك من المحكمة الخارجة، كما صرنا عندك من الضرارية، والناصبة! وكيف رضيت بأن تكون الشيعة إلى أعراض الناس أسرع من المارقة! اللهم إلا أن تكون وجدت حكايتي عن العثمانية والضرارية أشبع وأجمع، وأتم وأحكم وأجود صنعة، وأبعد غاية، ورأيتني قد وهنت حق أوليائك بقدر ما قويت باطل أعدائك، ولو كان ذلك كذلك لكان شاهدك من الكتاب حاضرًا، وبرهانك على ما ادعيت واضحًا.

وعبتني بكتاب العباسية فهلا عبتني بحكاية مقالة من ادعى وجوب الإمامة، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن ترك الناس سدى بلا قيم أرد عليهم، وهملا بلا راع أربح لهم، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل، وغنيمة الآجل، وأن تركهم نشرًا لا نظام لهم أبعد لهم من المفاسد، وأجمع لهم على المراشد! بل ليس ذلك بك، ولكنه لما بهرك ما سمعت، وملأ صدرك الذي قرأت، وأبعلك وأبطرك فلم تتجه للحجة وهي لك معرضة، ولم تعرف المقاتل وهي لك بادية، ولم تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل، ولم تعرف المصادر إذ جهلت الموارد؛ ورأيت أن سب الأولياء أشفى لدائك، وأبلغ في شفاء سقمك؛ ورأيت أن إرسال اللسان أحضر لذة، وأبعد من النصب، ومن إطالة الفكرة، ومن الاختلاف إلى أرباب هذه الصناعة؛ ولو كنت حين فطنت لعجزك وصلت نقصك بتمام غيرك، واستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك، وحبيس على تقويم أشباهك، كان ذلك أزين في العاجل، وأحق بالمثوبة في الآجل، وكنت إن أخطأتك الغنيمة لم تخطئك السلامة، ولقد سلم عليك المخالف، بقدر ما ابتلى به منك الموافق؛ وعلى أنه لم يبتل منك إلا بقدر ما ألزمته من مؤونة تثقيفك، والتشاغل بتقويمك؛ وهل كنت في ذلك إلا كما قال العربي: وهل يضر السحاب نبح الكلاب؟ وإلا كما قال الشاعر:

هل يضرّ البحرَ أمسَى زاخرًا أَنْ رَمَى فيه غلامٌ بحجر

وهل حالنا في ذلك إلا كما قال الأول:

ما ضر تَغْلِبَ وائلٍ أَهَجَوْتَها أَمْ بُلْتَ حيث تَنَاطَحَ البَحْرانِ

وقال حسان:

ما أُبالي أَنَبّ بالحزن تَيْسٌ أم لحَاني بظهر غَيْبٍ لئيمُ

وما أشك أنك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطية لك، ووجهت حلمنا عنك إلى الخوف منك، وقد قال زفر بن الحارث لبعض من لم ير حق الصفح فجعل العفو سببًا إلى سوء القول:

فإنْ عُدْت واللهِ الذي فوقَ عرشه مَنَحْتُك مَسْنُونَ الغِرارَين أزرقا
فإنّ دواء الجهل أن تُضْرَبَ الطُّلَى[٤٢] وأن يُغْمَسَ العِرِّبض[٤٣] حتى يُغَرّقا

وقال الأول:

وما نفى عنك قومًا أنت خائُفُهْم كمثل وقْمِكَ جُهّالا بجهّالِ
فاقعس إذا حدِبوا واحْدَبْ إذا قَعِسوا ووازِنِ الشرّ مِثْقالًا بِمثقال

وقال الآخر:

وضغائنٍ داويتها بضغائنٍ حتّى يَمُتْنَ وبالحُقُود حُقُودا

وإني وإن لم يكن عندي سنان زفر بن الحارث، ولا معارضة هؤلاء: الشر بالشر، والجهل بالجهل، والحقد بالحقد، فإن عندي ما قال المسعودي:

فَمَسّا ترابَ الأرض منها خُلِقْتُما وفيها المعَادُ والمَصيرِ إلى الحشْرِ
ولا تَعْجَبَا أنْ تَرْجِعا فتُسَلّما فما حُشِى الأقوامُ شرّا من الكِبر
فلو شِئْتُ أَدْلى فيكُما غيرُ واحدٍ علانية أو قال عِنْدِيَ في سِتْرِ
فإنْ أنَا لمْ آمر ولم أَنْهَ عنكُمَا ضحِكْتُ[٤٤] له حتّى يَلجّ ويَسْتَشْرِى

وقال النّمِرُ بن تَوْلَبْ:

جزَى الله عنِّي حَمْزَةَ بنْتَ نَوْفلٍ جزاءَ مُغِلّ بالأمانة كاذبِ
بما خبّرت عنِّي الوُشاةَ لِيكذبوا عليّ وقد أوليتُها في النوائبِ

يقول: أخرجت خبري إلى من يشتهي أن أعاب عندها.

ولو شئنا لعارضناك من القول بما هو أقبح أثرا، وأبقى وسما، وأصدق قيلا، وأعدل شاهدا؛ وليس كل من ترك المعارضة فقد صفح، كما أنه ليس كل من عارض فقد انتصر، وقد قال الشاعر قولا إن فهمته كفيتنا مؤونة المعارضة، وكفيت نفسك لزوم العار، وهو قوله:

إنْ كُنتَ لا تَرْهَبُ ذمِّي لِما تَعْرِف من صفْحِي عن الجاهلِ
فاخْشَ سكوتي آذِنًا مُنْصِتًا فيك لمَسْمُوعِ خَنا القائلِ
فالسامعُ الذمَّ مُقِرّ به كالمُطعم المأكولَ للآكلِ
مَقالُة السوء إلى أهلها أسرعُ من مُنْحدِرٍ سائلِ
وَمن دعَى الناس إلى ذَمّه ذمّوه بالحقّ وبالباطلِ
فلا تهِجْ إنْ كنتَ ذا إرْبةٍ حَزْبَ أخِي التَّجْرِبة العاقلِ
فإنّ ذا العقل إذا هِجْتَه هِجْتَ به ذا خَبَلٍ خابلِ
يُبْصِر في عاجلِ شَدّاتِه عليك غِبَّ الضررِ الأجلِ

وقد يقال: إن العفو يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم؛ وقد قال الشاعر:

والعفُو عند لَبيب القوم مَوْعِظةٌ وبعضُه لسَفِيه القومِ تَدْرِيبُ

فإن كنا قد أسأنا في هذا التقريع والتوقيف، فالذي لم يأخذ فينا بحكم القرآن، ولا بأدب الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يفزع إلى ما في الفطن الصحيحة، أو إلى ما توجبه المقاييس المطردة، والأمثال المضروبة، والأشعار السائرة، أولى بالإساءة، وأحق باللائمة، قال الله جل ثناؤه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۞ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا تجن يمينك على شمالك» وهذا حكم الله جل وعز، وآداب رسوله، والذي أنزل به الكتاب، ودل عليه في حجج العقول.

ما كتبه في أخذ البريء بذنب المذنب

ثم قال في أخذ البريء بذنب المذنب: فأما ما قالوا في المثل المضروب، «رمتني بدائها وانسلت». وأما قول الشعراء وذم الخطباء لمن أخذ إنسانًا بذنب غيره، وما ضربوا في ذلك من الأمثال، كقول النابغة حيث يقول في شعره:

وكَلَّفتَني ذنبَ امرئٍ وتركتَه كَذِي العُرِّ يُكْوَى غيرهُ وهو راتع

وكانوا إذا أصاب إبلهم العُرّ كووا السليم ليذهب العُرُّ عن السقيم فأسقموا الصحيح من غير أن يبرئوا السقيم، وكانوا إذا كثرت إبل أحدهم فبلغت الألف فقئوا عين الفحل، فإن زادت الإبل على الألف فقئوا عينه الأخرى، فذلك المفقأ والمعمى اللذان سمعت بهما قال الفرزدق:

غلبتُك بالمفقِّأ والمعمَّى[٤٥] وبيتِ المحتَبِى[٤٦] والخافقاتِ

وكانوا يزعمون أن المفقأ يطرد عنها العين والسواف[٤٧] والغارة فقال الأول:

فَقَأْتُ لها عَينَ الفَحِيل تَعَيُّفًا وفيهنّ رَعْلَاءُ[٤٨] المسامِع والحَامِ

وكانوا يقولون في موضع الكفارة والأمنية، كقول الرجل إذا بلغت إبلي كذا وكذا، وكذلك غنمي ذبحت عند الأوثان كذا وكذا عتيرة، والعتيرة: من نسك الرجبية، والجمع عتائر، والعتائر من الشاء، فإذا بلغت إبل أحدهم أو غنمه ذلك العدد استعمل التأويل وقال: إنما قلت: إني أذبح كذا وكذا شاة، والظباء: شاء، كما أن الغنم شاء، فجعل ذلك القربان كله مما يصيد من الظباء، فلذلك يقول الحارث بن حلزة اليشكري:

عَنَنًا باطلا شَدُوخًا[٤٩] كما تُعْـ ـتَرُ عن حُجرةِ الرَّبِيضِ الظباءُ

بعد أن قال:

أم علينا جُناحُ كِندةَ أن يَغْـ ـم غازيهِم ومنّا الجزاءُ

وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب، إما لكدر الماء وإما لقلة العطش، ضربوا الثور ليقتحم الماء لأن البقر تتبعه كما تتبع الشَّوْلُ الفحل، وكما تتبع أُتُنُ الوحش الحمار، فقال في ذلك عوف بن الخرع:

تمنَّتْ طيّىءٌ جهلا وجُبنا وقد خاليتُهم فأبَوا خلائي
هَجْوني أن هجوتُ جبالَ سَلْمَى كضربِ النوْرِ للبقرِ الظِّماءِ

وقال في ذلك أنس بن مُدْرِكَة في قتله سُليكَ بن السُّلَكَة:

إنّي وقتلى سُليكا ثمّ أعقلهُ كالثوْر يُضرَبُ لما عافتِ البقرُ
أنِفت[٥٠] للمرءِ إذ تُغشَى حليلَتُهُ وإذ[٥١] يُشدُّ على وجْعائها الثَّفَرُ[٥٢]

وقال الهيبان الفهمي:

كما ضُرِبَ اليعسوبُ أنْ عاف باقرٌ وما ذنبه أن عافت الماءَ باقرُ

ولما كان الثور أمير البقر، وهي تطيعه كطاعة إناث النحل لليعسوب سماه باسم أمير النحل.

وكانوا يزعمون أن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب حتى تهلك؛ وقال في ذلك الأعشى:

وإنّي وإن كلفتموني وربّكم لأعلمُ مَن أمسَى أحقَّ وأحوَبا
لكالثَّور والجِنيُّ يضرِبُ ظهرَه وما ذنبه أنْ عافت الماء مَشْربا
وما ذنبُه أن عافت الماءَ باقرٌ وما إن تعافُ الماء إلّا لِتُضرَبا

كأنه قال: إذ كان يضرب أبدًا لأنها عافت الماء، فكأنها إنما عافت الماء ليضرب؛ وقال يحيى بن منصور الذهلي في ذلك:

لكالثور والجنيُّ يضرب وجهَهُ وما ذنبُه إن كانت الجنُّ ظالمه

وقال نهشل بن جَرِّيّ:

أتُتْرَكُ عارضٌ وبنو عديٍّ وتَغْرَمُ دارمٌ وهُمُ بُراءُ
كدأب الثور يُضربُ بالهَرَاوى إذا ما عافت البقرُ الظِّماءُ
وكيف تكلَّفُ الشِّعرَى سُهَيْلا وبينهما الكواكبُ والسماءُ

وقال أبو نُوَيْرة بن حُصَيْنْ حين أخذه الحكم بن أيوب بذنب العَطَرّق:

أبا يوسفٍ لو كنتَ تعلم طاعتي ونُصحي إذا ما بعْتَني بالمُحلَّق
ولا ساق سرّاق العُرافة صالحٌ بَنِيَّ ولا كُلِّفتُ ذنْبَ العَطْرِّق

وقال خَداش بن زُهَير حين أخذ بدماء بني محارب:

أُكَلَّفُ قَتْلَى معشرٍ لستُ منهمُ ولا دارهم داري ولا نصرهْم نَصْري
أكلَّفُ قَتْلَى العِيصِ عِيصِ شُواحطٍ وذلك أمرٌ لم تُشَفَّ له قِدْري

وقال الآخر:

إذا عَرَكتْ عجلٌ بنا ذنبَ طّيءٍ عركْنا بتَيْم اللّاتِ ذنبَ بني عِجْلِ

ولما وجد اليهودي أخا حنبص الضبابي في منزله فخصاه فمات، وأخذ حنبص بني عبس بجناية اليهودي قال قيس بن زهير: أتأخذنا بذنب غيرنا، وتسألنا العقل، والقاتل يهودي من أهل تيماء؟ قال: والله لو قتله هيف الريح لوديتموه، فقال قيس لبني عبس: الموت في بني ذبيان خير لكم من الحياة في بني عامر، ثم أنشأ يقول:

أكلِّف ذا الخُصْيَيْن إنْ كان ظالمًا وإن كنتُ مظلومًا وإن كنتُ شاطِنًا
خَصَاه امُرؤ من أهل تَيْماء طابِن ولا يَعْدَم الإنسيُّ والجنُّ طابنا
فهلّا بني ذُبيان أُمُّك هابلٌ رَهَنْتَ بِهَيْف الريح إنْ كنتَ راهنًا
إذا قلتُ قد أفلتُّ من شرّ حِنْبِص أتاني بأخرى شرُّه مُتَباطنًا
فقد جَعَلتْ أكبادُنا تَجْتَوِيكم كما تَجْتَوِي سُوقُ العضاه الكَرازِنا

ولما قتل لقمان بن عاد ابنته وهي صُحْرٌ بنت لقمان قال حين قتلها: ألست امرأة؟ وذلك أنه تزوج عدة نساء وكلهن خنه في أنفسهن، فلما قتل أخراهن ونزل من الجبل كان أول من تلقاه صُحْر ابنته، فوثب عليها فقتلها، وقال وأنت أيضًا امرأة؛ وكان قد ابتلي أيضًا بأن أخته كانت محمقة، وكذلك كان زوجها، فقالت لإحدى نساء لقمان: هذه ليلة طهري وهي ليلتك، فدعيني أنم في مضجعك، فإن لقمان رجل منجب، فعسى أن يقع عليّ فأنجب، فوقع على أخته فحملت بلقيم وفي ذلك قول النمر بن تولب:

لقيمُ بن لقمانَ مِن أختهِ فكان ابنَ أخت له وابنًا
ليالىَ حُمِّقَ فاستحصَنتْ عليه فغُرَّ بها مُظْلِما
فأحبلها رجلٌ محكَمٌ[٥٣] فجاءت به رجلا مُحْكما

فضربت العرب في ذلك المثل بقتل لقمان بنته صُحْرا فقال خُفَاف بن نَدْبة في ذلك:

وعبّاسٌ يُدِبّ لي المنايا وما أذنبتُ إلا ذنبَ صُحْرِ

وقال في ذلك ابن أُذَيْنَةَ:

أتجْمَعُ تَهْياما بليلَى إذا نأتْ وهِجْرانها ظُلْمًا كما ظُلِمَتْ صُحْرُ

وقال الحارث بن عباد:

قَرِّبا مرْبَط النعامةِ منِّي لِقحتْ حَرْبُ وائلٍ عن حِيالِ
لم أكن من جُنَاتِها علم اللـ ـه وإني بحَرِّها اليومَ صالي

وقال الشاعر وأظنه ابن المقفع:

فلا تلِم المرءَ في شأنِهِ فربّ ملومٍ ولم يُذْنبِ

وقال آخر:

لعلّ له عذرًا وأنتَ تلومُ وكم لائم قد لام وهو مُلِيمُ

وقال بعض العرب في قتل بعض الملوك سنمار الرومي: فإنه لما علا الخورنق، ورأى بنيانًا لم ير مثله، ورأى ذلك المستشرف، وخاف إن هو استبقاه أن يموت فيبني مثل ذلك البنيان لملك آخر، فأمر به فرمى من فوق القصر، فقال في ذلك الكلبي في شيء كان بينه وبين بعض الملوك:

جـزانِـي جـزاه الـلـهُ شـرَّ جَـزائِـه جـزاءَ سِـنِـمَّـار ومـا كـان ذا ذنـبِ
سِوَى رَصِّه البُنْيانَ سبعينَ حَجَّةً يُعَلِّى عليه بالقراميدِ والسَّكْبِ
فلـمـا رأى الـبُـنْـيَـان تـمَّ سـحُـوقُـه وآض كَمِثْل الطود ذي الباذخ الصعْبِ
فَـظَـنَّ سِـنـمّـارٌ بـه كُـلَّ حَـبْـوةٍ وفـاز لـديـه بـالـمَـوَدة والـقُـربِ
فقال اقذفوا بالعِلْج من رأس شاهقٍ فذاك لعَمَرْ اللهِ من أعظم الخَطْبِ

وجاء المسلمون يَرْوِي خلَفٌ عن سلَف، وتابعٌ عن سابق، وآخِرُ عن أوّل، أنّهم لم يختلفوا في عيب قول الحجّاج: لآخُذنّ، السمِيَّ بالسميِّ والوليّ بالولي، والجارَ بالجار، ولم يختلفوا عن لعن شاعرهم حيث يقول:

إذا أُخذَ البريء بغير جُرْمٍ تجنَّب ما يُحاذِره السقيمُ

وقال: وقيل لعمرو بن عبيد إن فلانًا لما قدم رجلا ليضرب عنقه فقيل له: إنه مجنون، قال: لولا أن المجنون يلد عاقلا لخليت سبيله، قال فقال عمرو: وما خلق الله النار إلا بالحق.

ولما قالت التغلبية للجحاف بن حكيم في وقعة البشر: فص الله عمادك، وأطال سهادك، وأقل رمادك، فوالله إن قتلت إلا نساء أسافلهن دمى، وأعاليهن ثدى، فقال لمن حوله: لولا أن تلد هذه مثلها لخليت سبيلها، فبلغ ذلك الحسن فقال: إن الجحاف جذوة من نار جهنم. قال وذم رجل عند الأحنف بن قيس الكمأة بالسمن، فقال عند ذلك الأحنف: رب ملوم لا ذنب له؛ فبهذه السيرة سرت فينا؛ وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن ابن حسان:

وإنّ امرأً يمسي ويصبح سالما من الناس إلّا ما جَنَى لَسَعيدُ

وقلت: وما بال أهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعبر، وأرباب النحل، والعلماء بمخارج الملل، وورثة الأنبياء، وأعوان الخلفاء، يكتبون كتب الظرفاء والملحاء، وكتب الفراغ والخلعاء، وكتب الملاهي والفكاهات، وكتب أصحاب الخصومات والمراء، وكتب أصحاب العصبية، وحمية الجاهلية، حتى كأنهم لا يحاسبون أنفسهم، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يخافون تصفح العلماء، ولا لائمة الأدباء وشنف الأكفاء، ومساءة

الجلساء؛ فهلا أمسكت رحمك الله عن عيبنا، والطعن عليها، وعن المشورة والموعظة، وعن تخويف ما فيه سوء العاقبة إلى أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكفاء.

ما كتبه في أقسام البيان

وبعد أن تكلم في تقسيم العالم إلى ثلاثة أقسام، وذكر أقسام الحيوان، قال في أقسام البيان:

> ووجدنا الحكمة على ضربين: شيء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشيء جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة، فاستوى بدن الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الذلالة على أنه حكمة، واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل، والآخر دليل يستدل، فكل مستدل دليل، وليس كل دليل مستدلا، فشارك كل الحيوان سوى الإنسان جميع الجماد في الدلالة وفي عدم الاستدلال، واجتمع للإنسان بأن كان دليلا مستدلا، ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال، وسموا ذلك بيانًا؛ وجعل ذلك البيان على أربعة أقسام: لفظ وخط وعقد وإشارة، وجعل بيان الدليل الذي لا يستدل تمكينه المستدل من نفسه واقتياده كل من فكر فيه إلى معرفة ما استخزن من البرهان، وحشي من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمة؛ فالأجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة، ومعربة من جهة صحة الشهادة، على أن الذي فيها من التدبير والحكمة تلوحان لمن استخبرهما، وينطقان لمن استنطقهما كما يخبر الهزال وكمود اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السمن والنضرة عن حسن الحال، وقد قال الشاعر:

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهلُه ولو سَكتوا أثنت عليك الحقائبُ

وقال آخر:

متَى تكُ في عدوٍّ أو صديقٍ تخبِّرك العيونُ عن القلوب

وقد قال العُكْلّي في صدق شمه الذئب، وفي شدة حسه واستراحه:

يستخبر الريحُ إذا لم يَسْمعِ بمثل مِقراع الصفا الموَقّعِ

وقال عنترة وهو يصف نعيب غراب:

حَرِق الجَناحِ كأن لَحْيَيْ رأْسِهِ جَلَمان بالأخبار هَشٌّ مُولَعُ

وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه: سل الأرض فقل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؛ فإن لم تجبك حوارًا، أجابتك اعتبارًا، فموضوع الجسم ونصبته دليل على ما فيه، وداعية إليه ومنبهة عليه، فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه قد شارك في البيان الإنسان الحي الناطق؛ فمن جعل أقسام البيان خمسة فقد ذهب أيضًا مذهبًا له جواز في اللغة، وشاهد في العقل، فهذا أحد قسمي الحكمة، وأحد معنى ما استخزنها الله تعالى من الوديعة.

القسمة الأخرى ما أودع صدور صنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف، وفطرها على غريب الهدايات، وسخر حناجرها له بضرب النغم الموزونة، والأصوات الملحنة، والمخارج الشجية، والأغاني المطربة، فقد يقال: إن جميع أصواتها معدلة، وموزونة موقعة، ثم الذي سهل لها من الرفق العجيب في الصنعة مما ذَلّله الله تعالى لمناقيرها وأكفها، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيأ لها من الآلة، وكيف أعطى كثيرًا منها من الحس اللطيف، والصنعة البديعة عن غير تأديب وتثقيف، وعن غير تقويم وتلقين، وعن غير تدريج وتمرين، فبلغت بعفوها ومقدار قوى فطرتها من البديه والارتجال، ومن الابتداء والاقتضاب، ما لا يقدر عليه حذاق رجال الرأي، وفلاسفة علماء البشر بيد ولا آلة، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملهم خصالا، وأتمهم حلالا، من جهة الارتجال والاقتضاب ولا من جهة التعسف والاقتدار، ولا من جهة التقديم فيه، والتأتي له؛ والترتيب لمقدماته، وتمكين الأسباب المعينة عليه فصار جهد الإنسان الثاقب الحس، الجامع القوى، المتصرف في الوجوه المتقدم في الأمور يعجز عن عفو كثير منها، وينظر إذ نظر إلى

ضروب ما يجيء منها كما أعطيت العنكبوت، وكما أعطيت السرفة، وكما علم النحل، بل عرف التنوط من بديع المعرفة، ومن غريب الصنعة في غير ذلك من أصناف الخلق ثم لم يوجدهم العجز في أنفسهم في أكثر ذلك إلا عما قوى عليه الهمج والخشاش وصغار الحشرات، ثم جعل الإنسان ذا العقل والتمكين، والاستطاعة والتصريف، وذا التكلف والتجربة، وذا التأتي والمنافسة، وصاحب الادخار والمتفقد لشأن العاقبة متى أحسن شيئًا كان كل شيء دونه في الغموض عليه أسهل، وجعل سائر الحيوان وإن كان يحسن أحدها ما لا يحسن أحذق الناس متى أحسن شيئًا عجيبًا لم يمكنه أن يحسن ما هو أقرب منه في الظن، وأسهل منه في الرأي، بل لا يحسن ما هو أقرب منه في الحقيقة؛ فلا الإنسان جعل نفسه كذلك، ولا شيء من الحيوان اختار ذلك، فأحسنت هذه الأجناس بلا تعلم ما يمتنع على الإنسان، وإن تعلم فصار لا يحاوله إذ كان لا يطمع فيه، ولا يحسدها إذ كان لا يأمل اللحاق بها، ثم جعل تعالى وعز هاتين الحكمتين إزاء عيون الناظرين، وتجاه أسماع المعتبرين، ثم حث على التفكير والاعتبار، وعلى الاتعاظ والازدجار، وعلى التعرف والتبين، وعلى التوقف والتذكر، فجعلها مذكرة منبهة، وجعل الفطر تنشيء الخواطر، وتجول بأهلها في المذاهب، ذلك رب العالمين، سبحان الله رب العالمين.

وهذا كتاب موعظة وتعريف، وتفقه وتنبيه، وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده، وتتفكر في فصوله، وتتذكر آخره بأوله، ومصادره بموارده، وقد غلطك فيه بعض ما رأيت في أثنائه من مزح لم تعرف معانيه، ومن بطالة لم تدرك غورها، ولم تدر لم اجتلبت ولأي علة تكلفت، وأي معنى أريغ بها، ولأي جد احتمل ذلك الهزل، ولأية رياضة تجشمت تلك البطالة، ولم تدر أن المزاح جد إذا اجتلب لأن يكون علة للجد، وأن البطالة وقار وزمانة إذا تكلفت لتلك العاقبة، ولما قال الخليل بن أحمد: لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه؛ قال أبو شمر: إذا كان لا يصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه؛ وذلك مثل كتابنا هذا، لأنا إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مر الحق، وصعوبة الجد، وثقل المؤونة وحقيقة الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلا من قد تجرد للعلم وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر من عزه، ونال من

سروره على حسب ما بورت الطول من الكد، والكثرة من السآمة، وما أكثر من يقاد إلى حظه بالسواجير، وبالسوق العنيف، وبالإخافة الشديدة.

ما كتبه في مدح الكتب

ثم ذكر فقرات حسانًا في مدح الكتب فقال: ثم لم أرك رضيت بالطعن على كل كتاب لي بعينه، حتى تجاوزت ذلك، إلى أن عبت وضع الكتب كيفما دارت بها الحال، وكيف تصرفت بها الوجوه؛ وقد كنت أعجب من عيبك البعض بلا علم، حتى عبت الكل بلا علم؛ ثم جاوزت ذلك إلى التشنيع، ثم تجاوزت التشنيع إلى نصب الحرب، فعبت الكتاب ونعم الذخر والعدة، ونعم الجليس والعمدة، ونعم النشوة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل؛ والكتاب وعاء مليء علما، وظرف حشي ظرفًا، وإناء شحن مزاحًا وجدا؛ إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكت من بوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فوائده، وإن شئت ألهتك نوادره، وإن شئت شجتك مواعظه، ومن لك بواعظ مله، وبزاجر مغر، وبناسك فاتك، وبناطق أخرس، وببارد حار؛ وفي البادر الحار يقول الحسن بن هانئ:

قُلْ لزهيرٍ إذا انْتحى وشَدا أقلِل أو أكْثِرْ فأنتَ مِهْدارُ
سخُنتَ من شدة البُرودةِ حتّى صرتَ عندي كأنّك النارُ
لا يعجبِ السامعونَ من صفتي كذلك الثلجُ باردٌ حارُّ

ومن لك بطبيب[٥٤] أعرابي، وبرومي هندي، وبفارسي يوناني، وبقديم مولد، وبميت ممتع؛ ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر، والناقص والوافر، والخفي والظاهر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل وخلافه، والجنس وضده.

وبعد، فمتى رأيت بستانًا يحمل في ردن، أو روضة تتقلب في حجر، وناطقًا ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحياء؛ ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من الأرض، وأكتم للسر من صاحب السر، وأضبط للوديعة من أرباب الوديعة، واحفظ لما استحفظ من الأمين، ومن الأعراب المعربين، بل من الصبيان قبل اعتراض الأشغال، ومن العميان قبل التمتع بتمييز الأشخاص، حين العناية تامة لم

تنقص، والأذهان فارغة لم تُقْتَسم، والإرادةُ وافرة لم تستعب، والطينة لينة فهي أقبل ما تكون للطابع، والقضيب رطب فهو أقرب ما يكون من العلوق، حين هذه الخصال لم يبل جديدها، ولم يفل غربها، ولم تتفرق قواها، وكانت كما قال الشاعر:

أتاني هواها قبلَ أنْ أعرِفَ الهوَى فصادف قلبا فارغا فتمكنا

وقال عبدة[٥٥] بن الطبيب:

لا تأمَنُوا قومًا يشِبّ صبيُّهم ين القوابل بالعَدَاوةِ يُنْشَعُ

هذا مع قولهم: التعلم في الصغر كالنقش في الحجر؛ وقال جران العود:

تُرِكن بِرِحْلَةِ الروحاء حتّى تَنكّرتْ الديارُ علَى البصير
كوحيٍ في الحجارة أو وُشُومٍ بأيدي الرّوم باقيةِ النؤورِ[٥٦]

وقال آخر وهو صالح بن عبد القدوس:

وإنّ مَن أدّبته في الصبا كالعُود يُسقّى الماءَ في غَرسِهِ
حتى تراه مُورِقًا أخضرا بعد الذي أبصرتَ مِن يُبسهِ

وقال آخر:

يقوِّم من مَيل الغلام المؤدبُ ولا ينفع التأديبُ والرأس أشيبُ

وقال آخر:

أدّبتُ عِرسي بعد ما هرِمتْ ومن العناء رِياضةُ الهرِمِ

وقد قال ذو الرمة لعيسى بن عمر: اكتب شعري فالكتاب أعجب إليّ من الحفظ، إن الأعرابي ينسى الكلمة قد سهرت في طلبها ليلة، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس، والكتاب لا ينسى، ولا يبدل كلامًا بكلام.

وعبت الكتاب ولا أعلم جارًا أبر، ولا خليطًا أنصف، ولا رفيقًا أطوع، ولا معلمًا أخضع، ولا صاحبًا أظهر كفاية، ولا أقل جناية، ولا أقل إملالا وإبراما، ولا أقل خلافًا وإجراما، ولا أقل غيبة، ولا أبعد من عضيهة، ولا أكثر أعجوبة وتصرفا، ولا أقل صلفا وتكلُّفا، ولا أبعد من مراء، ولا أترك شغب، ولا أزهد في جدال، ولا أكف عن قتل، من كتاب؛ ولا أعلم قرينًا أحسن مواتاة، ولا أعجل مكافأة، ولا أحضر معونة، ولا أخف مؤونة، ولا شجرة أطول عمرًا، ولا أجمع أمرًا، ولا أطيب ثمرة، ولا أقرب مجنى، ولا أسرع إدراكًا، ولا أوجد في كل إبان من كتاب؛ ولا أعلم نتاجًا في حداثة سنه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، وإمكان موجوده، يجمع من التدابير العجيبة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحكم الرفيعة، والمذاهب القديمة، والتجارب الحكيمة، ومن الأخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتراخية، والأمثال السائرة، والأمم البائدة ما يجمع لك الكتاب.

وقد قال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ وصف نفسه تبارك وتعالى جده بأن علم بالقلم، كما وصف نفسه بالكرم، واعتد ذلك في نعمه العظام، وفي أياديه الجسام، وقد قالت: القلم أحد اللسانين، وقالوا: كل من عرف فضل النعمة في بيان اللسان كان بفضل النعمة في بيان القلم أعرف؛ ثم جعل هذا الأمر قرآنًا، ثم جعله في أول التنزيل، ومستفتح الكتاب، ثم اعلم — يرحمك الله تعالى — إن حاجة بعض الناس إلى بعض صفة لازمة لطبائعهم، وخلقة قائمة في جواهرهم، وثابتة لا تزايلهم، ومحيطة بجماعتهم، مشتملة على أدانيهم وأقاصيهم، وحاجتهم إلى ما غاب عنهم، مما يعيشهم ويحييهم، ويأخذ بأرماقهم، ويصلح بالهم، ويجمع شملهم، وإلى التعاون على درك ذلك، والتوازر عليه كحاجتهم إلى التعاون على معرفة ما بحضرتهم، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق في أمورهم التي لم تغب عنهم، فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد، لاحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى، واختلال الأدنى إلى معونة الأقصى؛ معان متضمنة، وأسباب متصلة، وحبال متقيدة، وجعل حاجتنا إلى معرفة أخبار من كان قبلنا كحاجة من كان قبلنا إلى أخبار من كان قبلهم، وحاجة من يكون بعدنا إلى أخبارنا، ولذلك تقدمت في الكتب البشارات بالرسل، ولم يسخر لهم جميع خلقه إلا وهم يحتاجون إلى الارتفاق بجميع خلقه، وجعل الحاجة حاجتين: إحداهما قوام وقوت، والأخرى لذة وإمتاع، وازدياد في الآلة، وفي كل ما أجذل النفوس، وجمع لهم العتاد، وذلك المقدار من جميع الصنفين وفق لكثرة حاجاتهم وشهواتهم، وعلى قدر اتساع معرفتهم،

وبعد غورهم، وعلى قدر احتمال طبع البشرية، وفطرة الإنسانية، ثم لم يقطع الزيادة عنهم إلا لعجز خلقهم عن احتمالها، ولم يجز أن يفرق بينهم وبين العجز إلا بعدم الأعيان، إذا كان العجز صفة من صفات الخلق، ونعتًا من نعوت العبيد، ولم يخلق الله تعالى أحدًا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخر له، فأدناهم مسخر لأقصاهم، وأجلهم ميسر لأدقهم، وعلى ذلك أحوج الملوك إلى السوقة في باب، وأحوج السوقة إلى الملوك في باب، وكذلك الغني والفقير، والعبد وسيده.

ثم جعل الله تعالى كل شيء للإنسان خولا وفي يده مذالا ميسرًا، إما بالاحتيال له، والتلطف في إراغته واستمالته، إما بالصولة عليه والفتك به، وإما أن يأتيه سهوا ورهوا، وعلى أن الإنسان لولا حاجته إليها لما احتال لها، ولما صال عليها، إلا أن الحاجة تفترق في الجنس والجهة، وفي الحظ والتقدير، ثم تعبد الإنسان بالفكر فيها، والنظر في أمورها، وبالاعتبار بما يرى، ووصل بين عقولهم، وبين معرفة تلك الحكم الشريفة، وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير، والتنقب والتنقير، والتنبت، والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم إليها، وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان عنها، وهو البيان الذي جعله الله تعالى سببًا فيما بينهم، ومعبرًا عن حقائق حاجاتهم، ومعرفًا لمواضع سد الخلة، ودفع الشبهة، ومداواة الحيرة؛ ولأن أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح الماثلة، والأجسام الجامدة، والأجرام الساكنة التي لا يتعرف ما فيها من دفائن الحكم وكنوز الأدب، وينابيع العلم، إلا بالعقل اللطيف الثاقب، وبالنظر التام النافذ، وبالأداة الكاملة، وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكروه الفكر، والاحتراس من وجوه الخدع، والتحفظ من دواعي الهوينى، ولأن الشكل أفهم عن شكله وأسكن إليه وأصب به، وذلك موجود في أجناس البهائم وضروب السباع، والصبي عن الصبي أفهم وله آلف، وإليه أنزع، وكذلك العالم والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأن الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعه بطباعه آنس، وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه؛ ثم لم يرض من البيان لهم بصنف واحد، بل جمع ذلك ولم يفرق، وكثر ولم يقلل، وأظهر ولم يخف، فجعل أصناف البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم في أربعة أشياء وفي خصلة خامسة، وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تكمل بجنسه الذي وضع له، وصرف إليه.

وهذه الخصال الأربع: هي اللفظ والخط والإشارة والعقد، والخصلة الخامسة: ما أوجد من صحة الدلالة، وصدق الشهادة، ووضوح البرهان في الأجرام الجامدة الصامتة،

والساكنة الثابتة، التي لا تنبس ولا نفهم، ولا تحس وتتحرك إلا بداخل دخل عليها، أو عند ممسك خلى عنها بعد تقييده كان لها؛ ثم قسم الأقسام، ورتب المحسوسات، وحصل الموجودات، فجعل اللفظ للسامع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرك بين الناظر واللامس، في معرفة العقد إلا بما فضل الله به نصيب الناظر في ذلك على نصيب اللامس، وجعل الخط دليلا على ما غاب من حوائجه عنه، وسببًا موصولا بينه وبين أعوانه، وجعله خازنًا لما لا يأمن نسيانه مما قد أحصاه وحفظه، وأتقنه وجمعه، وتكلف الإحاطة به، ولم يجعل للشام والذائق في ذلك نصيبًا.

ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير البسيط، ولبطلت معرفة التضاعيف، ولعدموا الإحاطة بالباورات، وباورات الباورات، ولو أدركوا ذلك لما أدركوه إلا بعد أن تغلظ المؤونة، وتنتقص المنة، ولصاروا إلى حال معجزة وحسور، وإلى حال مضيعة وكلال حد، مع التشاغل بأمور لولا فقد هذه الآلة لكان أربح لهم، وأرد عليهم أن يصرفوا ذلك الشغل في أبواب منافع الدين والدنيا؛ ونفع الحساب معلوم، والخلة في موضع فقده معروفة، قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَـانُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ثم قال: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ وبالبيان عرف الناس القرآن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فأجرى الحساب مجرى البيان وألحق البيان بالقرآن، وبحسبان منازل القمر عرفنا حالات المد والجزر، وكيف تكون الزيادة في الأهلة وأنصاف الشهور، وكيف يكون النقصان في خلال ذلك، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار.

ولولا الكتب المدونة، والأخبار المخلدة، والحكم المخطوطة التي تحصر الحساب وغير الحساب، لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر، ولما كان للناس مفزع إلى موضع استذكار، ولو تم ذلك لحرمنا أكثر النفع، إذ كنا قد علمنا أن مقدار حفظ الناس لعواجل حاجاتهم وأواجلها لا يبلغ من ذلك مبلغًا مذكورًا، ولا يغنى فيه غناء محمودًا، ولو كلف عامة من يطلب العلم، ويصطنع الكتب، ألا يزال حافظًا لفهرس كتبه لأعجزه ذلك، ولكلف شططًا، ولشغله ذلك عن كثير مما هو أولى به؛ ففهمك لمعاني كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجردًا، وأبعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك، والمعاون لك ما كان صياحًا صرفًا، وصوتًا مصمتًا، ونداء خالصًا، ولا يكون مع ذلك إلا وهو بعيد من المفاهمة، وعطل من الدلالة، فجعل الله جل وعز اللفظ لأقرب الحاجات، والصوت لأنفس من ذلك قليلا، والكتاب للنازح من الحاجات.

فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها رفع الحواجب، وكسر الأجفان، ولى الشفاه، وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه؛ وأبعدها أن تلوى بثوب على مقطع جبل تجاه عين الناظر، ثم ينقطع عملها، ويدرس أثرها، ويموت ذكرها، وتصير بعد كل شيء فضل عن انتهاء مدة الصوت، ومنتهى الطرف في الحاجة، إلى التفاهم بالخطوط والكتب؛ فأي نفع أعظم، وأي مرفق أعون من الخط، والحال فيه كما ذكرنا!

وليس للعقد حظ الإشارة في بعد الغاية، ولا للاشارة حظ الخط في بعد الغاية، فلذلك وضع الله عز وجل القلم في المكان الرفيع، ونوه بذكره في المنصب الشريف حين قال: ﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فأقسم بالقلم كما أقسم بما يخط بالقلم إذ كان اللسان لا يتعاطى شأوه، ولا يشق غباره، ولا يجري في حلبته، ولا يتكلف بعد غايته، ولكن لما كانت حاجات الناس بالحضرة أكثر من حاجاتهم في سائر الأماكن، وكانت الحاجة إلى بيان اللسان حاجة دائمة راكدة، وراهنة ثابتة؛ وكانت الحاجة إلى بيان القلم أمرًا يكون في الغيبة وعند النائبة، إلا ما خصت به الدواوين، فإن لسان القلم هناك أبسط، وأثره أعم، فلذلك قدموا اللسان على القلم، فاللسان الآن إنما هو في منافع اليد والمرافق التي فيها، والحاجات التي تبلغها؛ فمن ذلك حظها وقسطها من منافع الإشارة، ثم نصيبها في تقويم القلم، ثم حظها في التصوير، ثم حظها في الصناعات، ثم حظها في العقد، ثم حظها في الدفع عن النفس، ثم حظها في إيصال الطعام والشراب إلى الفم، ثم التوضؤ والامتساح، ثم انتقاد الدنانير والدراهم، ثم لبس الثياب؛ وفي الدفع عن النفس أصناف الرمى، وأصناف الضرب، وأصناف الطعن، ثم الضرب التقن بالعود وتحريك الوتر، ولولا ذلك لبطل الطرب كله أو عامته؛ وكيف لا تكون كذلك ولها ضرب الطبل والدف وتحريك الصفاقتين، وتحريك مخارق خروق المزامير، وما في ذلك من الإطلاق والحبس؛ ولو لم يكن في اليد إلا إمساك العنان والزمام والخطام، لكان ذلك من أعظم الحظوظ.

وقد اضطربوا في الحكم بين العقد والإشارة، ولولا أن مغزانا في هذا الكتاب سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أحب أن يعرفه إخواننا وخلطاؤنا، ولا ينبغي لنا أيضًا أن نأخذ في هذا الباب من الكلام إلا بعد الفراغ مما هو أولى بنا منه، إذ كنت لم تنازعني، ولم تعب كتبي من طريق فضل ما بين العقد والإشارة، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما؛ وإنما قصدنا بكلامنا إلى الإخبار عن فضل الكتب.

والكتاب هو الذي قيد على الناس كتب علم الدين، وحساب الدواوين، مع خفة ثقله، وصغر حجمه، صامت ما أسكته، وبليغ إذا استنطقته، ومن لك بمسامر لا يبتدئك في

حال شغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمل له، والتذمم منه؛ ومن لك بزائر إن شئت جعل زيارته غبا، ووروده خمسًا؛ وإن شئت لزمك لزوم ظلك، فكان منك مكان بعضك.

والقلم مكتف بنفسه ولا يحتاج إلى ما عند غيره، ولابد لبيان اللسان من أمور، منها: إشارة اليد، ولولا الإشارة لما فهموا عنك خاص الخاص، إذا كان أخص الخاص قد يدخل في باب العام، إلا أنه أدنى طبقاته، وليس يكتفي خاص الخاص باللفظ عما أداه، كاكتفاء عام العام، والطبقات التي بينه وبين أخص الخاص.

والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا يملك، والمستميح الذي لا يستزيدك، والجار الذي لا يستبطئك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب.

والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجود بيانك، وفخم ألفاظك، وبجح نفسك، وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوام، وصداقة الملوك؛ وعرفت به في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر، مع السلامة من الغرم، ومن كد الطلب، ومن الوقوف بباب المتكسب بالتعليم، وبالجلوس بين يدى من أنت أفضل منه خلقا، وأكرم عرقًا، ومع السلامة من مجالسة البغضاء، ومقارنة الأغبياء.

والكتاب هو الذي يطيعك بالليل كطاعته بالنهار؛ ويطيعك في السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتل بنوم، ولا يعتريه كلال السهر؛ وهو المعلم الذي إن افتقرت لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعاديك لم ينقلب عليك؛ ومتى كنت منه متعلقًا بسبب، أو معتصمًا بأدنى حبل، لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء؛ ولم لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك، إلا منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارة بك، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر، ومن عادة الخوض فيما لا يعنيك، ومن ملابسة صغار الناس، ومن حضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الردية، وجهلاتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة ثم الغنيمة، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلا أن يشغلك عن سخف المنى، وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكل ما أشبه اللعب، لقد كان في ذلك على صاحبه أسبغ النعمة، وأعظم المنة؛ وقد علمنا أن أمثل ما يقطع به الفراغ نهارهم، وأصحاب الفكاهات ساعات ليلهم، هو الشيء الذي لا ترى له فيهم مع النيل أثرًا في ازدياد في تجربة ولا في عقل، ولا في مروءة ولا في صون عرض، ولا في إصلاح دين، ولا في تثمير مال، ولا في تربية صنيعة، ولا في ابتداء بإنعام.

قال أبو عبيدة قال المهلب لبنيه في وصيته: يا بني لا تقفوا في الأسواق إلا على زراد أو وراق.

وحدثني صديق لي قال: قرأت على شيخ شامي كتابًا فيه مآثر غطفان، فقال لي: ذهبت المكارم إلا من الكتب؛ وسمعت الحسن اللؤلؤي يقول: عبرت أربعين عامًا ما قلت ولا بت التكأت إلا والكتاب موضوع على صدري؛ وقال ابن الجهم: إذا غشيني النعاس في غير وقت نوم وبئس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة، تناولت كتابًا من كتب الحكم فأجد اهتزاري للفوائد، والأريحية التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة، والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانة، وعز التبين، أشد إيقاظًا من نهيق الحمير، وهدة الهدم.

وقال ابن الجهم: إذا استحسنت الكتاب واستجدته، ورجوت منه الفائدة، ورأيت ذلك فيه، فلو ترونني وأنا ساعة بعد ساعة أبصر كم بقي من ورقه مخافة استنفاده، وانقطاع المادة من قبله، وإن كان المصحف في عظيم الحجم، وكان الورق كثير العدد، لرأيتم كيف تم عيشي، وكمل سروري.

وذكر القيني كتابًا لبعض القدماء فقال: لولا طوله، وكثرة ورقه، لنسخته؛ قال ابن الجهم: لكنني ما رغبني فيه إلا الشيء الذي زهدك فيه، وما قرأت كتابًا قط كبيرًا فأخلاني من فائدة، وما أحصى كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كلما دخلت.

وقال القيني ذات يوم لابن الجهم: ألا تتعجب من فلان! نظر في كتاب الإقليدس مع جارية سلمويه في يوم واحد وساعة واحدة، فقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعد لم يحكم مقالة واحدة، على أنه حر مخير وتلك أمة مقصورة، وهو أحرص على قراءة الكتب من سلمويه على تعليم جاريته؛ قال ابن الجهم: قد كنت أظن أنه لا يفهم منه شكلًا واحدًا، وأراك تزعم أنه قد فرغ من مقالة؛ قال القيني: وكيف ظننت به هذا الظن كله وهو رجل ذو لسان وأدب؟ قال: لأني سمعته يقول لابنه: كم أنفقت على كتاب كذا وكذا؟ قال: أنفقت كذا وكذا؛ قال: إنما رغبني في العلم أني ظننت أني أنفق قليلا وأكتسب كثيرًا، فأما إذا صرت أنفق الكثير وليس في يدي منه إلا المواعيد فإني لا أريد العلم بشيء. والإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه، ولابد من أن تصير كتبه أكثر من سماعه، ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذ عنده من الإنفاق من مال عدوه؛ ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذ عنده من عشاق القبان، والمستهترين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغًا رضيا. وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر لذة اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله، وحتى يؤمل في العلم ما لا يؤمل الأعرابي في فرسه.

وقال إبراهيم بن السندى مرة: وددت أن الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقي الأبيض، ولا على تخير الحبر الأسود البراق، ولا على استجادة الخط والإرغاب لمن يخط، فإني لم أر كورق كتبهم ورقا، ولا كالخطوط التي فيها خطا. وإني غرمت مالا عظيمًا مع حبي للمال وبغضي للغرم، لأن سخاء النفس بالإنفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس وعلى السلامة من سكر الآفات. وقلت لإبراهيم: إن إنفاق الزنادقة على الكتب كإنفاق النصارى على البيع، ولو كانت كتب الزنادقة كتب حكمة، وكتب فلسفة، وكانت مقاييس تبيين، أو لو كانت كتبهم كتبا تعرف الناس أبواب الصناعات، أو سبل التكسب والتجارات، أو كتب إرفاق ورياضات، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والأدب، أو كان ذلك لا يقرب من غنى، ولا يباعد من مأثم، لكانوا ممن قد يجوز أن يظن بهم تعظيم البيان والرغبة في التبيين، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة؛ فإنما إنفاقهم في ذلك كإنفاق المجوس على بيت النار، وكإنفاق النصارى على صلبان الذهب، أو كإنفاق الهند على سدنة البد؛ ولو كانوا العلم أرادوا لكان العلم لهم معرضا؛ وكتب الحكمة لهم مبذولة، والطرق إليها سهلة معروفة؛ فما بالهم لا يصنعون ذلك إلا بكتب ديانتهم كما يزخرف النصارى بيوت عبادتهم؛ ولو كان هذا المعنى مستحسنًا عند المسلمين، وكانوا يرون أن ذلك داعية إلى العبادة وباعثة على الخشوع، لبلغوا في ذلك بعفوهم ما لا يبلغه النصارى بغاية الجهد.

وقد رأيتم مسجد دمشق حين استجاز هذه السبيل ملك من ملوكنا، ومن رآه فقد علم أن أحدا لا يرومه، وأن الروم لا تسخو أنفسهم به؛ فلما قام عمر بن عبد العزيز جلله بالجلال، وغطاه بالكرابيس،[٥٧] وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق، وذهب إلى أن ذلك الصنيع مجانب لسنة الإسلام، وأن ذلك الحسن الرائع والمحاسن الدقاق مذهلة للقلوب، مشغلة دون الخشوع، وأن البال لا يكون مجتمعًا وهناك شيء يفرقه ويعترض عليه.

والذي يدلنا على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مثل سائر، ولا خبر طريف، ولا صنعة أدب، ولا حكمة غرزية ولا فلسفية، ولا مسألة كلامية، ولا تعريف صناعة، ولا استخراج آلة، ولا تعليم فلاحة، ولا تدبير حرب، ولا مقارعة عن دين، ولا مناضلة عن نحلة؛ وجله ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت، وذكر الصنديد والتهويل بعمود السنخ، والإخبار عن شقلون وعن الهامة والهمامة، وهذر وعي ودعوى وخرافة وسخف وتكذب، لا ترى فيه موعظة حسنة، ولا حديثًا مونقًا، ولا تدبير معاش ولا

سياسة عامة، ولا ترتيب خاصة؛ فأي كتاب أجهل، وأي تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الطاعة والبخوع بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة، وليس فيه صلاح معاش، ولا تصحيح دين، والناس لا يجيبون إلا دينًا أو دنيا.

فأما الدنيا فإقامة سوقها وإحضار نفعها. وأما الدين فأقل ما يطمع في استجابة العامة واستمالة الخاصة، أن يصور في صورة مغلطة، ويموه تمويه الدينار البهرج والدرهم الزائف الذي يغلط فيه الكثير ويعرف حقيقته القليل. فليس انفاقهم عليها من حيث ظننت. وكل دين يكون أظهر اختلافًا وأكثر فسادًا يحتاج من الترقيع والتمويه ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه إلى أكثر من غيره.

وقد علمت أن النصرانية أشد انتشارًا من اليهودية تعبدًا، فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم في توكيده، واحتفالهم في إظهار تعظيمه.

وقال بعضهم: كنت عند بعض العلماء فكنت أكتب عنه بعضًا وأدع بعضًا، فقال لي: اكتب كل ما تسمع، فإن أخس ما تسمع خير من مكانه أبيض. وقال الخليل بن أحمد: تكثر من العلم لتعرف، وتقلل منه لتحفظ. وقال أبو إسحاق: القليل والكثير للكتب، والقليل وحده للصدر، وأنشد قول ابن يسير:

أَمَا لو أَعي كلّ ما أَسمَعُ ... وأَحْفَظ مِن ذاكَ ما أَجْمَعُ
ولم أَستَفِد غَيْر ما قَدْ جمعْـ ... ـتُ لقِيلَ هو العالِمُ المُقْنِعُ
ولكنّ نَفْسي إلى كُلِّ نو ... عٍ من العِلْم نَسْمَعُه تَنْزِع
أَشَاهَدُ بالعيّ في مَجْلِسي ... وعِلْميَ في البيت مُسْتَوْدَع
فلا أَنَا أَحْفَظُ ما قد جمعـ ... ـت ولا أنا مِنْ جَمْعِه أشبَع
ومَنْ يَكُ في عِلْمِه هكذَا ... يكُنْ دهرَه القَهْقَرَي يَرْجِعُ
إذا لَمْ تكُنْ حافِظًا واعِيًا ... فجَمْعُك لِلعلْمِ لا يَنْفَع

قال أبو إسحاق: كلف ابن يسير الكتب ما ليس عليها، إن الكتب لا تحيي الموتى، ولا تحول الأحمق عاقلا، ولا البليد ذكيا؛ وذلك أن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول فالكتب تشحذ وتفتق وترهف وتشفى؛ ومن أراد أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يداووه، فإن ذلك إنما تصور له لشيء اعتراه. فمن كان عاقلا ذكيًا حافظًا فليقصد إلى شيئين أو ثلاثة أشياء: فلا ينزع عن الدرس والمطارحة، ولا يدع أن يمر على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصناف فيكون عالمًا بخواص ويكون غير غفل من سائر

ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه؛ ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئًا إلا نسى أكثر منه فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد.

وحدثني موسى بن يحيى قال: ما كان في خزانة كتب يحيى وفي بيت مدرسة كتاب إلا وله فيه ثلاث نسخ.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه فرأيته ينظر في دفتر وجليسه فارغ اليد إلا اعتقدت أنه أعقل منه وأفضل.

قال أبو عمرو وقيل لنا يومًا: إن في دار فلان ناسًا قد اشتملوا على سوءة، وهم جلوس على خميرة لهم وعندهم طنبور، قال: فذمرنا عليهم في جماعة من رجال الحي، فإذا فتى جالس في وسط الدار وإذا أصحابه حوله، وإذا هم بيض اللحى، وإذا هو يقرأ عليهم كتاب شعر، فقال الذي كان سعى بهم: السوءة في ذلك البيت، وإن دخلتموه عثرتم بها؛ قال قلت: والله لا أكشف فتى أصحابه شيوخ وفي يده دفتر علم ولو كان في ثوبه دم يحيى بن زكرياء. قال وأنشد رجل يونس النحوي قوله:

أُسْتودِعَ العِلْمُ قِرْطاسًا فَضَيّعه فبِئْس مُسْتوْدَعُ العِلْم القراطيسُ

قال فقال يونس: قاتله الله، ما أشد صبابته بالعلم وأحسن صيانته له! إن علمك من روحك، ومالك من بدنك، فضعه منك بمكان الروح، وضع مالك بمكان البدن.

وقيل لابن داحة وأخرج كتاب أبي الشمقمق وإذا هو في جلود كوفية ودفتين طائفيتين وبخط عجيب، فقيل له[٥٨]: لقد ضيع درهمه من تجود لشعر أبي الشمقمق؛ قال: لا جرم والله إن العلم ليعطيكم على حساب ما تعطونه، ولو استطعت أن أودعه سويداء قلبي وأجعله مخطوطًا على ناظري لفعلت.

ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في إمرته، فرأيت السماطين بين يديه والرجال مثولا كأن على رءوسهم الطير، ورأيت فرشته[٥٩] وبزته، ثم دخلت عليه وهو معزول، وإذا هو في بيت كتبه وحواليه الأسفاط والرفوف والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر، فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم، إلا أنه جمع مع المهابة المحبة، ومع الفخامة الحلاوة، ومع السودد الحكمة.

وقال ابن داحة: كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس، ونزل مقبرة من المقابر، وكان لا يكاد يرى إلا وفي يده كتاب يقرؤه، فسئل عن ذلك وعن نزوله المقبرة، فقال: لم أر أوعظ من قبر، ولا أمتع من كتاب، ولا

أسلم من الوحدة؛ فقيل له: فقد جاء في الوحدة ما قد جاء، قال: ما أفسدها للجاهل وأصلحها للعاقل!

وضروب من الخطوط بعد ذلك تدل على قدر منفعة الخط، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وقال الله عز وجل: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ وقال: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

ما كتبه في الترغيب في اصطناع الكتب

(وبعد أن تكلم عن الخط في الأرض عند التفكر وما قيل في ذلك من الأشعار، وذكر الخط ومقدار الحاجة إليه، وتاريخ الشعر قبل الإسلام، وبيان أن فضيلته مقصورة على العرب، استطرد القول بالترغيب في اصطناع الكتب) فقال: إن على من شكر المعرفة بمغاوي الناس ومراشدهم ومضارهم ومنافعهم، أن يحتمل ثقل مؤونتهم في معرفتهم، وأن يتوخى إرشادهم وإن جهلوا فضل ما يسدى إليهم. ولن يصان العلم بمثل بذله، ولن تستبقى النعمة فيه بمثل نشره على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم، إذ كان مع التلاقي يشتد التصنع، ويكثر التظالم، وتفرط العصبية، وتقوى الحمية؛ وعند المواجهة والمقابلة يشتد حب الغلبة، وشهوة المباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع، والأنفة من الخضوع؛ وعن جميع ذلك تحدث الضغائن ويظهر التباين؛ فإذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة، امتنعت من التعرف، وعميت عن موضع الدلالة؛ وليست للكتب علة تمنع من درك البغية، وإصابة الحجة، لأن المتوحد بدرسها والمنفرد بفهم معانيها، لا يباهي نفسه، ولا يغالب عقله، وقد عدم من له يباهى، ومن أجله يغالب؛ والكتاب قد يفضل صاحبه ويتقدم مؤلفه، ويرجح قلمه على لسانه بأمور: منها، أن الكتاب يقرأ بكل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، ويوجد مع كل زمان على تفاوت ما بين الأعصار، وتباعد ما بين الأمصار؛ وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع بالمسألة والجواب؛ ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان مجلس صاحبه، ومبلغ صوته؛ وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويفنى العقل ويبقى أثره. ولولا ما تسمت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لقد خس حظنا من الحكمة، وضعف سببنا إلى المعرفة؛ ولو ألجئنا

إلى قدر قوتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجربتنا لما تدركه حواسنا وتشاهده نفوسنا، لقد قلت المعرفة، وقصرت الهمة، وانتقضت المنة، وعاد الرأي عقيمًا، والخاطر فاسدًا، ولكل الحد، وتبلد العقل. وأكثر من كتبهم نفعًا، وأشرف منها خطرًا، وأحسن موقعًا، كتب الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كل عبرة، وتعريف كل سيئة وحسنة. وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصحف والمهارق[٦٠] والمصاحف، فقد قال الله عز وجل: ﴿الم * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وقال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾. ويقال لأهل التوراة والإنجيل: أهل الكتاب. وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا. على أنّا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا، فيما ينتظر العالم بإظهار ما عنده، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه، وقد أمكن القول، وصلح الدهر، وهوى نجم التقية، وهبت ريح العلماء، وكسد العيّ والجهل، وقامت سوق البيان والعلم. والإنسان ليس يجد في كل حال إنسانًا يدرسه ومقومًا يثقفه، والصبر على إفهام الريض شديد، وصرف النفس عن مغالبة العالم أشد منه هما.

والمتعلم يجد في كل مكان الكتاب عتيدًا، وبما يحتاج إليه قائمًا. وما أكثر من فرط في التعلم أيام خمول ذكره وأيام حداثة سنه. ولولا جياد الكتب وحسنها، ومبينها ومختصرها، ثم تحركت همم هؤلاء لطلب العلم، ونازعت إلى حب الأدب، وأنفت من حال الجهل وأن تكون في غمار الحشو لدخل على هؤلاء من الضرر والمضرة والجهل وسوء الحال ما عسى ألا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير.

ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: تفقهوا قبل أن تسودوا. وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين سنة، ولا يعد فقيها ولا يجعل قاضيًا؛ وما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه باب بعض العمال؛ وبالحرى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكمًا على مصر من الأمصار، أو بلدة من البلدان.

وينبغي لمن كتب كتابًا ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالم بالأمور، وكلهم متفرغ له؛ ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه يغب ويختمر، ولا يثق بالرأي الفطير؛ فإن لابتداء الكتاب فتنة وعجبا، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وافرة، أعاد النظر فيه وتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب، ويتفهم معنى قول الشاعر:

إنّ الحديثَ تَغُرُّ القوْمَ خَلْوتُه حتّى يَكونَ لهم عِيٌّ وإكْثارُ

ويقف عند قولهم في المثل: «كلُّ مُجْرٍ في الخَلاء يُسَرّ»، فيخاف أن يعتريه ما يعتري من أجرى فرسه وحده، أو خلا بقلمه عند فقد خصومه وأهل المزية من أهل صناعته. وليعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه؛ فما أكثر من يعزم على عشرة أسواط فيضرب مائة، لأنه ابتدأ الضرب وهو ساكن الطباع فأراه السكون أن الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة وزاد في غضبه، فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار؛ وكذلك صاحب القلم، فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة. والحفظ مع الإقلال أمكن، وهو مع الإكثار أبعد.

واعلم أن العاقل إن لم يكن بالمشبع فكثيرًا ما يُغَرّ من ولده ويحسن في عينه منه القبيح في عين غيره، فليعلم أن لفظه أقرب إليه نسبًا من ابنه، وحركته أمس به رحما من ولده؛ لأن حركته شيء أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فصلت، ومن نفسه كانت، وإنما الولد كالمخطة يمتخطها؛ وكالنخامة يقذفها، ولا سواء إخراجك من نفسك شيئًا لم يكن منك، وإظهارك حركة لم تكن حتى كانت منك؛ ولذلك نجد فتنة الرجل بشعره وفتنته بكلامه وكتبه، فوق فتنته بجميع نعمته.

وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه حتى لا يحتاج السامع بما فيه إلى الروية فيه. ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو، ويحطه عن غريب الأعراب، ووحشي الكلام. وليس له أن يهذبه جدًا وينقحه ويصفيه ويزوقه حتى لا ينطق إلا باللب وبالسر، وباللفظ الذي قد حذف فضوله وتعرق زوائده، حتى عاد خالصًا لا شوب فيه؛ فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه إلا بأن يجدد لهم إفهامًا وتكرارًا، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن تعطس عليها وتؤخذ بها؛ ألا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب لما فهموا أكثره؛ وفي كتاب إقليدس، كلام يدور وهو عربي وقد صفى، ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه، إلا بأن يفهمه من يريد تعليمه؛ لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر، وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام.

وقد قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهما لصحار العبدي: ما الإيجاز؟ قال أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ؛ قال معاوية: أو كذاك تقول. قال صحار:

أقلني يا أمير المؤمنين، لا تخطئ ولا تبطئ. فلو أن سائلا سألك عن الإيجاز فقلت: لا تخطئ ولا تبطئ وبحضرتك خالد ابن صفوان لما عرف بالبديهة وعند أول وهلة أن قولك لا تخطئ مضمن بالقول، وقولك لا تبطئ مضمن بالجواب. وهذا حديث — كما ترى — قد ارتضوه ورووه؛ ولو أن قائلا قال لبعضنا: ما الإيجاز؟ لظننت أنه كان سيقول الاختصار والإيجاز، ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ. وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار[٦١] فقد أوجز، وكذلك الإطالة. وإنما ينبغي أن يحذف بقدر ما لا يكون سببًا لإغلاقه ولا يردد وهو يكتفي في الإفهام بشطره، فما فضل عن المقدار فهو الخطل.

وقلت لأبي الحسن الأخفش: أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟ قال: أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه قلت حاجاتهم إليّ فيه، وإنما غايتي المنالة، فإذًا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا، وأنا قد كسبت في هذا التدبير إذ كنت إلى التكسب ذهبت، ولكن ما بال إبراهيم النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم، ثم يأخذها مثلي في موافقته وحسن نظره وشدة عنايته، فلا يفهم أكثرها؟

وأقول لو أن يوسف السمتيّ كتب هذه الشروط أيام جلس سلمان بن ربيعة شهرين للقضاء فلم يتقدم إليه رجلان والقلوب سليمة والحقوق على أهلها موفرة، لكان ذلك خطلا ولغوًا، ولو كتب في دهرنا شروط دهر سلمان لكان ذلك غرارة ونقصا، وجهلا بالسياسة وما يصلح لكل دهر؛ ووجدنا الناس إذا خطبوا في صلح بين العشائر أطالوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السماطين في مدح الملوك أطالوا؛ فللإطالة موضع وليس ذلك بخطل، وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز.

ولولا أني أتكل على أنك لا تمل باب القول في البعير حتى تخرج إلى الفيل، وفي الذرة حتى تخرج إلى البعوضة، وفي العقرب حتى تخرج إلى الحية، وفي الرجل حتى تخرج إلى المرأة، وفي الذبان والنحل حتى تخرج إلى الغربان والعقبان، وفي الكلب حتى تخرج إلى الديك، وفي الذئب حتى تخرج إلى الضبع، وفي الظلف حتى تخرج إلى الحافر، وفي الحافر حتى تخرج إلى الخف، وفي الخف حتى تخرج إلى البرثن، وفي البرثن حتى تخرج إلى المخلب؛ وكذلك القول في الطير وعامة الأصناف، لرأيت أن ذلك يوجب الملال، ويعقب

الفترة المانعة من البلوغ في الفهم، وتعرف ما يحتاج منه إلى التعرف، فرأيت أن جملة الكتاب وإن كثر عدد ورقه، أن ذلك ليس مما تمل من كثرة قراءته أبدًا وتعتد على فيه بالإطالة، لأنه وإن كان كتابًا واحدًا فإنه كتب كثيرة، وكل مصحف منها أم على حدة. فإن أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني، ولا الثاني حتى يهجم على الثالث، فهو أبدا مستفيد ومستطرف، وبعضه يكون جماما لبعض، ولا يزال نشاطه زائدا، ومتى خرج من آي القرآن صار إلى أثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب فلعله أن يكون أثقل، والملال إليه أسرع، حتى يفضى به إلى مزح وفكاهة وإلى سخف وخرافة. ولست أراه سخفًا إذ كنت إنما استعملت سيرة الحكماء ومأدبة العلماء، ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطًا وزاد في الكلم. فأصوب العمل إتباع آثار العلماء والاحتذاء على مثال القدماء، والأخذ بما عليه الجماعة. وقال ابن يسير في صفة الكتب كلمة له:

أَقبلْتُ أهرُب لا أَلُو مُباعَدَةً ... في الأرض منهم فلم يُحْصِنِّيَ الهَرَبُ
بِقَصْر أَوْسٍ فما والَتْ خَنادِقُهُ ... إلى النّواوِيسِ فالماخُورُ فالخَرِبُ
فأيُّما مَوْئِلٍ منها اعتصمتُ به ... فمِنْ ورائي حَثيثًا مِنْهُمُ الطَّلَبُ
لمّا رأيتُ بأنِّي غَيْرُ مُعْجِزِهِمْ ... فَوْتًا ولا هَرَبًا قرّبت أحْتَجِبُ
وصِرْتُ في البيت مَسْرورًا به جَذِلًا ... جارًا لِبَوْءة لا شَكْوَى ولا شَغَبُ
فَرْدًا تُحَدّثنِي المَوْتَى وتَنْطِق لي ... عن علم ما غاب عنِّي مِنْهُمُ الكُتُبُ
هم مُؤْنِسُونَ وأُلّافٌ غَنِيتُ بِهِمْ ... فليس لي في أنيسٍ غَيْرِهم أَرَبُ
لله من جُلَساءٍ لا جَليسُهُمُو ... ولا عشيرُهُمُو للسُّوءِ مُرْتَقِبُ
لا بادِراتِ الأَذَى يَخْشَى رفيقَهُمُ ... ولا يُلاقيهِ مِنْهُمْ مَنْطِقٌ ذَرِبُ
أبْقَوْا لنا حِكَمًا تَبْقَى مَنافِعُها ... أخْرَى اللّيالي على الأيام وانْشَعَبوا
فأيُّما أدَبٍ مِنْهُمْ مَدَدتُ يَدي ... يَوْمًا إليه فَدَانٍ مِنْ يدي كثبُ
إنْ شِئْتُ مِن مُحْكَم الآثارِ يَرْفَعُها ... إلى النبيّ ثِقات برّةٌ نُجُبُ
أو شِئْتُ مِن عَرَبٍ عِلْمًا بأوّلها ... في الجاهليَّة أنْبَتْني به العَرَبُ
أو شِئتُ مِن سِيَرِ الأَمْلاك مِنْ عَجَمٍ ... تُنْبي وتُخْبِر كَيفَ الرَّأْيُ والأَدَبُ

حتّى كأنِّيَ قد شاهَدْتُ عَصْرَهُمُو ... وقد مضَتْ دونَهُ مِن دَهْرهم حِقَبُ
يا قائلًا قَصُرَتْ في العِلْمِ نُهْيَتُهُ ... أَمْسَى إلى الجَهْل فيما قال يَنْتَسِبُ
إنّ الأوائِلَ قد بانوا بعلْمِهُمُ ... خلافَ قَوْلِك قد ماتوا وقد ذهبوا
ما مات مِنَّا امْرُؤٌ أبقَى لنَا أدَبًا ... يكونُ منه إذا ما مات يُكْتَسَبُ

وقال أبو وجزة وهو يصف صحيفة كتب له فيها بستين وسقا:

راحتْ بستِّينَ وَسْقا في حَقيبَتِها ... ما حُمِّلتْ حِمْلَها الأدنى ولا السَّدَدا
ولا رأيتُ قَلوصًا قَبْلَها حَمَلَتْ ... سِتّين وَسْقًا ولا جابَتْ بها بَلَدَا

وقال الراجز:

تَعَلّمْنْ أنّ الدواةَ والقَلَمْ ... تَبْقَى ويُفْنِى حادِثُ الدَّهْر الغَنَمْ

يقول كتابك الذي تكتبه على يبقى فتأخذني به وتذهب غنمي فيما يذهب. ومما يدل على نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يجز أن يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة وحدث بالكوفة في بياض يوم، فتكون الحادثة بالكوفة غدوة فيعلمها أهل البصرة قبل المساء.

وذلك مشهور في الحمام الهدى: إذا جعلت بردا قال الله جل وعز، وذكر سليمان وملكه الذي لم يؤت أحدًا مثله، فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾. فلم يلبث أن قال الهدهد: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ قال سليمان: ﴿اذْهَب بِكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ وقد كان عنده من يبلغ الرسالة على تمامها من عفريت ومن بعض من عنده علم من الكتاب فرأى أن الكتاب أبهى وأنبل وأكرم وأفخم من الرسالة عن ظهر لسان وإن أحاط بجميع ما في الكتاب. وقال ملكة سبأ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ فهذا مما يدل على قدر اختيار الكتب وقد يريد بعض الجلة الكبار وبعض الأدباء والحكماء أن يدعو بعض من يجرى مجراه في سلطان أو أدب إلى مأدبة أو ندام أو خروج إلى متنزه أو بعض ما يشبه ذلك، فلو شاء أن يبلغه الرسول إرادته ومعناه لأصاب من يحسن الأداء ويصدق في الإبلاغ فيرى أن

الكتاب في ذلك أسرى وأنبه وأبلغ ولو شاء النبي ﷺ ألا يكتب الكتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وإلى بني الجلندي وإلى العباهلة من حمير وإلى هوذة بن علي وإلى الملوك العظماء والسادة النجباء لفعل ولوجد المبلغ المعصوم من الخطأ والتبديل، ولكنه عليه السلام علم أن الكتاب أشبه بتلك الحال، وأليق بتلك المراتب، وأبلغ في تعظيم ما حواه الكتاب، ولو شاء الله أن يجعل البشارات على الألسنة بالمرسلين ولم يودعها الكتب لفعل ولكنه تعالى وعز علم أن ذلك أتم وأكمل، وأجمع وأنبل؛ وقد يكتب بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة إلى بعض من يشاكله أو يجري مجراه فلا يرضى بالكتاب حتى يخزمه ويختمه، وربما لم يرض بذلك حتى يعنونه ويعظمه.

قال الله جل وعز: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ فذكر صحف موسى الموجودة وصحف إبراهيم البائدة المعدومة ليعرف الناس مقدار النفع والمصلحة في الكتب. قالوا: وكانت فلاسفة اليونانية تورث البنات العين وتورث البنين الدين؛ وكانت تصل العجز بالكفاية والمؤونة بالكلفة وكانت تقول: لا تورثوا الابن من المال إلا ما يكون عونا له على طلب المال، واغذوه بحلاوة العلم واطبعوه على تعظيم الحكمة ليصير جمع العلم أغلب عليه من جمع المال، وليرى أنه العدة والعتاد، وأنه أكرم مستفاد، وكانوا يقولون: لا تورثوا الابن من المال إلا ما يسد الخلة، ويكون له عونًا على درك الفضول إن كان لابد من الفضول، فإنه إن كان فاسدًا زادت تلك الفضول في فساده، وإن كان صالحًا كان فيما أورثتموه من العلم، وبقيتم له من الكفاية ما يكسبه الحال، فإن الحال أفضل من المال، ولأن المال لم يزل تابعًا للحال، وقد لا يتبع الحال المال، وصاحب الفضول بعرض فساد وعلى شفا إضاعة مع تمام الحنكة واجتماع القوة؛ فما ظنكم بها مع غرارة الحداثة وسوء الاعتبار وقلة التجربة! وكانوا يقولون: خير ميراث ما كسبك الأركان الأربعة، وأحاط بأصول المنفعة وعجل لك حلاوة المحبة، وبقى لك الأحدوثة الحسنة، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهره وباطنه؛ وليس يجمع ذلك إلا كرام الكتب النفيسة المشتملة على ينابيع العلم، والجامعة لكنوز الأدب ومعرفة الصناعات وفوائد الإرفاق؛ وحجج الدين الذي بصحته وعند وضوح برهانه تسكن النفوس وتثلج الصدور، ويعود القلب معمورًا، والعز راسخًا، والأصل فسيحًا؛ وهذه الكتب هي التي تزيد في العقل وتشحذه، وتداويه وتصلحه، وتهذبه وتنفي الخبث عنه، وتفيدك العلم وتصادق بينك وبين الحجة، وتعودك الأخذ بالثقة وتجلب الحال وتكسب المال. ووراثة الكتب الشريفة والأبواب الرفيعة منبهة للمورث وكنز عند الوارث، إلا أنه كنز لا تجب

فيه الزكاة ولا حق السلطان، وإذا كانت الكنوز جامدة ينقصها ما أخذ منها كان ذلك الكنز مائعًا يزيده ما أخذ منه، ولا يزال بها المورث مذكورًا في الحكماء ومنوها باسمه في الأسماء، وإمامًا متبوعًا، وعلما منصوبًا، ولا يزال الوارث محفوظًا، ومن أجله محبوبًا ممنوعًا؛ ولا تزال تلك المحبة نامية ما كانت تلك الفوائد قائمة ولن تزال فوائدها موجودة ما كانت الدار دار حاجة، ولن يزال من تعظيمها في القلوب أثر ما كان من فوائدها على الناس أثر.

وقالوا: متى ورثته كتابًا وأودعته علما فقد ورثته ما يغل ولا يستغل، وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة، ولا إلى سقى، ولا إلى إسجال بايغار، ولا إلى شرط ولا تحتاج إلى أكار ولا إلى أن يثار، وليس عليها عشر ولا للسلطان عليها خرج، وسواء أفدته علما أو ورثته آلة علم، وسواء دفعك إليك الكفاية أو ما يجلب الكفاية، وإنما تجري الأمور وتتصرف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدر إلا على دفع السبب لم يجب عليه إحضار المسبب، فكتب الآباء تحبيب للأحياء، ومحيا لذكر الموتى.

وقالوا: ومتى كان الأب جامعًا بارعًا وكانت مواريثه كتبًا بارعة، وآدابًا جامعة، كان الولد أجدر أن يرى التعلم حظًا وأجدر أن يسرع التعليم إليه ويرى تركه خطأ، وأجدر أن يجري من الأدب على طريق قد أنهج له، ومنهاج قد وطئ له، وأجدر أن يسري إليه عرق من نجله وسقى من غرسه، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكتب النظر في الكتب، فلا يأتي عليه من الأيام مقدار الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية غاية الحاجة وإنما تفسد الكفاية من تمت آدابه، وتوافت إليه أسبابه، فأما الحدث الغرير، والمنقوص الفقير، فخير مواريثه الكفاية إلى أن يبلغ التمام، ويكمل للطلب. فخير ميراث ورث كتب وعلم، وخير المورثين من أورث ما يجمع ولا يفرق، ويبصر ولا يعمى، ويعطي ولا يأخذ، ويجود بالكل دون البعض، ويدع لك الكنز الذي ليس للسلطان فيه حق، والركاز الذي ليس للفقراء فيه نصيب، والنعمة التي ليس للحاسد فيها حيلة، ولا للصوص فيها رغبة، وليس للخصم عليك فيه حجة، ولا على الجار فيه مؤونة.

وأما ديمقراط فإنه قال: ينبغي أن يعرف أنه لابد من أن يكون لكل كتاب علم وضعه أحد من الحكماء ثمانية أوجه، منها الهمة والمنفعة، والنسبة والصحة، والصنف والتأليف، والإسناد والتدبير، فأولها أن تكون لصاحبه همة، وأن يكون فيما وضع منفعة، وأن يكون له نسبة ينسب إليها، وأن يكون صحيحًا، وأن يكون على صنف من أصناف

الكتب معروفًا به، وأن يكون مؤتلفًا من أجزاء خمسة، وأن يكون مسندًا إلى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف. فذكر أن أبقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب وهو كتابه الذي يسمى «أَفُورِ يسْمُوا» تفسيره: كتاب الفصول. وقولك وما بلغ من قدر الكلب مع لؤم أصله، وخبث طبعه، وسقوط قدره، ومهانة نفسه، ومع قلة خيره وكثرة شره، واجتماع الأمم كلها على استسقاطه واستسفاله، ومع ضربهم المثل في ذلك كله به، ومع حاله التي يعرف بها من العجز عن صولة السباع، واقتدارها، ومن تمنعها وتشرفها وتوحشها، وقلة إسماحها، وعن مسالمة البهائم وموادعتها، والتمكين من إقامة مصلحتها، والانتفاع بها، إذ لم يكن في طبعها دفع السباع عن أنفسها، ولا الاحتيال لمعاشها، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المخوفة. ولأن الكلب ليس بسبع تام ولا بهيمة تامة حتى كأنه من الخلق المركب، والطبائع الملفقة، والأخلاط المجتلبة، كالبغل المتلون في أخلاقه الكثير العيوب المتولدة عن مزاجه؛ وشر الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادة والأخلاق المتفاوتة، والعناصر المتباعدة، كالراعبي من الحمام الذي ذهبت عنه هداية الحمام، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطل عنه عمر الورشان، وقوة جناحه، وشدة عصبه، وحسن صوته، وشجا حلقه، وشكل لحونه وشدة إطرابه، واحتماله لوقع البنادق، وجرح المخالب. وفي الراعبي أنه مسرول مثقل، وحدث له عظم بدن وثقل وزن لم يكن لأبيه ولا لأمه.

وكذلك البغل خرج من بين حيوانين يلدان حيوانًا مثلهما ويعيش نتاجهما ويبقى بقاءهما، وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم، ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقر؛ فلو كان البغل عقيمًا والبغلة عاقرًا لكان ذلك أزيد في قوتهما وأتم لشدتهما، فمع البغل من الشبق والنعظ ما ليس مع أبيه، ومع البغلة من الشوس وطلب السفاد ما ليس مع أمها؛ وذلك كله قدح في القوة ونقص في البنية، وخرج غرموله أعظم من غراميل أعمامه وأخواله، فترك شبههما ونزع إلى شيء ليس له في الأرض أصل، وخرج أطول عمرًا من أبويه واصبر على الأثقال من أبويه؛ أو كابن المذكرة من النساء، والمؤنث من الرجال، فإنه يكون أخبث نتاجًا من البغل وأفسد أعراقًا من السمع،[٦٢] وأكثر عيوبًا من العسبار،[٦٣] ومن كل خَلْق خُلق إذا تركب من ضد، ومن كل شجرة مطعمة بخلاف؛ وليس يعتري مثل ذلك الخلاسي[٦٤] من الدجاج، ولا الورداني[٦٥] من الحمام؛ وكل ضعف دخل على الحلقة، وكل رقة عرضت للحيوان، فعلى قدر جنسه وعلى وزن مقداره وتمكنه يظهر العجز والعيب. وزعم الأصمعي أنه لم يسبق الحلبة فرس أهضم قط. وقال محمد بن سلام لم يسبق الحلبة أبلق قط ولا بلقاء.

والهداية في الحمام والقوة على بعد الغاية إنما هي للمصمتة من الخضر. وزعموا أن الشيات كلها ضعف ونقص، والشية: كل لون دخل على لون. وقال الله عز وجل: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾. وزعم عثمان ابن الحكم أن ابن المذكرة من المؤنث يأخذ أسوأ خصال أبيه وأردأ خصال أمه فتجتمع فيه عظام الدواهي وأعيان المساوي، وأنه إذا خرج كذلك لم ينجع فيه أدب ولا يطمع في علاجه طبيب، وأنه رأى في دور ثقيف فتى اجتمعت فيه هذه الخصال، فما كان في الأرض يوم إلا وهم يتحدثون عنه بشيء يصغر في جنبه أكبر ذنب كان ينسب إليه.

وزعمت أن الكلب في ذلك كالخنثى الذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخصي الذي لما قطع منه ما صار به الذكر فحلا خرج من حد كمال الذكر بفقدان الذكر، ولم يكمل لأن يصير أنثى للغريزة الأصلية وبقية الجوهرية؛ وزعمت أنه يصير كالنبيذ الذي يفسده إفراط الحر، فيخرجه من حد الخل، ولا يدخله في حد النبيذ. وقال مرداس بن خذام:

سَقَيْنا عِقالًا بالثَّوِية شِرْبةً فمالتْ بُلبّ الكاهِليّ عِقالِ
فقلتُ اصْطَبِحْها يا عِقالُ فإنّما هي الخمرُ خَيّلْنا لها بخَيالِ
رَمَيْتُ بأمّ الخَلّ حبّةَ قلبِه فلم يَنتعِش منها ثلاثَ ليالِ

فجعل الخمر أم الخل قد يتولد عنها، وقد يتولد عن الخل إذا كان خمرًا مرة الخمر. وقال سعيد بن وهب:

هلّا وأنتَ بماء وجهك تُشتَهى رُودُ الشباب قليلُ شَعْر العارِض
فالآن حين بَدتْ بخدّك لِحيةٌ ذهبَت بِملْحِك ملء كَفّ القابِض
مثلَ السُّلافة عاد خمْر عصيرها بعدَ اللَّذاذة خَلَّ خمر حامِض

ويصير أيضًا كالشعر الوسط والغناء الوسط، والنادرة الفاترة التي لم تخرج من الحر إلى البرد فتضحك السن ولم تخرج من البرد إلى الحر فتضحك السن.

هوامش

(١) القوم كالقيام مصدر قام.

(٢) كذا في الأصل.

(٣) راجع ما كتبناه عنه في الفصل العاشر من الكتاب الثالث في المجلد الأول.

(٤) هو من أبناء الفرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة في دولتي الرشيد والمأمون، وقد وضع كتابًا حاكى به كتاب كليلة ودمنة وسماه «ثعلة وعفرة». وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) في عهد المأمون، ولد سهل بن هارون في مدينة ميسان بين واسط والبصرة، وفي رواية في دستميسان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة، في أواخر النصف الأول من القرن الثاني تقديرًا، ولا يعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هارون بن راهبون (راهبون) وكنيته أبو عمرو، فارسي الجنس، أهوازي أو خوزي المولد، عراقي المنشأ، تحول إلى البصرة في سن لم تعرف، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم في الدولة الإسلامية، بل مدينة العلم في العالم كله، أو كما قيل فيها قبة الإسلام، وخزانة العرب، حوت من العلم الإنساني أصوله وفروعه، ومن القائمين على تنميته مصاقعه وفحوله، فغذى روحه بلسان مجالسها ومجامعها، واستنار عقله بما اقتبسه من نور معارفها فتخرج بعلمائها، ولا شك أنهم كانوا طبقة عالية جدًا، في كل مطلب من مطالب الآداب. وقيل: أن سهل بن هارون كان شيعيًا، وشيعة العراق في زمنه كانوا على الاطلاق معتزلة، ولم يؤثر عنه أنه تنقص أحدًا من الصحابة الكرام، بل عرف بالاعتدال مع الأموات، إعتداله مع الأحياء، وما أثر عنه أنه خاض غمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حرارتها إذ ذاك ولا سيما في البصرة ودار السلام بغداد، واتهموه بأنه كان مع الشعوبيين الذين يصغرون شأن العرب، ولا يرون لهم على العجم فضلا، وإذا صحت هذه التهمة فمن الصعب التوفيق بين مذهب من يقول بالشعوبية ومن يقول بالتشيع، على المعنى الذي فسر به بعد قرون.

وصفه الجاحظ فقال: «كان سهل سهلا في نفسه، عشيق الوجه، حسن الشارة، بعيدًا من الفدامة (العيّ) معتدل القامة، مقبول الصورة، يقضي له بالحكمة، قبل الخبرة، وبرقة الذهن، قبل المخاطبة، وبدقة المذهب، قبل الامتحان، وبالنبل، قبل التكشف (الظهور)». وكان الجاحظ مازجه وثافته. وقيل للحراني ولعله إبراهيم بن ذكوان كاتب الهادي ووزيره: بينك وبين سهل بن هارون صداقة فأنعته لنا كي نعرف، فقال: «هو كالخير، وازن العلم، واسع الحلم، إن حوديث لم يكذب، وإن موزح لم يغصب، كالغيث

أين وقع، نفع، وكالشمس حيث أولت، أحيت، وكالأرض ما حملتها حملت، وكالماء طهور للتمسه، ونافع لعله من أحرّ إليه، وكالهواء الذي تقطف منه الحياة بالتنسم؛ وكالنار التي يعيش بها المقرور، وكالسماء التي قد حسنت بأصناف النور» ا.هـ. صورتان جميلتان في وصف سهل صورهما مصوران مبدعان عاشا بقربه، وفتنهما بخلقه وخلقه. واتهموا سهل بن هارون بالبخل وأوردوا له قصصا ونوادر، وربما كان اتهامه بالبخل مبالغا فيه تراد به النكتة والنادرة ا.هـ. من محاضرة للأستاذ الباحث السيد محمد كردعلي ألقاها بالمجمع العلمي العربي بدمشق ونشرها بمجلتي المجمع والمقتطف.

(٥) الريع: النماء والزيادة.

(٦) إملاك العجين: إنعام عجنه.

(٧) اللكعاء: الحمقاء.

(٨) المزود: وعاء الزاد. والسويق: طعام يتخذ من الحنطة أو الشعير.

(٩) خصف النعل: خرزها.

(١٠) تصدير القميص: أن يجعل لصدره بطانة.

(١١) الوضيعة هنا: النقص.

(١٢) هذا مثل يضرب لمن تظن به الغفلة وهو فطن يقظ.

(١٣) النزوة: الثورة أو الوثبة.

(١٤) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول بن صول. وصول (بضم الصاد) كان رجلا تركيًا وكان ملك وأخوه فيروز على جرجان وتمجسا بعد التركية وتشبها بالفرس.

بدأ عمرو بن مسعدة في خدمة الدولة عاملا من العمال فظهرت كفايته وبلاغته، وبالبلاغة توصل إلى الخليفة فعد أحد أفراد قلائل في رجاله، قال أحمد بن يوسف الكاتب: دخلت يومًا على المأمون وبيده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى، ويصعد فيه ويصوّب، فلما مرت على ذلك مدة من زمانه التفت إليّ وقال: يا أحمد أراك مفكرًا فيما تراه مني، قلت: نعم، فقال: إن في هذا الكتاب كلامًا نظير ما سمعت الرشيد يقول في البلاغة، زعم أن البلاغة إنما هي التباعد عن الإطالة، والتقرب من معنى البغية، والدلالة بالقليل من اللفظ، على الكثير من المعنى، وما كنت أتوهم أن أحدًا يقدر على ذلك. وقال: هذا كتاب عمرو بن مسعدة إلينا، ففككته فإذا فيه: «كتابي إلى أمير المؤمنين، ومن قبلي من قواده، ورؤساء أجناده، في الانقياد والطاعة، على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم،

وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم، فاختلت لذلك أحوالهم، والتاثت معه أمورهم». فلما قرأته قال: إن استحساني إياك بعثني أن أمرت للجند قبله بأعطياتهم لسبعة أشهر، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله في صناعته. وفي رواية أن المأمون أمر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية أشهر وأنه قال لأحمد بن يوسف: لله در عمرو ما أبلغه! ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الأخبار، وإعفائه سلطانه من الإكثار.

وكان عمرو بن مسعدة وكنيته أبو الفضل أبيض أحمر الوجه، وكان المأمون يسميه الرومي لبياض وجهه وكان يخضب وتوفى بأذنه سنة سبع عشرة ومائتين. ولم يعرف منشأه ومولده وأساتيذه وغاية ما عرفناه أنه كان أحد إخوة أربعة أحسن أبوهم — وكان كاتبًا أيضًا — تربيتهم كل الإحسان حتى جاءت من أحدهم هذه البلاغة النادرة التي كان من أثرها أن أصبح عشير المأمون، وكان هو وأبو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يديه ويخلوان معه ويمازحانه. ولكي يصل الرجل إلى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة العظيم في كل شؤونه يجب أن ينطوي على صفات عالية يعز مثلها في الأقران والأتراب.

قال عمرو بن مسعدة: كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي فرفع إليه غلمانه ورقة يستزيدونه في رواتبهم فرمى بها إليَّ وقال: أجب عنها فكتبت: «قليل دائم خير من كثير منقطع» فضرب بيده على ظهري وقال: أي وزير في جلدك. وقد شهد لعمرو بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان في عصره ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه: إنه أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله فإذا رامه بعد عليه. وهذا كما قيل لأحد البلغاء: ما حد البلاغة؟ فقال: التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها، فإذا رامها استصعبت عليه.

ولم يؤثر عن عمرو أنه ألف في موضوع خاص وأفرد مسألة في التأليف، وعده ابن النديم في الشعراء الكتاب ولم يذكر إلا أن له ولأخيه مجاشع خمسين ورقة من الشعر وهي من الضائع أيضًا. والغالب أن مهام الدولة لم تترك له وقتًا يصرفه في درس خاص، أو وضع كتاب أو رسالة: وما تلقطه العلماء والأدباء من كلامه، فهو مما صدر عنه بالمناسبات، ورواه له المعجبون به، وما أعظم المفقود منه. والمظنون أن لو كانت جمعت له رسائله على إيجازها لكان منها ديوان كبير، لأن من صرف أعوامًا طويلة وهو قابض على يراعته يعالج بها الموضوعات السياسية والإدارية في ذاك المجتمع العظيم لا شك أنه تجتمع له صفحات كثيرة مهما كان مقلا معروفًا بالإيجاز. ا.هـ. من محاضرة للأستاذ الباحث محمد كرد على نشرها بمجلة المجمع العلمي العربي. وفي عمرو بن مسعدة قال محمد البيدق وقد اعتل:

قالوا أبو الفضل معتل فقلت لهم نفسي الفداء له من كل محذور
يا ليت علته بي غير أن له أجر العليل وإني غير مأجور

وتجد ترجمته في معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٨٨) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٥) والوافي بالوفيات للصفدي (ج ٥ ص ٥٠٢ قسم ثالث من الأصل الفتوغرافي المحفوظ بدار الكتب المصرية).

(١٥) في الأساس: ومن المجاز فلان طيب الطعمة وخبيث الطعمة (بالكسر) وهي الجهة التي منها يرتزق (بوزن الحرفة).

(١٦) أجزأني كذا: كفاني.

(١٧) فر عن ذكاء، وفطنة، أي جرب واختبر فيهما.

(١٨) وعض على قارحة، كناية عن بلوغه درجة الكمال.

(١٩) الدهاقين: الزعماء أرباب الأملاك بالسواد، وأحدهم دهقان (بكسر الدال معرب).

(٢٠) راجع (ج ٢ ص ٣٥ طبعة الهلال). والعقد الفريد لابن عبد ربه (ج ٢ ص ٢١١ طبعة بولاق).

(٢١) في العقد الفريد: «بين دير هرقل ودير العاقول».

(٢٢) الموضحة: الشجة التي تبدي وضح العظام.

(٢٣) هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكناني البصري صاحب التصانيف الممتعة والرسائل المبدعة. وقد تقدم الكلام عليه في المجلد الأول من هذا الكتاب (ص ٤٢١).

ولد حوالي سنة ١٦٠هـ بمدينة البصرة ونشأ بها فتناول كل فن ومارس كل علم عرف في زمانه مما وضع في الإسلام أو نقل عن الأمم الأوائل فأصبح له مشاركة في علم كل ما يقع عليه الحس أو يخطر بالبال فهو راوية. متكلم. فيلسوف. كاتب. مصنف. مترسل. شاعر. مؤرخ. عالم بالحيوان والنبات والموات. وصاف لأحوال الناس ووجوه معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم إلا أنه غلب عليه أمران: الكلام على طريقة المعتزلة فهو بذلك إمام الطائفة الجاحظية من المعتزلة والأدب الممزوج بالفلسفة والفكاهة فهو أول من ألف الكتب الجامعة لفنونه ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وغيرهما.

وكان غاية في الذكاء ودقة الحس وحسن الفراسة إلى دعابة فاشية، وقلة اعتداد بما يأخذ به الناس أنفسهم وينتحلونه من الرسوم والعادات وأنواع العصبية المذهبية وعدم مبالاة بوقوع المتورعين فيه. وكان سمحًا جوادًا كثير المواساة لإخوانه وكان على دمامة خلقه وتناقض خلقه خفيف الروح، فكه المجلس، غاية في الظرف وطيب الفكاهة وحلاوة الكلام وهو على الجملة أحد أفذاذ العالم وأحد حجج اللسان العربي. توفى سنة ٢٥٥هـ ببغداد بمقبرة الخيزران. وتجد ترجمته في معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٥٦–٨٠) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٣).

(٢٤) في الأصل: «المخلص».

(٢٥) قال في شرح القاموس: كل ما في العرب من هذا الاسم «فرافصة» فهو بضم الفاء إلا فرافصة أبا نائلة فهو بالفتح لا غير.

(٢٦) أطنوا: قطعوا.

(٢٧) حض بعضهم بعضًا عليه متهددين.

(٢٨) الزابوقة: موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجمل أول النهار.

(٢٩) نسبه الله إلى الجور.

(٣٠) يشير بذلك إلى ما ورد عن الحجاج أنه قال في كلام له: ويحكم أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله إليهم، يريد بذلك تفضيل مقام الخلافة على مقام الرسالة وبمثل هذا رمى الحجاج بالكفر وقد عقد ابن عبد ربه في العقد الفريد فصلا فيمن زعم أن الحجاج كان كافرًا راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣.

(٣١) في الأصل: «حسن» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه كما في شرح القاموس والطبري.

(٣٢) كذا في الأصل، ولعله: وصاروا شركاء الخ.

(٣٣) معان بفتح الميم والعين: المباءة والمنزل.

(٣٤) أي على سفر.

(٣٥) اعتمدنا في تصحيح هذه الفصول على الأصل الفوتوغرافي المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٨٥ آداب، لأن النسخة المطبوعة من كتاب الحيوان بمطبعة السعادة بمصر في غاية التحريف وملأى بالأخطاء.

(٣٦) البَدَدَة جمع بد، وهو بيت فيه الصنم أو الصنم نفسه كما قال ابن دريد.

(٣٧) التثمير والترقيح: نمو المال وإصلاحه.

(٣٨) الأفيل: صغر الإبل.

(٣٩) والصواب أن البيتين لطرفه وهما من جملة أبيات في ديوانه.

(٤٠) الغُمْر مثلثة الغين: من لم يجرب الأمور، والجاهل الأبله.

(٤١) أجرينا: قصدنا.

(٤٢) الطلى: الأعناق.

(٤٣) العريض: الذي يتعرض للناس بالشر.

(٤٤) كذا في الأصل، وفي اللسان في مادة لجج: تضاحكت حتى يثلج ويستشرى.

(٤٥) في اللسان مادة «فقأ» «المعنى».

(٤٦) كذا في الأصل وفي اللسان «المحتبي» بالحاء المهملة.

(٤٧) السواف: مرض الإبل.

(٤٨) الرعلاء: التي تشق أذنها وتترك مدلاة لكرمها.

(٤٩) كذا في الأصل وفي اللسان مادة عتر «وظلما».

(٥٠) في اللسان: «غضبت».

(٥١) في الأصل «وإن» والتصويب عن اللسان.

(٥٢) الثفر: السير الذي في مؤخر السرج.

(٥٣) وروى: تائه.

(٥٤) كذا في الأصل، ولعلها: «بنبطي».

(٥٥) في الأصل: «تميرة» وهو خطأ صوابه ما أثبتناه عن الشعر والشعراء لابن قتيبة.

(٥٦) النؤور: شيء كان يعمل في الجاهلية مثل الخضرة اليوم.

(٥٧) الكرابيس جمع كرباس: ثوب من القطن الأبيض وقيل: الثوب الخشن، فارسي معرب.

(٥٨) كذا في الأصل، ولعلها زائدة.

(٥٩) الفرشة: الهيئة.

(٦٠) المهارق جمع مهراق، وهو ثوب حرير أبيض يسقى بالصمغ ويصقل ثم يكتب فيه، فارسي معرب.

(٦١) الطومار: الصحيفة.

(٦٢) السمع بكسر السين وإسكان الميم وبالعين المهملة: ولد الذئب من الضبع وهو سبع مركب فيه شدة الضبع وقوتها وجراءة الذئب وخفته (راجع حياة الحيوان للدميري ج ٢ ص ٣٢).

(٦٣) العسبار بكسر العين وبالسين الساكنة والأنثى عسبارة: ولد الضبع من الذئب وجمعه عسابر (راجع حياة الحيوان للدميري ج ٢ ص ١٣٩).

(٦٤) الخلاسي: الولد بين أبوين أبيض وأسود، والديك بين دجاجتين هندية وفارسية.

(٦٥) الورداني بالراء المهملة: طائر متولد بين الورشان والحمام وله غرابة لون وظرافة قدّ.

باب الرسائل

(١) الفصول المنتخبة من الرسائل المختارة في كل فن[١]

كتب رجل إلى صديق له:

> إن آباءك شادوا أكارمهم بالفضائل التي كانت فيهم، وإنك قد كنت أخذت في مدرجتهم فأوفيت على غايتهم، ثم اختلجك الهوى ببعض جديلتك[٢] وجودك، من لباس فضلك الذي كنت تطول به على أكفائك، وتملك به أعنة كافة جندك، وألقيت مالك على شر عواقبه عليك لا لك إن زلت مكاره بوادره عنك.

فصل: قيل إن مروءة الرجل في نفسه نسب لقوم آخرين، فإنه إذا فعل الخير عرف له، وبقي في الأعقاب والأصحاب، ولقيه يوم الحساب.

فصل: إن حق الله على المسلمين أن ينظروا في دينهم بالنصيحة لأئمتهم، فإن الأئمة إذا صلحوا بدل الهوى بالتقوى في قلوبهم، وماتت سورة الغضب فيهم لأحلامهم، وسكنت العامة إلى عدلهم وذلت لإنصافهم. وإذا كان للمحسن من الحق ما يقنعه، وللظالم من النكير ما يقمعه، بذل المحسن الحق عليه رغبة، وذل المسيء بالحق عليه رهبة. فأول ما آمرك به رجاء الله وتقواه. فأما رجاؤه فأن تحسن به في الصنع إذا اطلعته، ويكون لك وقاية إذا آثرته مطمئنًا. وأما تقواه فأن تكون له فيما أمرك به ونهاك عنه مراقبًا؛ فإن تقية المؤمن تزيد في انشراح صدره، وإن شدة خوفه ترد هواه على عقله.

فصل: تنبه إذا نبهت، واذكر إذا ذكرت، وانتفع فقد وعظت، واسمع فقد نوديت، نبهك الوعيد، وحذرك الزاجر، وأمرك ونهاك الكتاب، ونعتك آثار الموت، ودعاك إلى الجنة مليء جواد، فالجد الجد، فقبل المهجرة يريح المدلج.

فصل: ما نظرت في معروفي عند أحد، فوجدته قصر عن أمله وكان يمكنني أن يكون أكثر منه، إلا عددته سيئة لي عنده، لأني ذوقته ما أحب، ثم منعته إياه، وكأني قصدت لأشخاص قلبه. ولا نظرت في معروفي عند أحد فوجدته قد تناهى عند تناهي أمله وكان يمكنني أن يكون أكثر منه، إلا رأيتني في ذلك واترًا لنفسي، لأنه كفى عيبًا لها وإزراء بها، أن أقنع (...)[٣] فضل نتخذه بمثل ما أقنع رجلا من فضل يتخذه عليه.

فصل: ما أنت ممن يعلم من جهل به، ولا تحس منه بادرة زلة، ولا يقابل بين أمرين إلا عرف خيرهما فآثره، وشرهما فاجتنبه. وقد رأيت ما ساقت إليك الطاعة من حظ العاجلة، فلا تتعرض لزوال ما أنت فيه، فتخسر الحظين، وتندم في الدارين؛ فقد رأيت من عاند الحق كيف صرعه الله وبسط يد وليه على سفك دمه، وإحلال النقمة به، فصار بعد أن كان في الأمنية مثلا، ولجميع الخلق غاية وأملا، فكرة في الاعتبار، وعظة للأبصار. فلا يبعد الله إلا من ظلم وختر، وذهب عن الحق وأدبر. وأنت اليوم محكم في أمرك، مخير في رأيك، تدعى إلى حظك بالحظ الجزيل بتدلل. فاهتبل ما قد هدف لك وهو ممكن ليدك، فإنك إن أهملت وتراخيت، لم يكن بالحق ووليه وحشة إليك، ومضت أحكام الله في نصرها وتأييدها على أذلالها،[٤] وصفرت يدك بما لا يشرف لك بمثله، وأخطرت بدمك وأسلته أخبث مسيل وأضل سبيل، حيث لا تبكي عليك السماء والأرض.

فصل: الناس رجلان: عالم لا غنى به عن الازدياد، وجاهل به أعظم الحاجة إلى التعلم، وليس في كل حال يكون العالم لما يبدهه من الأمور معدا، ولا المتعلم على ما يستفيد منه قادرًا وفيًا.

فصل: إن أنت عطلتنا من أمورك، وأعفيت ظهورنا من أثقالك ومؤونتك، وتركتنا أغفالا في ولايتك من تنبيهك وتحريكك، فقد أنزلتنا منزلة من لا خير عنده، وجعلت نفسك أسوة من لا معين له، وكفى بذلك ظلمًا.

فصل: إن إعلامي إياك (...)[٥] غير محدد شيئًا، ولكنه أقرب من الجميل في معرفة عذر المعتذر، وأحمل للائمة على المسيء المقصر.

فصل: الذي اعتمدنا عليه من رأيك، ونثق به من جميل نظرك، قد خلطني بأهل صنائعك، والخاصة من ثقاتك، وبسط أملي فيك إلى غاية خير يرتجى، أو جزيل حظ يؤمل.

فصل: ليس يسوغ لأحد في الأمير أمل، ولا يتوجه إليه منه رغبة، ولا يلزمه في قضاء حقه، ودنانة[٦] مؤونته إلا وفضله مستغرق لها.

فصل: من أحمد الأمور وأجمل المذاهب، ما كان آخره موصولا بأوله، ومؤديًا بدؤه إلى حمد عاقبته؛ فحافظ على الأمور التي حسن فيها عند أمير المؤمنين أثرك، مستقلا فيها لكثير ما يكون منك، معتدًا بها في النعم عندك، والإحسان الواصل إليك، فيما يوفقك الله له منها ويخصك به من الفضل في اختيارها، وأمير المؤمنين يستحفظه الله لك، ويستمتعه في النعمة فيك.

فصل: قد كان يجب أن تجعلنا بمتابعة النعم علينا في خاصة الشاكرين لفضلك، ولا تجعلنا بتواتر الإساءات إلينا في عامة الشاكين لك.

فصل: علمي بما بنى الله عليه أخلاق الأمير أكرمه الله، وجعل عليه رأيه في بسط العدل على رعيته، وبث الفضل على ملتمسي فضله، يبعثني على الكتاب في مثل ما كتبت إليه فيه، من ظلامة مظلوم يستعيذ فيها بعدله، وحاجة ملهوف يرجع فيها إلى فضله؛ فأجمع إلى ما ألتمس من الثواب في ذلك موافقة رأي الأمير، وإذكاره ما يجب أن يذكر به؛ فزاد الله الأمير من نعمه، وأوزعه من الشكر عليها ما يوجب له تتابعها عنده، وترادفها له.

فصل: أنت والحمد لله ممن احتمل الصنيعة، وقبل الأدب، وصدق المخيلة وخلص على المحنة وحسن الظن؛ فاستقامت طريقته وقدمه جميل مذهبه وآثاره، وجرت على قصد السبيل طاعته، واشتدت على السريرة والعلانية مناصحته؛ فأصبح أمير المؤمنين لا يتناهي في برك وتكرمتك، إلا رآك مستحقًا لها ولما فوقها، ولا يرفعك إلى درجة إلا رآك أهلا لأشرف منها، صنعًا من الله لك بما وفقك له من طاعته، ووهب لك من جميل مراتبه، والمكان منه والأثرة عنده.

فصل: فضل مشاركتنا إياك في محبوب الأمور ومكروهها يحملنا في السرور بالنعمة عندك — فجددها الله لك — ويوجب الشكر بما يكون لحقها قاضيًا، وللمزيد فيها موجبًا.

فصل لسعيد بن حميد: شغلك يقطعنا عن مطالبتك بالحق في جوابات كتبنا إليك، وصدق مودتنا لك يمنعنا من التقصي في الحجة عليك، ومن يكلك إلى رأيك فإنه لا يفي بك إلا لك، صلة إخوانك والتعاهد لهم من برك، بما يشبه فضلك والنعمة عليهم فيك.

وفلان بيني وبينه مودة أقدمه بها على الأخوة؛ لأنك تعلم قرب ما بين المودة والقرابة، وقد بلوته على الحالات كلها، فلم يزدني اختباره إلا اختيارًا له؛ ولا أعلم بالعسكر جليلا إلا وهو لي صديق، يشكر بشكره ويوجب على نفسه المنة فيما آتى إليه؛ فأما من بين

إخوانه فلست أعدل من قضاء حقه، ولا أتأخر عن معروف أسدي إليه؛ فإن رأيت أن تحله بالمحل الذي يستحقه بنفسه وسلفه، فوالله ما رأيت سوق الأحرار أنفق منها عندكم أهل البيت؛ أبقى الله تبارك وتعالى باقيكم ورحم ماضيكم.

فصل: إن أحدًا ليس بمستخلص شيئًا من غضارة عيش إلا من بين خلال مكاره، فمن انتظر بعاجل الدرك آجل الاستقصاء سلبته الأيام فرصته، لأن من صناعتها السلب، ومن شرط الزمان الإفاتة.

فصل: إن الأمير قد جل فضله عن أن يحيط به وصف، أو يأتي على تعداده اجتهاد، فلو كان شيء أكثر من الشكر لكان الأمير يستحقه علينا، ويستوجبه منا.

فصل: قد أصبح المختلفون مجتمعين على تقريظه ومدحه، حتى إن العدو يقول اضطرارًا ما يقوله الولي اختيارا؛ والبعيد يثق من إنعامه علينا بما يثق به القريب خاصًا.

فصل: المائلون إليه بين نعم مكتنفة من تالد به يستديمونه، وطارف منه يستعيدونه، ومواهب متجددة، وفوائد مترادفة؛ هي مبسوطة به إلى بركة أيامه، وعلو حظ[٧] من اتصل به، فزاده الله من فضله، وزاد أولياءه به وببركة دولته.

فصل: اعتمدت أخا لا يذم إخاؤه، ولا تنكر أحواله، على بعد الدار وقربها، واتصال المكاتبة وانقطاعها؛ تجده متصرفًا معك في الخطوب التي يطرق بها الزمان، ويدًا لك في الأمور التي يمتحن فيها الإخوان.

فصل: أسأل الله أن يجعل ما تطول به فيه من الجلالة في القلوب والعيون عند الولي والعدو موصولا بالإنساء في مدته، والإدامة لعزه وسلامته، والأعلاء ليده وكلمته.

فصل لأحمد بن يوسف: عندي فلان وفلان، فإن كنا من شأنك فقد آذناك.

في صفة حرب: كانت لكم الكرة، وعليهم الدبرة؛ فحملوا حملة كاذبة، أتبعناها بأخرى صادقة.

فصل في هدية: قد أهديت إليك من فنون كلامي وعيون مقالي، دفترًا ظريف المعاني، شريف المباني، صحيح الألفاظ؛ يلذ بأفواه الناطقين، ويلين على أسماع الصامتين.

فصل في شفاعة: لفلان قبلك حاجة، ليس يحتاج فيها إلى معدلتك ونصفتك المبسوطتين لمن لا يتوسل بخلطتك ومعرفتك، ولكنه يريد ما في ذلك العدل والإنصاف من الرفق والإحسان المذخورين للخاصة والإخوان.

فصل لرجل تميمي: ضعف حالي يدعوني إلى كثرة الطلب، ومعرفتي بجميل رأيك تحجزني عن الإلحاح عليك، خوفًا أن أكون جاهلا بعنايتك، وحسن نظرك، والكرم

يستحيى بعضه لبعض، ويبعث بعضه بعضًا، ودين حيلته الغير على العقود، فبعثه كرمه للنهوض، أو دعاه هواه إلى المنع، فجاءه عقله على البذل؛ وحالي جانحة لدى فضلك ونعمة الله عليك من سد خلتها، ومداواة علتها بجاهك الواسع، ورفدك النافع.

فصل لأحمد بن يوسف: قد بذلت لنا من نفسك أعز مبذول وأنفسه، والمودة التي كلما يحمد من صاحبها، فهو لها نافع. وثقتنا بك واستنامتنا إلى ناحيتك، على أحسن ما أكد الله بيننا وبينك. وإن كان مدى اللقاء بيننا لم يطل فأثل منه ما يرعاه أهل الوفاء والمخالصة، ويقصر في المحافظة عليه وعلى أكثر منه، من دخلت نيته، وضعفت خلته.

فصل: قد أصبحت للخاصة عدة، وللعامة عصمة، وللأنام ثقة في مناصحتك.

فصل في الصفح لأبي علي: إن الذي فرط منك، وإن تجاوز مني ما أرضاه لك، لم يبلغ ما يغضبني عليك؛ وحيث انتهى ما يخالفني من قولك وفعلك، فإن وراءه تغمدًا مني لإساءتك وصفحًا عن زلتك؛ فإن تأمنا لا نخنك، وإن يسوء ظنك فإنما نحتاج إلى إصلاحه منك.

فصل لأحمد بن يوسف: إلى إبراهيم بن المهدي في هدية استقلها:

بلغني استقلالك لما ألطفتك، والذي نحن عليه من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك في البر، فأهدينا هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتنم.

كتب عقال بن شبة: إلى خالد بن عبد الله في شفاعة:

إن الله انتجبك من جوهرة كرم ومنبت شرف، وقسم لك خطرًا شهرته العرب وتحدثت به الحاضرة والبادية، وأعان خطرك بقدرة مبسوطة، ومنزلة ملحوظة؛ فجميع أكفائك من جماهير العرب، يعرف فضلك، ويسره ما خار الله لك، وليس كلهم أداله الزمان ولا ساعده الحظ؛ وأنت أحق من تعطف على أهل البيوتات، وعاد لهم بما يبقى له ذكره ويحسن به نشره، مثلك. وقد وجهت إليك فلانًا، وهو من دنية قرابتي، وذوى الهيئة من أسرتي، وعرف معروفك؛ وأحببت أن تلبسه نعمتك وتصرفه إلي وقد أودعتني وإياه ما تجده باقيًا على النشر، جميلا في الغب.

فصل في التوديع: استودع الله الأمير بأحسن وداعه، وأسأله أن يجعله في كنفه وحرزه، فقد أكرم المثوى، وأحسن الابتغاء؛ فأطال الله له البقاء، وأدام عليه النعماء.

في الصفح: بلغني كتابك، تذكر كتابي إليك بوضعي عنك موجدتي، وردي لك إلى أحسن ما عهدت من منزلتك عندي؛ وقد حللت منا المحل الذي خلطناك فيه بأنفسنا، وأدخلناك منه مداخل أهل ثقتنا؛ ولست تؤتى من جهالة بما أنت فيه، ولبعض ما أنت عليه من التجارب تستفاد بمثلها العبر، وينتفع بها في عطف الأمور.

جواب في فتح: كتب سالم بن هشام إلى يوسف بن عمر حين قتل زيد بن علي رحمة الله عليه:

> قد بلغ أمير المؤمنين كتابك بما أبلى الله في مدره السوء، وأنه لما عضتهم الحرب، وآلمهم الحديد، عادوا بالمسجد الجامع، قد أكذب الله ظنونهم، وخذل مخرجهم، وقتل إمام ضلالتهم؛ وحفظ لأمير المؤمنين ما ضيعوا من حقه، وحاط له ما أباحوا من الغدر فيه؛ وقد رأى أمير المؤمنين أن يجعل من شكر الله على نعمه، الصفح عنهم، وتغمد حرمهم وأن يعمهم من عدله، بما يرد به الجاهل عن جهله، والغوى عن غوايته؛ ويعلمون مكانه من الله، واستجابته لعزه ونصره؛ وأنه الخليفة المتقى، والإمام المتألف؛ وأنه يقدم العفو في الطاعة، على الحجة في العقوبة، والحسبة في الاستصلاح، على القوة في التأييد؛ فأمسك عنهم بيدك؛ فإن أمير المؤمنين قد وهب ذلك كله لله، ورجا به ما ليس ضائعًا عنده من ثوابه.

في الصفح عن الجفاء: لو كان من نازع إلى الغدر، قلدناه عنان الهجر، لم يكن أقرب منا إلى الذنب، ونحن نرد عليك من نفسك، ونأخذ لنفسك منك، حتى يكون تركنا إياك، وعذرنا فيه وافرًا.

فصل: الحمد لله على البلية التي طال أمدها، وبعد ما بين طرفيها.

آخر: اقتفرت في التثبت أناة ذوي الحجى، وقدمت المقدم من الأناة على العجلة، وأطعت في أمرك النظرة، وانتهيت إلى العذرة والمعرفة، فملكت ما ملكك، وحكمت على الذي حكم عليك، فأخذت مثل الذي أعطيت.

فصل: بدء أسباب الأمور دليل على عواقب الأمل فيها، والخيرة بعد الله عز وجل.

فصل اعتذار: لو كان الناس يقضون الحقوق التي تجب عليهم، ويحافظون على الأمور التي تلزمهم، لقلت اللائمة، وخلصت المودة، وارتفعت أسباب العتاب؛ ولكنهم عجزة منقوصون، يضعفون عن العلم، بأكثر ما تدركه عقولهم، وتعوقهم عن ذلك

أشغال لا يجب بها العذر، ولا تستحق الإيثار؛ ولم أزل عاتبًا على نفسي فيما ضيعت من مكاتبتك، مع معرفتي بفضلك، وموقع ذلك عندك، وما اعتذاري إليك، سوء ظن بك، ولا مخافة للائمتك؛ ولئن فعلت ما ظلمت؛ غير أني أحببت أن أكفيك المؤونة، فيما عسيت أن تنقبض عنه من مقايستي ومعاتبتي؛ وأنا أحب أن تقبل العذر، وتعين على مستقبل البر.

فصل: أنت في زمان إن لم تغالط أهله، وتختلهم على ما في أيديهم، وتصبر على مكاره الأمور بعد المطالبة، لم تصل إلى شيء، ولم تجد أحدًا ما على فضل منك وإن عرفه فيك، ولم يفته من محاسنك شيء، إلا رأى في مساوئ غيرك عوضًا منه؛ فكان بذلك أثلج، وإليه أسكن؛ فعليك بالصبر، فإن غايته إلى خير، وأقل ما فيه أن صاحبه لا يلوم نفسه، ولا يلومه أحد، ولعله يظفر أو يدلل.

إلى المأمون من عامل: قل من يسارع إلى بذل الحق من نفسه، إذا كان الحق مضرًا به، وقل من يدع الاستعانة بالباطل، إذا كان فيه صلاح معاشه، وسبب مكتسبه؛ وإذا تفرق الحق في أيدي جماعة فطولبت به، تشابهت في الكره لبذله، وتعاونت على دفعه ومنعه، بالحيل وبالشبه قولا وفعلا؛ واحتاج المبتلى باستخراج ذلك الحق من أيديها، إلى استعمال مجاهدتها ومصابرتها على الحيلة في مدافعتها.

ابن الكلبي: كان خبر ما أبلاك الله في فلان بعد أمانه ما عزمت عليه من الأمان، خبرا عظم مكانه من أمير المؤمنين، وحسن موقعه من الدين؛ ثم ردف خبرك بإذعانه عند ما عضه من بأسك، ومسه من مؤلم إيقاعك للاستسلام، وطلب عقد الأمان؛ وإنك بذلت له ما طلب لا لرهبة بقيت في ناحيتك، إلا الاحتذاء على مثال أمير المؤمنين وأدبه؛ فكان إباؤه ما عرضت عليه في أول أمره ذخيرة حظ فيما كشفت عنه البلوى من محمود أثرك، واجتمع لك في ذلك حظان: الظفر آخرا، والدرك لما حاولته أولا، فلا زلت على نصيبك من الحظ، مؤيدًا بالنصر والمعونة، والحمد لله على ما حقق من الظن (...)[٨] من هذه النعمة على يديك وبسعيك.

إبراهيم بن إسماعيل بن داود إلى ذي الرياستين: وصل إلى كتابك بخط يدك المباركة، فلم أر قليلا أجمع، ولا إيجازًا أكفأ من إطناب، ولا اختصار أبلغ في معرفة وفهم منه؛ وما رأيت كتابًا على وجازته، أحاط بما أحاط، وضربت ظني في فلان فعظم ذلك سروري، وقد يستعطف الظالم، ويستعتب المتجنى؛ وفي رفقك وعلمك بالأمور ما يصلح الفاسد، ويذلل الصعب، ويقبل المدبر؛ ولا يمنعنك جور من جار عليك، من الاعتقاد في الحجة عليه، والأخذ بالثقة في أمره، فإن الله عز وجل لم يجعل عليك في ذلك منقصة

ولا غضاضة، بل فيه الإعذار والإنذار والاستبصار، وقضاء حاجة النفس، مع التأدية إلى السلامة، والأمن من الندامة.

فصل: أنا في حال عافية، تتجاوز إلى حال نعمة، والحمد لله حتى يرضى، فقد أرضى؛ فأما ما أشرت به، وخبرت من إمضاء رأيك فيه، والإمساك عنه، فمثلك جعل لمن نصحه شركاء في كل أمره، ولم يجعل رأيه فرضًا لبعضه أن يتعدى،[٩] وذكرت أدب فلانة، وعندنا لفلانة الطمع المستقبل مع الإنعام المتقدم، مع أنه لا شيء لها عندنا قل ولا جل، ولو كان ما استحللنا حبسه صفقة كف، ولا تغميض طرف؛ وذكرت أنه لا يستغني مثلنا عن مثلها، وأبدال الله كثيرة عتيدة، وما بان علينا فقد أحد ممن كان قبلها في دارنا، فحال بيننا وبينه حائل، ولا اختللنا له مع نظر الله تبارك وتعالى وأخلافه؛ وبعد هذا فأحسن الله جزاءك، وحاط لي فيك ما أحب منك، وكفاك المهم وكفانيه بك، فما تقوم نفس لو كانت لي أخرى مقامك في نصيحتي وبري، والاهتمام لي، بما أنا عنه ساهية لاهية من أمرى، لا أعدمنيك الله ولا النصيحة منك.

فصل: قال أبو جعفر الكرماني للحسن بن سهل ووعده شيئًا فأبطأ عليه: أنا أعرف تكامل الثقة فيك، ورجاحة الفضل بك؛ وأعلم أن فعلك يربى على قولك، وأن إنجازك أكثر من وعدك؛ فقدم لي من كرمك، ما أثمره إلى أن[٤] يلحقه المتأخر عنه، وإلا فدلني على ما أقول إذا سألني من بعثته على شكرك، عما بلغه من الحظ على نيتك. فقال الحسن: تقول ما ينبغي، فقال: فافعل ما ينبغي أقله.

فصل لعمرو بن مسعدة: وصل إلي كتابك، على ظمأ مني إليه، وتطلع شديد، وبعد عهد بعيد، ولوم مني على ما مسستني به، من جفائك، على كثرة ما تابعت من الكتب، وعدمت من الجواب، فكان أول ما سبق إليّ من كتابك السرور بالنظر إليه أنسا بما تجدد لي من رأيك، في المواصلة بالمكاتبة، ثم تضاعف المسرة، بخبر السلامة، وعلم الحال في الهيئة؛ ورأيتك بما تظاهرت من الاحتجاج، في ترك الكتاب، سالكًا سبيل التخلص مما أنا مخلصك منه، بالإغضاء عن إلزامك الحجة، في ترك الابتداء والإجابة؛ وذكرت شغلك بوجوه من الأشغال كثيرة متظاهرة ممكنة، لا أجشمك متابعة الكتب، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب؛ ويقنعني منك في كل شهر كتاب، ولن [تلزم][١٠] من نفسك في البر قليلا، إلا ألزمت نفسي عنه كثيرًا، وإن كنت لا أستكثر شيئًا منك؛ أدام الله مودتك وثبت إخاءك، واستماح لي منك؛ فرأيت في متابعة الكتب ومحادثتي فيها بخبرك موفقا إن شاء الله.

فصل لعيسى بن واضح إلى الفضل بن الربيع: قد أكد الله من حرمتي بك، ووصل من الشعب بيني وبينك ما جعله ذخيرة ليوم الحاجة، وعدة عند ملم النازلة.

فصل لجبل بن يزيد: أما بعد فإن من صحب الدنيا لم يخل من تصرف أحوالها، وكثرة معاريض فجائعها، في اختزام الأنفس في خواصها، ومواقع البلايا بين ذلك فيما يهدها، ويفر من الأشياء عليها؛ وكان ذلك لا سبيل إلى دفعه، ولا حيلة يستعان بها عند نزوله، إلا الرضا عن الله عز وجل فيما قضى، والتسليم لأمره في كل ما أتى، والسكون إلى الأسوة التي نهج الله سبلها، وخفف بها مواقع المصيبات على أهلها؛ ثم الرجاء بعد ذلك لحسن ثواب الله، [وقد] جعله الله لمن لزم أمره وأجشم نفسه مكروهها في مواطن الصبر على المصيبة، والشكر في حال العافية.

وله في المطر: قد كنت كتبت إلى أمير المؤمنين أعلمه المطرة التي أصابتنا، وما أنزل الله بها من رحمته ثم عادت لنا بعدها من الله عائدة رحمة، بولى مطر أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر وابلا جودا، لا يفتر غزيره ولا يرعوي جوده، إلا إلى ديمة عن ديمة، يتراخى إليها يسيرًا ريثما تعود، فأقامت علينا سماؤه مستهلة بذلك وكذلك إلى غروب الشمس؛ ثم انقطع مطرها بسكون من الريح، وفتور من القر، وفضل من الله عظيم، ينشر به رحمته، ويبسط به رزقه، فأسبغ النعمة، وأوسع البركة، وأوبق بحمد الله معارف الخصب والحمى. والله محمود على آلائه ومشكور على بلائه، وما أنزل الله من سقياه ورحمته، بعد الذي أقبلت به السنة البرية والقحط وعدم الإمطار، وشدة ما بلغ الناس من القنوط وسوء الظنون.

وله إلى بعض إخوانه: أما بعد، فإن أعظم الأمور فيما بين الناس حقًا أمران: منهما الإخاء في الدين، فهو سبب وصية الله بين عباده بالألفة والمحبة التي انقطعت بها قرائن القلوب من بعضهم إلى بعض، فاتصلت بحبائلهم مرائر حبلها، وتقطعت فيما بينهم عاطفات وصلها؛ ومنهما مجاملة جميل الأعداء، وحفظ ما يحق لأهل حسن البلاء؛ ثم الصنائع بعد ذلك في مواقعها فضائل بقدر ما جرت به أسبابها ولطفت مداخلها.

فصل: الصناعة ليست يزيدها الأخلاق الجميلة، ويزيد في أسبابها أواصر المودة؛ وقد جعلك الله في صناعتك مقدما، وفي مودتك متفضلا؛ فلا زالت عنك نعم الله، ولا برحت سكنًا لإخوانك، وأنسا وموضعًا لما تستميحون من معروفك، ويستميرون من يدبرك.

فصل: إن لك من قلبي لموضعًا معمورًا بالمودة والثقة، والاسترسال والأَنَسة، فلا تخرج فلانًا من سعة جميل برك، إلى عقبى استحقاقه.

آخر: قد طالت الصبابة إليك، وللدهر عقب عائدة بالنفع والصنع، ولا سيما لمن كان على مثل شاكلتك في أدبك وفضلك وإنصافك إخوانك وبرك بهم، وما توجبه على نفسك لهم مما يقصرون عن شأوك فيه.

فصل لالكلبي: كان أسلافنا تقارضوا ديونًا من الصفاء يستأديها كل عقب من صاحبه؛ وقد أورثونا مودة لا نعجز عن اكتساب مثلها.

فصل لابن أعين كاتب الخيزران: ليس يكون منك شيء وإن حسن، إلا وحسن ظني بك يبلغه، فاستتم أحسن ما كان منك، يتم لك أحسن ما تحب مني. ولا يمنعنك الاكتفاء بحالك اليوم من طلب الزيادة في غد؛ فأنه لقل شيء لا يزيد إلا نقص، والزمان يمحق الكثير، كما يربو على الزيادة القليل.

فصل لابن الكلبي: أنت من أطول بمكانه وأثق بجميل رأيه، وأعتمد على رفده، وأرجو درك كل فضيلة به؛ ومما أحب علمه مقر نعم الله عز وجل لديك.

فصل لعلي بن عبيدة إلى ابن الكلبي: وصل الله أيام عمري باتباع موافقتك؛ ولولا موعد أخذ علي، لأطعتك فيما أمرت به، متبعًا مع إجابتك سرور نفسي برؤيتك في السلامة.

أما بعد، فإني أصبحت وقد استفرغ الأمير مني كل مودة ونصيحة، ومبلغ جهد وطاقة فيما عرفت له فيه موافقة.

فصل: فإن الذي شعب الله بيننا من التواصل والتكاتب، يدعوني إلى متابعة الكتب إليك في تعهد حقك، وإن كان الخبر عن ظاهر الحال قلما يغني، فإن له من الأنس والموقع في الكتب ما ليس لمستعرضات الأخبار.

فصل: قد كنت أعلمت الأمير انقطاع بني فلان إلى فلان، بأهوائهم وبصائرهم وشراء[11] ما قبله بغيره، وما كان وصل إلينا في ذلك من الأمور التي حملوا إصرها، وبقي لنا أجرها وذكرها ونافلتها وسابقتها؛ فنحن عدد الأمير وخباياه وذخائره، ومن يأمل يومه وغده، ولا متخطى له عنه ولا مقتصر دونه.

فصل لعمارة: بلغني كتابك يصف كذا. فإن رأيت ألا تعتمد على ما لصقت [به] من عذرك، وأطعت فيه الهوى من قبول عفوك، وتجعلني أحد من يسر بسرورك، وتشركه في مهمات أمورك، فإني أحدهم وأوسطهم عناية بما عناك وتوسطا لما عراك، فعلت.

فصل: والدنو من دارك إذ الدار جامعة والحبل متصل، إذ نحن في الاستيفاء بالخبر والعلم بدخلة الحال، بمنزلة من كأنه يعاني من يشتاق إليه ويصبو به في كل يوم، حتى نأت النوى، وأنت في اللقاء والإنظار في كل أمر وعلى كل حال من لا يشك في صفاء غيبه، وصدق إخائه.

فصل: مشاركتنا إياك في محبوب الأمور ومكروهها يحلنا محلك في السرور بالنعمة يجددها الله لك، ويوجب من الشكر علينا[١٢] مثل الذي يوجب عليك. فوصل الله كل نعمة يهبها لك من الشكر بما يكون لحقها قاضيًا، وللمزيد فيها موجبًا.

فصل لسعيد بن عبد الملك: كتبت على شغل في قطع من القرطاس، ولم يقطع بي حسن الظن بك في قبولك العذر، وتحسينك ما أنت أهل لتحسينه؛ فإنك تقبل دون حقك، وتهب الذنب فيه، فيكون شكرك جاريًا على سبيلين، كلاهما يبين لك عن فضلك، ويوجب لك ما لا يقصر معه إلا مغبون الحظ خسيس النصيب.

فصل: وقد ظهر من أمير المؤمنين في فلان بعد وفاته، ما هو أعدل شاهد على حسن منقلبه، ورد إليك من رأيه وتفقده ما أرجو أن يكون فيه أعظم العوض. والله أسأل أن يتولى لك أمورك في السراء والضراء، والشدة والرخاء، والشكر وحسن العزاء.

فصل لجبل بن يزيد إلى بعض إخوانه: تمم الله علينا وعليك النعم، وأجزل لنا[١٣] ولك محاسن صالح القسم. إن الله تبارك وتعالى أجرى بيننا وبينك لطيف مودة، وخاص أخوة، غير أن المعرفة قد تحمد بعد الخبرة، والثقة إنما تعرف بعد التجربة، وقد أحببت أن يعلم من قبلك[١٤] الذي أحدث الله لك من حال دولتك، وأن يعلم هل أبقت لنا منك النعمة سعة، أم تركت لنا منك صفحة نعرف بها عهدك ونأمل بها وصلك؟ فإن أصحاب السلطان، بحال بلوى في التغير والانتقال، إلا من نالته من الله تبارك وتعالى عصمة. فإن كنت على ما رجونا من الوفاء، وحسن الحفظ للمودة والإخاء، فمثلك لم يرض لنفسه إلا بأجمل الأخلاق وأوفقها للسداد. وإن حجزك عن ذلك ما تأتي به الأقدار في متصرف الليل والنهار، نعذرك بما نعذر به أهل السلطان، إذا غيرتهم الحال، وتنكرت شمائلهم بين الإخوان.

وله إلى بعض إخوانه أيضًا: اعلم أني إليك مشوق، وأن صلة الإخوان كرم، وخير الصلات ما لم يكن لها وجه إلا الرجاء والحفظ وتجديد المودة وتصحيح الإخاء؛ فإن الذي يكاتب إخوانه على حال الرغبة يكفي القائل كتابه حيث شاء، إن أحب مال به إلى الصحة، وإن شاء وضعه للرغبة، والرغبة أملكهما[١٥] به. والذي يكاتب إخوانه على حال الضرورة، فقد يستقطع الصلة عند الحدث مخافة الملامة[١٦] من الناس على القطيعة الشنعاء المشهورة لإخوانه؛ فإن الذي لا مودة له قد يصل ذلك في تلك القطيعة بأهل البلاء.

والكتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهد على أن ذلك ليس إلا صحة الإخاء والشوق إلى المحادثة بالكتاب، حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمة على

التقصير، ولا يوضع منك الرغبة في الإطماع. إياك أن تعتل بالأشغال أن كنت في خاصة نفسك، فإن أداء الحق وصلة الإخوان أعظم الخاصة بك خاصة. وإنما أمرنا في كل هذا كأمرك في الذي يستغنى من خاصتك تلك التي لنا، فإن لنا ما لك، وهذه التي لنا لك؛ أليس ما سرنا سرك وما سلبناه حظا لك، فهذه كذلك وذلك كهذي. والله يوفقنا وإياك. وأنت أبا يوسف. هكذا حال ما بيننا وبينك ما وصفت لأبي سعيد، غير أنه سألنا أمرًا لم يسألناه قط، فله فضل السبق علينا في المسألة، ولنا فضل المنزلة عليك في اللائمة. ولن أدعك والفعل، دون أن تشفعه بالعمل الذي هو صلة القول. وسلام عليك ورحمة الله، وقضى الله عز وجل بالحسنى لنا ولك.

فصل: أتاني كتابك، فأنعمت أن يسرني بسلامتك، وما حاق فيه كرم برك، ولطيف عنايتك، ما لم أفقد في حالة من حالاتك، فكان الكتاب مصدقًا لما سلف، مبشرًا بما يستأنف، مذكرًا منك عهدًا موصو[17] مثاله طرفي وقلبي، ملصقًا ذكره بلساني وقلبي. فلا عدمتك، بل أمتعني الله بك فأطال، وكثرني ببقائك.

فصل: أتاني كتابك فطمأن قلبي وطرفي، بعد ما كان شاخصًا إليه، متشوقًا إلى رؤيته، ثم ملأني سرورًا ما رأيت فيه من آثار برك وكريم تفقدك. وأفضل ما عندي منك قبله، مما إن ذكرته، فللاستراحة[18] إلى الذكر، وإن أمسكت، فللعجز عن الشكر. فأما الضمير فمبني على الإقرار بفضلك، والنية خالصة بشكرك. وقليل ذلك لك، فأعطاك الله فأطاب، ووهب فأجزل.

فصل: وصل إلي كتابك فخيل لي حين نظرت إلى أثر يدك بمجرى قلمك في بطن صحيفتك، أنك ماثل بين عيني: أنظر إلى شخصك وأسمع من لفظك، فابتعث ذلك مني طربًا شائقًا، وصبابة هيجت الأحزان وذكرت الإخوان. وكنت من إخواني الذين أفخر بسلامتهم للود الذي أجرى الله بيننا وبينك، فتواصلنا بحرمته، وتعاطفنا بوصله.

فصل: إن الله جعل عاقبة كل نعمة وإن عظمت، تبعًا لأولها، وجعل الشكر عليها سببًا لتمامها وموجبًا لأحسن الزيادة منها.

فصل في شكر: فإن الله جعلك للخير معدنا، وللفضل موضعًا، فيما حملته نفسك من ثقل أعباء المروءة، وحملتها عليه من عظام المكارم، حتى صرت بما أنعم الله به عليك، منتهى كل أمل وغاية كل رغبة. ثم ألبست النعمة لباس التواضع، وناسبت في الأخلاق من سبقت به عليك الأمور، حتى كأنهم في النعمة لك شركاء. وتحننت على الأقربين والمتقربين من الإخوان والأكفاء، حتى كأنهم لك ولد، وأجبرت نفسك حين ساعدك الدهر، على طبيعة

التقرب إلى العامة؛ فكلهم يدلي إليك بدلو رغبته، ويمتاح منك متاحة فضل؛ فلا عدمت ألا تزال تنعش سقطة، وتقيل عثرة، وتسد خللا، وتنيل أملا؛ ولا عدم من شهد ذلك منك، أن يستتم هذه النعمة عليك وعلى نفسه؛ فإن من سعادة العامة أن يجعل سارها عند خيارها. ومن البلاء العظيم عليها الموجع لها، أن يخص شرارها بموضع رغباتها.

فاسلم كلأك الله بهذه النعمة، غير منغص بها، ولا مكدر عليك[١٩] صفوها، حتى تسلمك النعمة العاجلة إلى النعمة الباقية؛ فإنا وإن علمنا أن من شأن الدهر الغدران في العواقب فقد علمنا أنك فيما أهدى الله إليك من النعمة، قد أديت حق الله عز وجل ثم حق إخوانك فيها، فكنت أخر من نال فضلك، كرما في السناء، ورضا في الأثرة، غير متطاول لما نأمل، ولا متضعضع لما تحذر؛ فإنا نجزي شكر الماضي منك، ورجاء الباقي، فنرى تضييعًا منا في عقد الرأي، وإزراء بنا في وثائق الأمور، ألا نمنحك من أنفسنا مودة الولد ورقة الوالد، وإذا أعطاك امرؤ ثمرة فؤاده، فقد فرغ إليك من جميع حقك، لأن ذات يد امرئ في البذل أهون عليه من ذات نفسه في الشكر. وكفى لامرئ من امرئ أن يستولي عليه حتى لا يدع لغيره فيه فضلا. وكفى بك لنا من غيرك. وكثير منا أن نقوى على أداء أدنى صنوف حقك، غير أن أوثق أمورنا فيك عند أنفسنا ألا نسأم النظر إلى فنائك بهجين بك إن برزت، وعاذرين لك إن شغلت.

فصل: إن الهدى والضلالة يقتسمان دول الأزمنة، لغير كرامة للباطل، ولا هوان للحق. وأهل الحق كيف تصرفت أحوالهم في كرامة من الله عز وجل، ونعمة بين دولة تكون لهم، يقومون لله فيها بحقه ويظهرون هداه ودينه، ودولة تكون للباطل، يكونون فيها كهوفًا للخيرات، ومعدنا للحسنات، يستكن الحق في صدورهم، ويأوي البر والصدق إليهم؛ فهم بين يومي صبر وشكر، ليس أحدهما دون صاحبه في الفضل.

وأهل الباطل كيف تصرفت أمورهم بين سخط الله وعقوبته، لأن الله تعالى لم يجعل في الباطل فرجًا لأهله، وإن كانت لهم دولة كانت إملاء واستدراجًا، وكانوا فيها على مدرجة هلكة وسبيل نقمة؛ وإن كانت الدولة لأهل الحق، كانوا فيها بين ذيل وضيم، وخوف وجزع، وقد سدت عليهم المطالع، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت. ففي أي يوميهم مستراحهم: أيوم دولتهم، وهم لا يشكرون النعمة ولا يقطعون أسباب النقمة؟ أم يوم علو الحق عليهم، وهم لا يصبرون على المحنة ولا يبصرون من العمى؟ وأهل الحق بين حالي غبطة وحسبة، وأهل الباطل بين حالي إملاء ونقمة.

فصل في صفة الجند: إن الغالب على أهواء جماعة من فئام أولياء الأمير وجنده إعظام الأمير ومعرفة فضله، والتقرب إلى الله بمحبته ومناصحته وطاعته، ومعاداة عدوه؛ وتلك نعمة يعتدونها ويتقربون إلى الله بها، ويتوسلون إلى الأمير بخزي قوم خالفوا.

فصل: حل بين فلان وبين التشريد بهم والاجتياح لهم، فإن ذلك أرضى لربك، وأجمع للألفة، وأقوم لعمود الخلافة الذي سدد الله دعائم الإسلام وأس الدين به. واعلم أن من حاط الله دينه، ورمت عن فوقه الجماعة، وعادى أهل النقض لها، ابتعثه الله آمنا من هول الحساب وضيق المحشر، والله بنصره أحق وأولى. وكن لله بحيث افترض عليك، فإنه قال لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾.

ما كتبه جعفر بن محمد بن الأشعث إلى رجل لم يكاتبه

لست بما صرفت إلى من معروفك بأسر مني، بما أهديت إليّ من قضاء الحق عنك، وقلة ذوي الحرمة بك، لأنك قد تصل من لا يثق ولا يأنس إلا بمن يعتمد عليه.

ما كتبه الفضل بن يحيى إلى رجل يشاوره في أمر حدث

ليس كل امرئ وإن كان ذا عزيمة في رأيه، وأصالة في عقله، بمستغن عن مكاشفة أهل الرأي؛ لتوزيع الله عز وجل، أقسام الفضل في خلقه، وإشراكه إياهم، في عطاياه؛ فرأيك في كذا.

ركب إبراهيم بن المهدي إلى أحمد بن يوسف، فكتب أحمد إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي

عندي من أنا عبده، وحجتنا عليك، إعلامنا إياك.

توسل

توسل رجل إلى رجل بمحمد بن عبد الملك وادعى قرابته منه، وبلغ ذلك محمدًا فكتب إلى المتوسل إليه:

بلغني أن رجلا ادعى قرابتي، وأورد عليك كتابًا ذكر أنه مني؛ وما أنكر أن ينتفع بي من توسل بنسبي، إلا أنه من ادعى قرابة، ولا قرابة له، كان استعمال الشفاعة في أمره أولى.

ما كتبه طاهر بن الحسين إلى الفضل بن سهل

أسعدك الله بمحاربتك، التي بذلت فيها مهجتك، ومهج من هو موصول بك منا.

ما كتبه محمد بن الجهم

وليس في جميع الناس أعدى لك: من صديق مؤمل، أو حميم راج، إن منعتهما شتماك وبهتاك، وإن أعنتهما الباهتة[٢٠] اغتالاك.

ما كتبه محمد بن مسعر

قال: كنت أنا ويحيى بن أكثم عند سفيان، فبكى سفيان، فقال له يحيى: ما يبكيك يا أبا محمد؟ قال: بعد مجالستي من جالس أصحاب رسول الله ﷺ ابتليت بمجالستكم؛ فقال له يحيى: فمصيبة من جالست منهم بمجالستهم إياك بعد أصحاب رسول الله ﷺ أعظم من مصيبتك بنا؛ فقال: يا غلام، أظن السلطان سيحتاج إليك.

دخل ميمون بن مهران على بعض خلفاء بني أمية — وأحسبه عمر بن عبد العزيز — فقال له وقد قعد في أخريات مجلسه: عظني، فقال له: إنك لمن خير أهلك إن وقيت ثلاثا، قال: ما هن؟ قال: السلطان وقدرته، والشباب وغرته، والمال وفتنته، فقال: أنت أولى بمكاني مني فارتفع إلي؛ فأجلسه معه على سريره.

ما كتبه ابن وهب في الاعتذار

لو لم نعذرك لم نعذر أنفسنا بقطيعتك، فكن لنا في لائمة نفسك، كما كنا لك في عذرك.

وفي مثله

ليس في الإساءة فضل عن الاعتذار، وفي عائدتك فضل عن إساءتنا، فمن أين يسقط بين فضلك والاعتذار!

آخر

فلان من حملة المعروف، يكثر عندهم قليله في شكرهم، ويقل لهم كثيره في عظيم حقوقهم.

فصل: لئن عميت عن الرأي فيك، لقد أبصرته بك.

فصل: تغيب فأشتاق، ونلتقي فلا أشتفي.

(٢) فصول من رسائل مختارة في كل فن

وهي مثل مما كتب به الكتاب في أبواب لا نظير لها.

فمن ذلك ما كتب به في التحميد لله عز وجل في أوائل الفتوح وأواخرها وأوائل الكتب التي فيها تحميد الله عز وجل.

التحميد الأول

الحمد لله القادر القاهر، المتوحد بالسلطان والربوبية، والمتفرد بالبقاء والقدرة، والمتجبر بالكبرياء والعظمة؛ ذي الجلال والإكرام، والإفضال والإنعام، والعز والبرهان، والأسماء الحسنى، والمثل الأعلى؛ الأول بلا غاية، والآخر بلا نهاية، الذي لا يحيط به وصف الواصفين، ولا تبلغ مدى عظمته أوهام المتوهمين، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير؛ لا يؤوده حفظ كبير، ولا يعزب عنه علم صغير، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

التحميد الثاني

الحمد لله الذي خلق الأشياء على غير مثال ولا رسوم، وأنشأها على غير حدود، ودبر الأمور بلا مشير، وقضى في الدهور بلا ظهير، وسمك السماء بقدرته، وبناها على إرادته، وأسكنها ملائكته الذين اصطفاهم لمجاورته، وجبلهم على طاعته، ونزههم عن معصيته، وجعلهم حملة عرشه، وسكان سماواته، ورسله إلى أنبيائه، يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ ودحا الأرض وبسطها لكافة خلقه، وقسم بينهم الأرزاق، وقدر لهم الأقوات، فهم في قبضته يتقلبون وعلى أقضيته يجرون، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

صدر تحميد مفرد

الحمد لله العلي مكانه، المنير برهانه، التامة كلماته، الشافية آياته؛ والحمد لله ولي أوليائه وعدو أعدائه.

صدر تحميد

الحمد لله الغالب الذي لا يغلب، والمقتدر الذي لا يعان، والمنجز وعده، والمؤيد أولياءه، والخاتم بالفلج[٢١] والظهور لهم، والمديل من أعدائه، ومحيط دائرة السوء بهم.

تحميد مختار لكتاب خزيمة بن خازم في فتح الصنارية

أما بعد، فالحمد لله ذي الملكوت والقدرة، والجبروت والعزة، والسلطان والقوة؛ أهل المحامد كلها، ومدبر الأمور ووليها، وخالق الخلائق وبارئها، ومميتها ومحييها، وباعثها ووارثها؛ الذي أوجب على نفسه بما نفذ من مشيئته، وسبق من علمه، وثبت في اللوح المحفوظ عنده إعزاز دينه، وإظهار حقه، وإعلاء كلمته، وإبلاج حجته، وإزهاق باطل أعدائه؛ الصارفين عن طاعته، والجاحدين لربوبيته، المكذبين بكتبه ورسله؛ بلغ بذلك أمره، ونطق به كتابه؛ فإنه يقول تبارك اسمه في المنزل من فرقانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

تحميد لأحمد بن يوسف إلى الولاة عن الخليفة

أما بعد، فالحمد لله ذي المنن الظاهرة، والحجج القاهرة؛ الذي قطع بينه وبين عباده المعذرة، ورادف عليهم البينة، ومهلة النظرة؛ وجعل ما أتاهم من حظوظ الدنيا بالقسم المكتوب، وما ذخر لهم من ثواب الآخرة بالنجح المطلوب؛ فهم في العاجلة شركاء في النعمة، وفي الآجلة شتى في الرحمة؛ يختص بها أهلها المنتفعين بما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحال بعد الحال؛ المبادرين بأعمالهم إلى انقضاء مدد آجالهم، قبل حلول ما يتوقع، وفوت ما لا يرتجع.

تحميد لإبراهيم بن العباس في فتح إسحاق بن إسماعيل

الحمد لله معز الحق ومديله، وقامع الباطل ومزيله، الطالب فلا يفوته من طلب، والغالب فلا يعجزه من غلب؛ مؤيد خليفته وعبده، وناصر أوليائه وحزبه؛ الذين أقام بهم دعوته، وأعلى بهم كلمته، وأظهر بهم دينه، وأدال بهم حقه، وجاهد بهم أعداءه، وأنار بهم سبيله؛ حمدًا يتقبله ويرضاه، ويوجب أفضل عواقب نصره، وسوابغ نعمائه.

التحميد الثاني

الحمد لله الغالب ذي القدرة، والقاهر ذي العزة؛ الذي لم يقابل بالحق باطلا في موطن من مواطن التحاكم بين عباده، إلا جعل أولياء الحق منهم حزبه وجنده، وجعل الباطل بهم فلًّا منكوبًا، ودحيضًا زهوقا؛ إن نهض به أولياؤه كانت مراصد عواقبه مفرقة ما جمع، ومبترة ما أعد، وقائدة بأشياعه إلى مصرع الظالمين، حتى يكون الحق الطالب الأعز، والباطل المطلوب الأذل؛ وأولياء الحق الأعلين يدا وأيدا، وأشياع الضلال الأخسرين أعمالًا وكيدا؛ قضاء الله وسنته، وعادة الله وإرادته، في الفئة المنصورة أن تعز فلا ترام، وأن يمكن لها في الأرض كما مكن للذين من قبلها؛ وفي الفئة الناكبين عنه، أن تزل فتكون كلمتها السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم.

تحميد له مبتدأ مقام بين يدي الخليفة

أما بعد، فالحمد لله الأول بلا أيد يحصى، والآخر بلا أمد يفنى؛ الظاهر لخلقة بعزته، العزيز في سلطانه بعظمته، الفرد في وحدانيته بقدرته، المدبر في ملكه بجبروته؛ الذي نأى عن الأشياء أن يكون فيها محويًا، واتصل بها فلم يك من علمها خليا، وهو فيها غير مستكن، ومعها غير مماس في لجج البحار، ومفاوز القفار، وشوامخ الجبال، وكثبان الرمال؛ مع كل خلق، وفي كل أفق، وعلى كل شرف ومكان، وفي كل وقت وأوان؛ موجود إذا طلب، وقريب حيث ندب؛ عالم خفيات الغيوب، وخطرات القلوب، وما في السموات وما في الأرض، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم؛ وما تسقط من ورقة ألا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

تحميد ثان يتلو الأول

الحمد لله المتعالى عن تشبيه الجاهلين، وتحديد الواصفين، وتكييف الناعتين؛ يوصف لا بالعرض والطول، وينعت بغير الشبح الممثول، ويحد لا بالخلق المعدود، والجسم الموجود؛ بل يتناهى من وصفه، إلى ما دل عليه من صنعه، ويوقف عليه من نعته، على ما أخبر به عن نفسه؛ وكيف يوصف من لم يره أحد، ويحد من لم يحده بلد؛ أو يشبه غير ذي أعضاء، أو يكيف غير ذي أجزاء؛ لو رئي لوصف، ولو وصف لمثل، ولو مثل لكان له نظير؛ سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرا، لا تجنه الأقطار، ولا يحويه قرار؛ ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير؛ لا يوصف أولاه، ولا يدرك أخراه، ولا يعرف منتهاه؛ عظم أن يحصره وهم، وجل أن يدركه فهم، وامتنع من أن يخاله علم، ولا يغيره ليل ولا يوم؛ ولا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما، وهو العلي العظيم.

تحميد ثالث

الحمد لله الذي ألهمنا من الإقرار بربوبيته، والإيمان بوحدانيته، وأنه غير ذي صاحبة يسكن إليها من وحشة، ولا ولد يتكثر به من ضعف قلة، ولا شريك يعاونه من عجز قدرة، ولا ظهير يكانفه لملال فترة؛ ما جعل لنا به أوثق الأسباب لديه، وأرجى الوسائل إليه؛ إذ كان من أنكر ما دللنا الإقرار به يصير يجحد ما أخنعنا الاعتراف فيه، إلى أليم عقوبته بالمعصية التي استحكمت السخطة على أهلها، وحلت النقمة بمن فارقها؛ ثم جعلنا تبع إشراف كثير على أنفسنا في مشيئة منه، بسط إليها آمالنا وأحسن عليها أطماعنا بكرم عفوه، وعظيم حلمه، وسعة رحمته، التي وعد أهل الإيمان بها؛ إذ صار من فارقهم في ذلك بما استهوت عليهم، بتزيينه لهم شياطينهم، ورانت على أفئدتهم (...)[٢٢] وما ظلمته قرباؤهم إلى الناس من كل طمع يجدي وخبر ينجي؛ جزاء بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد حبط عمله، وهو في الآخرة من الخاسرين.

تحميد يتلو الثالث في هذا المقام

الحمد لله الذي ابتدع لا من شيء ما أنشأ، وابتدأ على غير مثال ما ابتدأ؛ فجعل كثيرًا من لطائف تقديره، وصنوف تدبيره، وتصاريف أموره؛ حججًا واضحة، وآيات بينة، وعبرا شافية؛ تشهد له بعزة القدرة، ونفاذ الحول والقوة؛ فخلق مدبرا بلا مشورة أحد، سبعًا دحاهن على الماء على غير سند؛ مبسوطات في تكاثف أجزائهن، على معين ماء مسخر من تحتهن، فجر خلالهن أنهارًا، وقدر فيهن من المعاش أقواتًا، وجعل لهن من الجبال أوتادا، ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا آتينا طائعين. ففطر من الدخان في خفته على الهواء سبعا، جعل بينهن من الجو متسعا، سبع سموات طباقا مرتفعات، بلا دعائم قبلها ولا علاقات، يمسكهن بقدرة أن يرتفعن فوق ما حبسهن عليه، وأن يهوين إلى قرار دون ما رفعهن إليه؛ فأتقن صنعها، وأوحى في كل سماء أمرها؛ وزين السماء الدنيا بالمصابيح النيرة، والشهب الثاقبة، والنجوم الواضحة؛ وسخر الشمس والقمر علما للمهتدين، وسراجًا للمبصرين، ورجومًا للشياطين، وأوقاتًا لاختلاف السنين، ومعرفة لكل حين؛ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون؛ فقضاهن سبع سموات في يومين، ولو شاء خلقها في أسرع

من طرف العين؛ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون؛ بلا معاناة لقول، ولا ضعف من حول؛ ثم أسكنهن من خلقه ملائكة اصطفاهم لعبادته، واجتباهم لتبليغ رسالته، معصومين من أن يشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطانًا، وأن يقولوا على الله إفكًا وبهتانًا؛ يسبحونه بالليل والنهار لا يفترون ولا يسأمون من عبادته، ولا يستحسرون عن طاعته؛ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون.

تحميد في فتح لابن العباس

أما بعد، فالحمد لله الذي حمد نفسه، وفرض حمده على خلقه، وأعز دينه وأكرم بطاعته أولياءه، وأكرم طاعته بأوليائه، فجعل جنده منهم المنصورين، وحزبه منهم الغالبين؛ نهج بهم سبيله، وأقام بهم حجته، وجاهد بهم أعداءه، وأظهر بهم حقه، وقمع بهم الباطل وأهله؛ وأعلى كلمتهم، وأيد نصرهم، وألف لهم وبهم، ومكن لهم في الأرض، فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين.

والحمد لله المعز لدينه، المظهر لحقه، الناصر لخلفائه، الممكن لحزبه؛ المنتقم بهم ممن صدف عنه، مؤيدًا دينه بالنصر، ليظهره على الأديان، وحفه بالعز، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ وجنوده بالفلج فهم الأعلون إن استنصر بهم، والأعزون إن كاد بهم؛ والأقربون منه إخلاصًا وعملا؛ حمدًا يؤازي نعمه، ويمتري بمثله فواضله ومزيده.

له في فتح ابن البعيث لما ظفر به

أما بعد، فالحمد لله ناصر أنبيائه وخلفائه، وهادي أوليائه، أولياء الحق وحزب الهدى؛ الذين أقام بهم سبل الرشاد، ونصب بهم مناهج الدين، فأظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

له صدر كتاب الخميس في تحميد الله وتمجيده

أما بعد، فالحمد لله الذي جلت نعمه، وتظاهرت مننه، وتتابعت أياديه، وعم إحسانه؛ إله كل شيء وخالقه، وبارئه ومصوره؛ والكائن قبله، والباقي بعده، كما قال في كتابه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. العالي في مشيئته والقاهر فوق عباده، المتعالي عن شبه خلقه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، خلق العباد بقدرته، وهداهم برحمته، وأوضح لهم السبيل إلى معرفته بما نصب لهم من دلائله، وأراهم من عبره، وصرفهم فيه من صنعه، كما قال جل جلاله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۞ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

وذلك كله من خلقه إياهم بتمثيله ما مثل لهم من الدلائل التي نصبها لهم، والأعلام التي جعلها إزاء قلوبهم، وأسماعهم وأبصارهم، ويسر لهم خواطرهم وفكرهم، والهيئة التي هيأهم لها ليقع الأمر والنهي عليهم؛ فلا يكلفهم فوق طاقتهم، ولا يجشمهم ما يقصر عنه وسعهم، نظرا منه تبارك وتعالى إليهم ورحمة بهم؛ ليؤمنوا به ويعبدوه، فيستحقوا به رحمته ورضوانه، والخلود في النعيم المقيم، والظل المديد، والعيش الدائم؛ كما قال تعالى ذكره: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. وكان من نظره ورأفته بهم أن بعث فيهم أنبياءه ورسله، يدعونهم إلى طاعته، ويبينون لهم هداه، ويوضحون لهم سبيله؛ ويهدونهم إلى رحمته، ويعدونهم ثوابه، وينذرونهم عقابه، ويبسطون لهم توبته، ويحذرونهم سخطه، ويبينون لهم سنته وشرائعه، ويكشفون لهم مواعظه، ويعلمونهم كتابه وحكمته، كما قال تبارك وتعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. وكان من رأفته بهم، ونظره لهم، أن بعثهم إليهم بالحجج الظاهرة، والأعلام البينة، والشواهد الناطقة، التي أظهر بها صدقهم، وأقام بها برهانهم، وأوضح بها دليلهم، وأثابهم عمل سواهم، ليكون أدعى لهم إلى تصديقهم، والقبول عنهم، وأوكد للحجة على من أبى ذلك منهم.

تحميد أحمد بن يوسف في صدر رسالة الخميس التي كانت تقرأ بخراسان

أما بعد، فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذي العز والسلطان، والنور والبرهان؛ فاطر السماء والأرض وما بينهما، والمتقدم بالمن والطول على أهلهما؛ قبل استحقاقهم لمثوبته، بالمحافظة على شرائع طاعته، الذي جعل ما أودع عباده من نعمته، دليلا هاديا لهم إلى معرفته، بما أفادهم من الألباب، التي يفهمون بها فصل الخطاب؛ حتى اقتنوا علم موارد الاختبار، وثقفوا مصادر الاعتبار، وحكموا على ما بطن بما ظهر، وعلى ما غاب بما حضر؛ واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته، ومتقن صنعته، وحاجة متزايل خلقه ومتواصلة، إلى القوام بما يلمه ويصلحه، على أن له بارئا هو أنشأه وابتدأه، ويسر بعضه لبعض، فكان من أقرب وجودهم، ما يباشرون به من أنفسهم؛ في تصرف أحوالهم، وفنون انتقالها، وما يظهرون عليه من العجز عن التأتي لما تكاملت به قواهم، وتمت به أدواتهم، مع أثر التدبير والتقدير فيهم، حتى صاروا إلى الخلقة المحكمة، والصورة المعجبة، ليس لهم في شيء منها تلطف يتيممونه، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم؛ فإنه قال تعالى ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾. وما يتفكرون فيه من خلق السماء، وما يجري فيها من الشمس والقمر؛ والنجوم مسخرات على مسير لا يثبت العالم إلا به، من تصاريف الأزمنة، التي بها صلاح الحرث والنسل، وإحياء الأرض، ولقاح النبات والأشجار، وتعاور الليل والنهار، وممر الشهور والأيام؛ والسنين التي تحصى بها الأوقات؛ ثم ما يوجد من دليل التركيب، في طبقات السقف المرفوع، والمهاد الموضوع، باختلاف أجزائه والتئامها، وخرق الأنهار، وإرساء الجبال، ومن التئام الشاهد على ما أخبر الله به من إنشائه الخلق وحدوثه بعد أن لم يكن، مترقيًا في النماء، وثباته إلى أجله في البقاء، ثم محاره منقضيا إلى آخر الفناء؛ ولم يكن له مفتتح عدد، ولا منقطع أمد، وما ازداد بنشوء، ولا تحيفه نقصان، ولا تفاوت على الأزمان؛ لأن ما لا حد له ولا نهاية، غير ممكن الاحتمال للنقص والزيادة؛ ثم أجرى فيما ذكر من خلق الله وخلق الإنسان إلى ذكر ما تفضل الله به على عباده الأنبياء، وما اختصهم به من مبعث النبي ﷺ، إلى ذكر الخلفاء أولا، ثم إلى ذكر المأمون ودولته.

تحميد للعباس في مقام له بين يدى المأمون

الحمد لله على نعمه علينا، وإحسانه إلينا، بالأرض المبسوطة، والسماء المرفوعة، والرياح المسخرة، والأمطار النازلة، والأوقات القائمة، والمنافع الدائمة؛ والدين المبين، والأدب القويم؛ حمدًا يكون إليه صاعدًا، ولديه ناميا، وللكوته مالئا؛ والحمد لله حمدا يثبت رضوانه، ويورث إحسانه، ويوجب مزيده؛ فهو المنعم المحمود، والمتطول المشكور؛ لا إله إلا هو لا شريك له، كما شهد الله وملائكته قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

تحميد لعبد الحميد في أبي العلاء الحروري

الحمد لله الناصر لدينه، وأوليائه وخلفائه، المظهر للحق وأهله، والمذل لأعدائه وأهل البدعة والضلالة؛ الذي لم يجمع بين حق وباطل، وأهل طاعة ومعصية، إلا جعل النصرة والفلج والعاقبة لأهل حقه وطاعته، وجعل الخزي والذلة والصغار، على أهل الباطل والخلاف والمعصية؛ حمدا يتقبله ويرضاه، ويوجب به لأمير المؤمنين وأهل طاعته الزيادة التي وعد من شكره؛ والحمد لله على ما يتولى من إعزاز أمير المؤمنين ونصره وإفلاجه وإظهار حقه، على ما وقع بأعدائه وأهل معصيته والخلاف عليه من سطواته ونقماته وبأسه، فيما ولي أمير المؤمنين من موالاة من والاه، وعداوة من بغى عليه وعاداه؛ لا يكله في شيء من الأمور إلى نفسه، ولا إلى حوله وقوته ومكيدته، فإنه لا حول ولا قوة لأمير المؤمنين إلا به.

تحميد في آخر فتح

الحمد لله المعز لدينه، المظهر لحقه، الناصر لأوليائه، المنتقم من أعدائه أهل الكفر؛ المنزل بهم من بأسه، ونقمته وجوائحه؛ الذي لم يجمع بين أهل حقه، وباطل عدوه، في موطن من مواطن التحاكم، إلا جعل فيه لأوليائه الظفر، وأفرغ عليهم الصبر، ومنحهم النصر؛ وجعل الدائرة وسوء العاقبة على عدوه، وأهل الكفر؛ حمدا كثيرًا يرضاه من الشكر، ويحسن به المزيد.

تحميد في فتح إلى أمير لقمامة

الحمد لله الفتاح العليم، الذي خص الأمير بأفضل الكرامة وأتم النعمة؛ وأحسن الولاية، وأعظم الكفاية؛ وحفظ ما استرعاه، وأعز أولياءه، وقمع بالمذلة أعداءه، وجعل حسن العاقبة له ولأهل طاعته، ودائرة السوء على أهل معاندته؛ حمدا يحسن به القضاء، وتزيد به النعماء.

صدر تحميد لغسان بن عبد الحميد في خطبة موجزة

الحمد لله الذي لا يدرك خير إلا برحمته، ولا ينال الفضل إلا بنعمته؛ ولي التسديد للحسنات، والعصمة من السيئات.

تحميد لعبد الحميد في فتح

الحمد لله العلي مكانه، المنير برهانه، العزيز سلطانه، الثابتة كلماته، الشافية آياته، النافذ قضاؤه، الصادق وعده؛ الذي قدر على خلقه بملكه، وعز في سماواته بعظمته، ودبر الأمور بعلمه، وقدرها بحلمه، على ما يشاء من عزمه؛ مبتدعًا لها بإنشائه إياها، وقدرته عليها، واستصغاره عظيمها، نافذة إرادته فيها، لا تجري إلا على تقديره، ولا تنتهي إلا إلى تأجيله، ولا تقع إلا على سبق من حتمه، على كل ذلك بلطفه وقدرته، وتصريف وحيه؛ لا معدل لها عنه، ولا سبيل لها غيره، ولا علم أحد بخفاياها ومعادها إلا هو؛ فإنه يقول في كتابه الصادق: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ...﴾ إلى آخر الآية.

تحميد ثان

الحمد لله الذي علا بالحجب التي استتر بها عن جميع خلقه، واستغنى بها عنهم لما توحد به دونهم من عباده الذين فطرهم على المعرفة، رءوفًا عليهم بمنه ومتطولا وهو فيما يمضي من أقداره، مفصلا لهم بابتدائه خلقهم في أحسن تقويم، وإعطائه إياهم عاجل كل خير مقسوم، وتسخيره لهم جميع ما في السموات والأرض، وبسطه لهم في معايشهم أوسع الرزق، وإسباغه عليهم فيها أفضل النعم التي لطفت فبطنت، وعظمت فظهرت، ولبست فعمت، وانتشرت فجللت، وكثرت فلا يحصيها عاد، وجزلت فلا يؤدي

حق ما افترض منها شاكر، فإنه يقول: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والحمد لله الذي لم يقتصر بهم في إكرامه وتفضيله إياهم على عاجل، فإنه مضمحل زائل مما أعطاهم إياه ولم يكلهم في معرفة خالقهم تبارك وتعالى، ومتولي النعم عليهم، والإحسان إليهم، والارتياش لهم؛ ولا في مبتغى سبيل طاعته، وأداء حقه، وشكر نعمته، واستيجاب غبطة المعاد إليه إلى أن يعوا ذلك بعقولهم، والنظر فيه بألبابهم، والتصريف له على أهوائهم؛ فإنه لو ألجأ ذلك إليهم، وأفردهم فيه إلى أنفسهم، ووكلهم فيما أمرهم به إلى مقدرتهم، لحارت عنه منهم الأبصار، ولتاهت فيه منهم العقول، ولأضلهم عن قصده العمى، ولمال بهم إلى غيره الهوى، ولاستحكم عليهم شرك الردى؛ ولكنه بعث فيها أنبياءه الهادين، يدعونهم إلى الصراط المستقيم، بنوره المضيء، ودينه القويم، وآياته البينة، وكتبه الفارقة التي بين فيها محابه ومكروهه، وطاعته ومعصيته، وثواب الفريقين في ذلك من عباده ليحذروا ما حذرهم فيه من سخطه، ونزل بهم فيه من نقمته؛ وليسارعوا فيما جعل لأهله به إلى أفضل المثوبة، وأحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وكشف لهم الجهالة، وهدى من الضلالة، وبصرهم سبيل الحق، وبين لهم معالم الإسلام، ليرجع جائر، ويقصد زائغ، ويعرف جاهل، وليعبد الرب بما وحد به نفسه، وليستبين العلم، ويستضيء الحق، وليبتغي من الله الثواب بلزوم دينه الذي شرع، وأداء فرائضه التي فرض، وإيثار طاعته التي أوجب، وليكون لله الحجة البالغة على عباده فيما تركوا من ذلك وسفهوا بعد استبانته لهم، واستفاضته فيهم وإعذاره إليهم، فإنه يقول: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ويقول: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

تحميد لأنس بن أبي شيخ

الحمد لله الذي بالقلوب معرفته، وبالعقول حجته، الذي بعث محمدًا ﷺ أمينًا فوفى له، ومبلغًا فأدى عنه فحج به المنكر، وتألف به المدبر، وثبت به المستبصر، إلى أن توفاه على منهاج طاعته، وشريعة دينه، ثم أورثكم عهده وخصكم بكلمة التقوى، وجعلكم الأمة الوسطى.

تحميد لعبد الحميد في فتح يعظم فيه أمر الإسلام بمحمد ﷺ

أما بعد، فالحمد لله الذي اصطفى الإسلام دينًا رضى شرائعه، وبين أحكامه ونور هداه، ثم كنفه بالعز المؤيد، وأيده بالظفر القاهر، وآزره بالسعادة المنتجبة، وجعل من قام به داعيًا إليه من جنده الغالبين، وأنصاره المسلطين، كلما قهر بهم مناوئا أورثهم رباعتهم المأمولة، وأموالهم المثرية، ودارهم الفسيحة، ودولتهم المطولة، أمرا حتمه على نفسه؛ ثم جعل من عاندهم وابتغى غير سبيلهم مسلما قد استهوته ذلة الكفر بظلمها، وحيرة الجهالة بحوارها، وتيه الشقاء بمغاويه، وكلما ازدادوا لدعوة الحق إباء، ازداد الحق إليهم ازدلافا، وعليهم عكوفًا، وفيهم إقامة، إلى أن يحل بهم عز الغلبة؛ ونجاة المتجاوز؛ راغبين فيما شوقهم إليه، محافظين على ما ندبهم له، قد بذلوا في طاعة الله دماءهم، وقبلوا المعرض عليهم في مبايعة ربهم لهم بأنفسهم الجنة. محمود صبرهم، مسهل بهم عزمهم، إلى خير الدنيا والآخرة.

والحمد لله الذي أكرم محمدا ﷺ بما حفظ له من أمور أمته؛ أن اختار لمواريث نبوته ما أصار إلى أمير المؤمنين من تطويقه ما حمل بحسن نهوض به وشح عليه، ومنافسة فيه، أن فعل وفعل. والحمد لله الذي تمم وعده لرسوله وخليفته في أمة نبيه مسددًا له فيما اعتزم عليه. والحمد لله المعز لدينه، المتولي نصر أمته بنبيه المتخلي ممن عاداهم وناوأهم، حمدا يزيد به من رضى شكره، وحمدا يعلو حمد الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم نعمه فلا توصف، وجلت أياديه فلا تحصى، الذي حملنا ما لا قوة بنا على شكره إلا بعونه، وبالله يستعين أمير المؤمنين على ذلك، وإليه يرغب، إنه على كل شيء قدير.

تحميد لعبد الحميد أيضًا

أما بعد، فالحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، وارتضاه دينًا لملائكته، وأهل طاعته من عباده، وجعله رحمة وكرامة ونجاة وسعادة لمن هدى به من خلقه، وأكرمهم وفضلهم وجعلهم بما أنعم عليهم منه أولياءه المقربين، وحزبه الغالبين، وجنده المنصورين، وتوكل لهم بالظهور والفلج، وقضى لهم بالعلو والتمكين، وجعل من خالفه وعزب عنه وابتغى سبيل غيره أعداءه الأقلين، وأولياء الشيطان الأخسرين، وأهل الضلالة الأسفلين، مع ما عليهم في دنياهم من الذل والصغار، وما عجل لهم فيها من الخذلان والانتقام، إلى ما أعد لهم في آخرتهم من الخزي والهوان المقيم، والعذاب الأليم، إنه عزيز ذو انتقام.

في ذكر الإسلام وأهله وما فضلهم الله تعالى به

أما بعد، فالحمد لله الذي عظم الإسلام تعظيمًا، وفضله تفضيلا، فلم يبق ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا إمام لأهل حق مهتد إلا دان به، واتصل إلى ولاية الله بما هداه له منه، وليس في دين الله الذي ارتضى، وخيرته من أهل الإسلام الذين اصطفى، تغاشم ولا تظالم، ولا تحاسد، ولا تقاطع ولا تدابر، ولكنهم كما وصفهم الله عز وجل بالتبار والتراحم، والتواد والتناصف، قلوبهم متفقة، وأهواؤهم مؤتلفة، وأيديهم على أهل معصيته مبسوطة، أعوانًا على الحق، وإخوانًا في الدين، ألف الله بينهم، وجعل الإسلام نسبهم، فقال في كتابه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ ...﴾ إلى آخر الآية. فهذه صفة الله أهل دينه فيما بينهم، وكذلك كان أسلاف الحق قبلهم، في تواد وتبارهم، وتواصلهم وتعاونهم، وبذلك دان أهل السماء، فلم يختلفوا فيه، ولم يرغبوا عنه، ولم يحتذوا مثالا غيره، وبه يدين لله الباقون من خلقه، المتمسكون بحقه إلى يوم القيامة، سنة مسنونة، وشريعة متبوعة، لا يبتغون بها بدلا، ولا يريدون عنها حولا، فأهل طاعة الله أهل سلامة في دنياهم، وإخوان كما قال الله عز وجل في آخرتهم، لم تنقطع الولاية فيما بينهم، لانقطاع الدنيا عنهم، ولكن الله وصلها بالآخرة لهم، فجمعهم في داره وجواره، كما ألف في الدنيا بين قلوبهم، وعصم بالإسلام ألفتهم.

تحميد

الحمد لله المثيب على حمده وهو ابتداؤه، والمنعم بشكره وعليه جزاؤه، والمثني بالإيمان وهو عطاؤه.

تحميد لقمامه

الحمد لله الذي أكرم الإسلام وفضله، وشرفه وعظمه، وأعلى منزلته، وجعل أهله القائمين به، والحامدين عليه، أولياءه وحزبه الذين قضى لهم بالتمكين، والظهور على الدين كله ولو كره المشركون.

تحميد لزيد بن علي

الحمد لله الواصل النعم بالشكر، والشكر بالمزيد، حمد من يعلم أن الحمد فريضة واجبة، وأن تركه خطيئة مهلكة، وأومن بالله إيمانًا نفى إخلاصه الشرك، ويقينه الشك، وأتوكل عليه توكل الواثق به ثقة أهل الرجاء، ومفزع أهل التوكل.

تحميد في الإسلام

الحمد لله الذي اختار الإسلام دينًا لنفسه، وأنبيائه ورسله، وشرفه وعظمه، وأناره، وأظهره، ونزهه وأعزه ومنعه، ولم يقبل غيره، ولم يجعل حسن الجزاء إلا لأهله، الذين كتب لمن أسعده بالوليجة فيه منهم الرضوان والمغفرة والرأفة، وعلى من خالفه وابتغى غير سبيله الحسرة والندامة، والذلة والصغار في الآخرة والأولى، والممات والمحيا، إذ يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ والحمد لله الذي اجتبى محمدا ﷺ بما اصطفاه من نبوته، واختاره له من رسالته، وحباه بفضيلته، واجتباه من أفضل عمائر العرب، وأشرفها منصبًا، وأعرقها حسبا، وأكرمها نسبًا، وأوراها زنادًا، وأرفعها عمادًا، فبعثه بالنور ساطعًا، وبالحق صادعًا، وبالهدى آمرا، وعن الكفر زاجرًا، وعلى النبيين مهيمنا، وإلى سبيل ربه داعيا، وبالكتاب عاملا، فبلغ عن الله الرسالة، وهدى من الضلالة، وانتاش من الهلكة، وأنهج معالم الدين وأدى فرائضه، وبين شرائعه، وأوضح سننه، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، ﷺ.

تحميد لأبي عبيد الله

الحمد لله الذي شرع لإظهار حقه وإنفاذ سابق قضائه فيمن ذرأ وبرأ من عباده، بإدخال من أراد أن يدخل في رحمته، وإنجاز ما حق له من العبادة على خلقه، بابتدائه خلقهم، ومظاهرته الآلاء عليهم، وإحسانه البلاء عندهم، وإبلاغه في الحجج إلى عامتهم، دينا رضيه لنفسه وملائكته الذين أسكن سماواته ورسله، فأتمن على وجه من لم يرض إلا به، ولم يقبل إلا إياه، ثم كان ما أعز به نفسه، وأظهر به نوره، وأراد أن يبلو به عباده، تحقيقًا لما سبق به علمه، وإنفاذًا لما جرت به مقاديره، أن بعث لما شرع من دينه، واصطفى لتسبيحه وتقديسه من ملائكته المقربين، من ارتضى واختار من أنبيائه ورسله

المجتبين، لتبليغ رسالته وإظهار حقه، واستشلاء[٢٣] من أراد سعادته من خلقه بالرحمة التي اطلعت عليهم وعمتهم، ليعبد مخلصًا له، محمودًا بما استحمد به إلى خلقه، مشهودًا له بما أشهد به من كلمة الحق، فكان منهم التبليغ لما أرسلوا به، والنصيحة لمن أرسلو إليه، غير مختلفين فيما بعثوا له، ولا متفرقين فيما استعملوا فيه، يدعوهم آخر إلى ما دعاهم إليه أول، فيصدق بذلك بعضهم بعضًا، ويهدون إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فمضت رسل الله وأنبياؤه على ذلك سالكين منهاج الحق وسبيله، والدعاء إلى الله عز وجل وإلى طاعته، هادين مهديين غير مبخوسين شيئًا مما كانوا أهله في المنزلة عند الله، والقربة منه، والوسيلة إليه، هم ومن آمن بهم وعززهم، واتبع النور الذي أنزل معهم، حتى تقضت بهم الأعمار، وتقطعت بهم الآثار، وتخرمتهم الآجال.

وكذا لأبي عبيد الله

الحمد لله الذي جعل الإسلام رحمة قدمها لعباده قبل خلقه إياهم، واستيجابهم إياها منه، فاصطفاه لنفسه وشرعه لهم دينًا يدينون به، ثم جعل تحديد وحيه ومتابعة رسله رحمة تلافاهم بها بعد تقديمها، ومنة ظاهرها عليهم قبل استيجابهم لها، تطولا على العباد بالنعماء، وإعذارًا إليهم بالحجج، وتقدمة بالوعد، وإنذارًا إليهم عواقب سخطه في المعاد.

والحمد لله الذي ابتعث محمدًا ﷺ بهداه وشرائع حقه على فترة من الرسل، وطموس من معالم الحق، ودروس من سبل الهدى، عند الوقت الذي بلغ في سابق علمه ومقاديره، أن يجتبي لدينه الأصفياء، ويختار له الأولياء، الظاهرين بحقه، القاهرين لمن ابتغى سبيلا غير سبيله، فعظم حرمته، ووسع حوزته، وصدع بأمره، وجاهد عن حقه في حومات الضلالة وظلمات الكفر، بالحق المبين؛ والسراج المنير، ثم جعله مصدقًا لمن سبقه من الرسل ومجددًا لما بعثوا له وهدى ورحمة؛ ثم جعل لدينه وظائف وظفها على أهله، وشرائع شرعها لهم لا يكمل دينهم إلا بها، وجعل أداءها إليه، واعتصامهم بها إمامًا لدينه، ونظامًا لنوره، وقوامًا لحقه، واستيجابًا لما وعد عليه من ثوابه، وأمنا لما أوعد من خالفه من عقابه؛ فليس يسع أهل الإيمان بالله الذين أكرمهم به وأجزل لهم فضله وأجره، وجعل لهم عزه وعلوه، واختار لهم الغلبة والعاقبة على من فارقهم فيه إلا معرفتها، وأداؤها بما يستكمل به حدودها، ومما لها من كذا وكذا.

صدر رسالة في الخميس لإبراهيم بن المهدي

الحمد لله الذي اختار الإسلام دينًا لنفسه، ورضى أن يعبده من في سمواته من الملائكة المقربين، ومن في أرضه من النبيين والمرسلين، ومن آمن بالنور الذي هداهم له من الثقلين، واختار لرسالته في سابق علمه، والذكر الحكيم عنده، محمدًا ﷺ، وأنزل عليه كتابه وجعل طاعته وطاعة نبيه ﷺ موصولة بكذا فقال: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

تحميد

الحمد لله المتكبر في جبروته المتعزز بسلطانه، المتعالي في سمواته، المحتجب عن خلقه، فلا تدركه في الدنيا أبصار الناظرين، ولا تحيط به أوهام المتوهمين، ولا تبلغه صفات الواصفين، الذي لا يؤوده عظيم، ولا يفوته مطلوب، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم.

تحميد آخر

الحمد لله الحكيم العدل، الذي فصل بين الحق والباطل، فنفذ قضاؤه في خلقه، وحكم فيهم فجرى حكمه على إرادته، يقضي بالنصر والتأييد، والعز والفلج، والتمكين للحق وأهله، وبالذل والوقم والخزي والصغار للباطل وأهله، وجعل ذلك من فضله وحكمه عادة جارية باقية، وسنة ماضية، لا راد فيما قضى منه لقضائه.

والحمد لله الذي اختص محمدًا ﷺ بكراماته، واصطنعه لرسالاته، وأنزل عليه كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، بما أحل وحرم، ورضى وسخط، وأمر به ونهى عنه، وجعله خاتم النبيين والمهيمن عليهم، وكتابه الذي أنزل، آخر الكتب المصدق بها النبي ﷺ.

تحميد في الإسلام وما امتن به على أهله من مبعث النبي ﷺ، وهو في صدر الجهاد

أما بعد، فإن لدين الله الذي ارتضاه لنفسه، ولمن اصطفاه من خلقه، واجتباه من عباده وجعله معلمًا بين الهدى والضلالة، وفرقانًا بين الحق والباطل، وحاجزًا بين الكفر والإيمان، وظائف وظفها على أهلها، وشرائع شرعها لهم؛ فجعل أداءها إليه ومعرفتها له، ومحافظتهم عليها، واعتصامهم بها قوامًا لدينه، ونظامًا لنوره وثباتًا لحقه، واستيجابًا لما وعد من ثوابه، وأمنا لما أوعد من عقابه؛ فليس يسع أهل الإيمان بالله والإقامة على حقه من المسلمين الذين سماهم المسلمين بالإسلام، وأحرز لهم فضله وعزه، وأصار لهم الغلبة على من خالفهم وفارقهم بما ركنوا إليه من الصدود عن سبيله، والتكذيب بكتبه ورسله، ودلتهم فيه قرباؤهم، وقادتهم إليه أهواؤهم، من الملل الضالة، والأديان المجموعة، التي لم ينزل بها من الله سلطان، ولا كتاب ولا برهان، إلا معرفتها وأداؤها بما يستكمل من حدودها ومعالمها.

تحميد في الجهاد وما بعث به النبي ﷺ

أما بعد، فإن الله خلق الخلائق بقدرته، وقدر الأمور بعلمه، وأنفذ على ما مضى من مشيئته، من غير أن يكون له ظهير في ملكه، أو معين على ما يرى من عجائب خلقه، واحتذاء منه على سابق من صنعة غيره، فوحد نفسه بما تفرد به دون غيره من خلقه، ليعبد مخلصًا مبرأ من الأنداد، إتمامًا لنوره، وتعزيزًا لتوحيده، وتأييدًا لدينه، وإعلاء لمن اعتصم به، وإقلالا لمن خالفه وعَنَد عنه وعبد غيره، وإحقاقًا لكلمته، فإنه يقول: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ الآية؛ بذلك أنزل كتبه، وأرسل رسله، واحتج بهم وبما أنزل إليهم على من مضى من القرون السالفة، والأمم الخالية، يدعو آخرهم إلى ما سبق إليه أولهم، من عبادته وتوحيده، لا يستوحشون من قلة، ولا يؤتون من كثرة؛ يعزهم الله بقوته، ويؤيدهم بجنده، وينصرهم وينصر بهم إلى أن بعث الله محمدًا ﷺ بما خصهم به، وجعله مصدقًا لهم، ومهيمنًا عليهم، وخاتم النبيين بعدهم؛ يمضي لأمر الله، ويجاهد من لم يجبه إلى الدخول في دين الله، فأظهره الله وأنار حقه، وأرهق عدوه، وأنجز له ما وعده وأتم بذلك النعمة عليه وعلى من اتبعه، فإنه يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾.

تحميد في فتح

الحمد لله الفتاح العليم، الرحمن الرحيم، العزيز الحكيم، الذي أعز الإسلام بقدرته، وأيده بنصره؛ فلم يلحد فيه ملحد، ويسع في تشتيت الكلمة وشق العصا ساع، ويوضع في الكفر والمعصية موضع، ويمتنع من قضائه وإرادته ممتنع إلا أذله الله وقصمه، وأضرع خده، وأتعس جده، وضلل سعيه، وعجل بواره واستئصاله؛ حمدا دائمًا لا انقطاع له، ولا نفاد لمدته.

تحميد ثان

والحمد لله الذي اختار الإسلام وشرفه، وكرمه وطهره، وأظهره وأعزه، وفطر عليه ملائكته، وبعث به أنبياءه ورسله، واختار له خيرته من خلقه محمدا ﷺ، فبعثه برسالته، وأكرمه بوحيه، واصطفاه على خلقه؛ يبشر بالجنة من أطاعه، وينذر بالنار من عصاه؛ وجعله دينه القيم الذي لا يقبل دينا غيره ولا يثيب أحدًا إلا عليه.

تحميد في فتح

الحمد لله العزيز في ملكوته القاهر فوق بريته، الذي خلق الخلق بقدرته، وأنفذ فيهم إرادته ومشيئته، وقدر كل شيء وأتقنه وأحكمه، وأحاط علما به؛ فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

صدر تحميد في فتح

الحمد لله الذي ابتدع الخلق لا من شيء، وجعل الليل والنهار كهفا ومستجنا لكل حي؛ بقدرته تبحرت البحار، وجرت لمواقيتها الأنهار؛ فدار وتطارد الليل والنهار، لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

والحمد لله الذي فات بعظمته أبصار المرتئين، وعلا بمجده عن خطرات الحاسبين، واحتجب بأستار جبروته عن مواقع فكر المحصلين المتعمقين؛ فلم تحوه الكمية، ولم يقع عليه أدوات التحصيل والكيفية، ولا أدركه هاجس تبعيض ولا كلية، ولم ينسب إلى زيادة في حين، ولا إلى تقصير في شهور ولا سنين، فكل أمره — عز جلاله — تمام ودوام، وكل

صفات صنعه اعتدال وكمال؛ وكل ما دونه يحتكم فيه الفناء والزوال، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

والحمد لله الذي عرفنا ربوبيته إلهامًا، ونهج لنا سبل طاعته منا وإكرامًا، وتعبدنا بفرضه تقويمًا وتعليمًا وامتنانًا؛ فقامت علينا وعلى الخلق حجته، بالصادع بأمره، والمبلغ لرسالته، والمجاهد فيه حق جهاده، محمد ﷺ والحمد لله الذي أعز دينه، وأظهر تمكينه، ونصر وليه، وخذل عدوه، وأوقع بأسه ونقمته بمحل الفرية، وجرثومة الضلالة، ومناخ الشرك، ومركز الكفر؛ بعد طول الإملاء، والاعتداء في سفك الدماء، والمثلة بالأسرى، وقلة المراقبة والارعواء.

تحميد

الحمد لله حمدًا يكون رضاه منتهاه، والمزيد من فضله جزاءه، والحمد لله حمدًا إليه يتناهى حمد الحامدين، وشكر الشاكرين. والحمد لله الذي لا تحصى نعماؤه، ولا تجزى آلاؤه، ولا يكافأ بلاؤه، ولا يبلغ شكره إلا بمنه وتوفيقه؛ حمدًا يرضاه ويتقبله، ويزكو لديه، ويوجب ما تأذن للشاكرين من يده.

تحميد على فتح

أما بعد، فالحمد لله الواحد القهار، العزيز الجبار، ذي المن والإنعام، والجلال والإكرام؛ الذي اصطفى الإسلام دينًا، واصطفى له من عباده أهلا هداهم له، وأكرمهم به وبين لهم ما يأتون، ولم يتركهم في ريب من أمرهم، ولا شبهة من دينهم؛ فله الحجة البالغة ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

والحمد لله الذي ختم بمحمد ﷺ النبوة، وانتجبه لتبليغ الرسالة، وبعثه إلى خلقه كافة، فبلغ رسالته، وصدع بأمره، وقام فيما بعثه له بحقه، ثم أنجز له وعده، وأتم له كلمته، وأظهر دين الإسلام به على الدين كله ولو كره المشركون.

تحميد في فتح

أما بعد، فالحمد لله الأول الآخر، الظاهر الباطن، الولي الحميد، القوي العزيز؛ الذي لا يقدر العباد قدره، ولا يحصون نعمه، ولا يبلغون شكره؛ المحيط بكل شيء علما، والمحصي كل شيء عددا؛ فلا يعجزه كبير، ولا يعزب عنه صغير، والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون.

تحميد

الحمد لله المتوحد بالخلق والأمر، قادرًا قاهرًا أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، وملأه عظمة، ووسعه عدلا، وأتقنه صنعا. والحمد لله الذي أعز بالحق من أطاعه، وأذل بالباطل من عصاه، وجعل الطاعة والجماعة حرزًا حريزًا، وموئلا منيفًا؛ فلم يجمع بين أهل كفر وإيمان، وطاعة وعصيان، إلا توحد بالصنع لأهل طاعته، وأنجح سعيهم، وأعلى كلمتهم، وأفلج حجتهم، وأنزل بأهل الكفر المعاندين عنه، الرادين لأمره الذلة والصغار في عاجلهم وآجلهم؛ حمدا يكون لمزيده موجبًا، ولحقه مؤديًا.

تحميد في فتح لسعيد بن حميد عن وصيف

أما بعد، فالحمد لله الحميد المجيد، الفعال لما يريد؛ الذي خلق الخلق بقدرته، وأمضاه على مشيئته، ودبره بعلمه، وأظهر فيه آثار حكمته التي تدعو العقول إلى معرفته، وتشهد لذوي الألباب بربوبيته، وتدل على وحدانيته؛ لم يكن له شريك في ملكه فينازعه، ولا معين على ما خلق فتلزمه الحاجة إليه؛ فليس يتصرف عباده في حال إلا كانت دليلا عليه، ولا تقع الأبصار على شيء إلا كان شاهدًا له، بما رسم فيه من آثار صنعه، وأبان فيه من دلائل تدبيره، إعذارا بحجته، وتطولا بنعمته، وهداية إلى حقه، وإرشادا إلى سبيل طاعته، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه؛ وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم.

والحمد لله العزيز القهار، الملك الجبار، الذي اصطفى الإسلام واختاره، وارتضاه وطهره، وأعلاه وأظهره؛ فجعله حجة أهله على من شاقهم، ووسيلتهم إلى النصر على [من] عند في حقهم، وابتغى غير سبيلهم؛ وبعث به رسله يدعون إلى حقه، ويهدون إلى سبيله، بالآيات التي يبينون بها عن المخلوقين، ويوجبون بها الحجة على المخالفين؛ حتى

انتهت كرامة الله إلى خاتم أنبيائه، وحامل كتابه، ومفتاح رحمته ﷺ؛ على حين فترة من الرسل، واختلاف من الملل، ودثور من اعلام الحق، واستعلاء من الباطل؛ والناس عاندون عن سبيل ربهم، يتسافكون دماءهم، ويحلون ما حرم الله عليهم، ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم؛ وأيده بالبرهان الواضح، والحجج القواطع، والآيات الشواهد؛ وأنزل عليه كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؛ وجعل فيه أوضح الدليل على رسالته، وأعدل الشواهد على نبوته؛ إذ عجز المخلوقون عن أن يأتوا بمثله على مر الأيام، وكثرة الأعداء والمنازعين؛ يتحداهم به في المواسم، ويقصدهم بحجته في المحافل؛ ولا يزدادون عنه إلا حسورا وعجزا، ولا تزداد حجة الله عليهم إلا تظاهرا وعلوا؛ ثم أيده بالنصر بأنصار ألف بينهم بطاعته، وجمعهم على حقه، ولم شعثهم بنصرة دينه، بعد الشقاق المتصل بينهم، والحرب المفرقة لجماعتهم؛ كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾. وقدم إليه وعده بالنصرة والتمكين؛ فجعله بشرى للمؤمنين، وحجة على الكافرين، ودليلا على ما بعثه به من الدين؛ فهزم بالقليل من عددهم الكثير من عدد أعدائهم، وغلب بضعفائهم أهل القوة ممن ناوأهم؛ ففل به حدهم، وفض جموعهم، وافتتح حصونهم، وحريز معاقلهم؛ وأظهر بحجته ونصره عليهم، وأنجز سابق وعده لهم وفيهم، والله لا يخلف الميعاد.

تحميد لابن المقفع

الحمد لله ذي العظمة القاهرة، والآلاء الظاهرة؛ الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه، ولا يدفع قضاؤه ولا أمره؛ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾. والحمد لله الذي الذي خلق الخلق بعلمه، ودبر الأمور بحكمه، وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه؛ بقدرة منه عليها، وملكة منه لها، لا معقب لحكمه، ولا شريك له في شيء من الأمور، يخلق ما يشاء ويختار؛ ما كان للناس الخيرة في شيء من أمورهم، سبحان الله وتعالى عما يشركون.

والحمد لله الذي جعل صفوة ما اختار من الأمور دينه الذي ارتضى لنفسه ولمن أراد كرامته من عباده، فقام به ملائكته المقربون، يعظمون جلاله، ويقدسون أسماءه، ويذكرون آلاءه، لا يستحسرون عن عبادته ولا يستكبرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه في أرضه، يطيعون أمره، ويذبون عن محارمه، ويصدقون بوعده، ويوفون بعهده، ويأخذون بحقه، ويجاهدون

عدوه؛ وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم وإفلاجه حجتهم، وإعزازه دينهم، وإظهاره حقهم، وتمكينه لهم؛ وكان لعدوه وعدوهم عند ما أوعدهم من خزيه، وإحلاله بأسهم، وانتقامه منهم، وغضبه عليهم، مضى على ذلك أمره، ونفذ فيه قضاؤه فيما مضى، وهو ممضيه ومنفذه على ذلك فيما بقى، ليتم نوره ولو كره الكافرون؛ وليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

والحمد لله الذي لا يقضي في الأمور ولا يدبرها غيره، ابتدأها بعلمه؛ وأمضاها بقدرته، وهو وليها ومنتهاها، وولي الخيرة فيها، والإمضاء لما أحب أن يمضي منها، يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون.

والحمد لله الفتاح العليم، العزيز الحكيم، ذي المن والطول، والقدرة والحول، الذي لا ممسك لما فتح لأوليائه من رحمته، ولا دافع لما أنزل بأعدائه من نقمته، ولا راد لأمره في ذلك وقضائه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

والحمد لله المثيب بحمده ومنه ابتداؤه، والمنعم بشكره وعليه جزاؤه، والمثني بالإيمان وهو عطاؤه.

لآخر

الحمد لله الذي يتطول بالنعم مبتدئًا، ويعطي الخير من يشاء ويثيب عليه.

تحميد لغسان بن عبد الحميد

كاتب جعفر بن سليمان في المطر:

> الحمد لله الذي نشر رحمته في بلاده، وبسط سعته على عباده، الذي لا يزال العباد منه في رزق يقتسمونه، وفضل ينتظرونه، لا ينقضه ما قبله، ولا ينقضي ما بعده.

تحميد لأحمد بن يوسف في فتح السند

الحمد لله ولي الحمد، وأهل الثناء والمجد، خالق الخلق، ومدبر الأمر؛ المسبغ على عباده والموجب عليهم حجته؛ فليسوا يرجون إلا سعة فضله، ولا يحذرون إلا ما اجترحوا من معصيته؛ لما سبق من جزيل إحسانه، وتظاهر من امتنانه، وتقدم به الإعذار والإنذار اللذان لا يستخف بما عظم منهما إلا من استحوذ عليه الشيطان، واستولى عليه الخذلان، وقاده الحين إلى موارد الهلكة.

التحميد الثاني

الحمد لله الذي اصطفى الإسلام دينًا فطهره وأسناه، وأظهره وأعلاه؛ وزينه بكل حسنة، ونفى عنه كل سيئة، وجعله إلى مذخور كرامته سببًا واصلا، وسبيلا نهجًا، وبعث به محمدًا ﷺ ليهدي من كان حيًا، ويحق القول على الكافرين.

فيما يقرظ به الخليفة

الحمد لله الذي اصطفى أمير المؤمنين لخلافته، وتلافى الأمة بسلطانه، فجعله القائم فيهم بقسطه، والمستفرغ في التماس مصلحتهم همه.

تحميد لأحمد بن يوسف

عن ذي الرياستين إلى إبراهيم بن إسماعيل بن داود صدر فتح:

> أما بعد، فالحمد لله الذي حفظ من دينه ما ضيع الملحدون، ورأب منه ما [فرقته][٢٤] الصدعة؛ وأعاد من حبله ما حاولوا نقضه، حتى أعاد لعباده أحسن ألفتهم، ورد إليهم أجمل عودهم، من الاستشلاء بعد التردي في قحم المعاطب، والاستنقاذ بعد التوريط في المهالك؛ وبلغ خليفته القائم بحقه، المؤتم بكتابه، الذائد عن حريم الدين، وميراث النبيين، أجزل ما بلغ للخلفاء الراشدين المهديين، من إعلاء الكلمة، وغلبة الأعداء، والفوز بالعاقبة التي وعدها المتقين؛ وفرغه لما أشعر قلبه، وشرح له صدره، من إمضاء حكم الفرائض الموجبة،

واقتفاء السنن الهادية، حيث سلك به من المناهج؛ حمدا يوازي نعمه، ويبلغ أداء شكره، ويوجب مزيده.

والحمد لله على ما خصنا به من إعلاء الدرجة، وإسناء الرتبة، في مشايعة أمير المؤمنين — أيده الله — والمجاهدة عن حقه، والوفاء لله بما عقده له؛ لا نريد بما كان منا إلا وجهه، ولا نسعى فيه إلا لرضاه؛ حمدا لا يحصى عدده، ولا ينقطع أمده.

تحميد لأبي عبيد الله

أما بعد، فالحمد لله ذي الآلاء والقدرة، والطول والعزة؛ الذي اصطفى الإسلام دينًا لنفسه، وملائكته وأنبيائه ومن كرم عليه من خلقه؛ فبعث به محمدًا ﷺ اختصاصًا له في ذلك بكراماته، واصطفاء له به على عباده؛ فأعزه ومنعه، وكفاه وحاطه، وتوكل لأهله بالعلم والتمكين، والظهور والتأييد؛ فلم يلحد فيه ملحد، ولم يزغ عن قبول حقه زائغ، بعد إعذار الله إليه، وإعادة الحجة لله عليه، إلا أنزل به من الذل والصغار والاجتياح والاستئصال ما يجعل له فيه قمعًا؛ حمدًا كثيرًا دائمًا مرضيًا له، مؤمنًا من غيره، موجبًا لأفضل مزيد ثوابه.

تحميد لسعيد بن حميد في فتح

أما بعد، فالحمد لله المنعم فلا يبلغ أحد شكر نعمته، والقادر فلا يعارض في قدرته، والعزيز فلا يغالب في أمره، والحكم العدل فلا يرد حكمه، والناصر فلا يكون نصره إلا للحق وأهله، والمالك لكل شيء فلا يخرج أحد عن سلطانه، والهادي إلى سبيل رحمته فلا يضل من انقاد لطاعته، والمقدم إعذاره ليظاهر به حجته؛ الذي جعل دينه لعباده رحمة، وخلافته عصمة، وطاعة خلفائه فرضًا واجبًا على كافة الأمم؛ فهم المستحفظون في أرضه على ما بعث به رسله، وأمناؤه على خلقه فيما دعاهم إليه من دينه، والحاملون لهم على مناهج حقه، لئلا تشعب بهم الطرق المخالفة لسبيله، والهادون لهم إلى صراطه ليجمعهم على الجادة التي ندب إليها عباده؛ بهم حمى الدين من البغاة الطاغين، وحفظت معالم الحق من الغواة المخالفين، محتجين على الأمم بكتاب الله عز وجل الذي استعملهم به، ورعاة للأمر بحق الله الذي اختارهم له؛ إن جادلوا كانت حجة الله معهم، وإن حاربوا

فالنصر لهم، وإن جاهدوا كان في طاعة الله نصرهم، وإن بغاهم عدو كانت نكاية الله حائلة دونهم، ومعقلا لهم، وإن كادهم كائد فالله في عونهم؛ نصبهم الله لإعزاز دينه، فمن عاداهم فإنما عادى الذين عز بهم وحرس بهم حقه، ومن ناوأهم فإنما طعن على الحق الذي تكلؤه حراستهم، جيوشهم بالرعب منصورة، وكتائبهم بسلطان الله من عدوهم محوطة، وأيديهم بذبها عن دين الله عالية، وأشياعهم بتناصرهم غالبة، وأحزاب أعدائهم ببغيهم مقموعة، وحجتهم عند الله وخلقه داحضة، ووسائلهم إلى النصر مردودة، وأحكام الله بخذلانهم واقعة، وأقداره بإسلامهم إلى أوليائه جارية، وعادته فيهم وفي الأمم السالفة والقرون الخالية ماضية، ليكون أهل الحق على ثقة من إنجاز سابق الوعد، وأعداؤه محجوجين بما قدم إليهم من الإنذار، معجلة لهم نقمة الله بأيدي أوليائه، معدا لهم العذاب عند ردهم إليه خزيا موصولا بنواصيهم في دنياهم؛ وعذاب الآخرة من ورائهم وما الله بظلام للعبيد. وصلى الله على محمد أمينه المصطفى، ورسوله المرتضى، والمنقذ من الضلالة والعمى، صلاة نامية بركاتها، دائمًا اتصالها، وسلم تسليما.

والحمد لله تواضعًا لعظمته، والحمد لله إقرارًا بربوبيته، والحمد لله اعترافًا بقصور أقصى منازل الشكر عن أدنى منزلة من منازل كرامته.

فيما يقرظ به الخليفة

والحمد لله الذي حاز لأمير المؤمنين وراثته، وساق إليه خلافته، بالحاجة منها إليه، والرغبة منه عنها، واستخلص من خلقه من جعله ظهيرًا للحوادث، وعدة للنوازل؛ فلما أفضت الخلافة إليه حسر أمامه أحاجلته،[٢٥] وكشف قناعه لمحاربته؛ فالحمد لله الذي اختص أمير المؤمنين بخلافته، وارتضاه لولاية أمر أمة نبيه محمد ﷺ، والقيام بحقه، والذب عن حرماته؛ وحاط له ما استرعاه من ذلك، وقلده بحسن الولاية والكفاية، وتوكل له بالحفظ والتأييد، والنصر والغلبة والظهور على من عند عن طاعته، وصدف عن حقه، وابتغى غير سبيله؛ كرامة من الله تطول بها عليه، ومنة منه توحد بها له.

والحمد لله الذي جعل نية أمير المؤمنين عزيمته، وفكره ورويته، منذ أفضى الله بالخلافة إليه، وجعله القائم بإرث نبيه محمد ﷺ واستحفظه من عباده وبلاده فيما فيه عز الدين، ونظام أمر المسلمين وترهين الشكر، وإذلال الأعداء، وإشجاؤهم ووقمهم، وتحصين البيضة، وإشحان الثغور، ولم المنتشر، وضم الأطراف؛ لا يفثأه عن ذلك فاثئ، ولا يذهله عن تفقد كبير أمره وصغيره ومقابلته ذاهل؛ يستقل كثير ما ينفق من الأموال

في سد الثغور، وتحصينها وحراستها، لما يرجو فيه من جسيم الحظ، وجزيل الذخر، وكثير الأجر؛ تقربًا إلى الله واحتسابًا له في جنب ثوابه، وكريم مآبه؛ حتى رأب به الصدع، ورنق به الفتق، وأمن به السبل، وأقام به العوج، وأفلج به الحجج، وأعلى به الدرج، وأزهق به الباطل، وأحيا به الحق، وأشام به سيوف أهل الضلالة والفتنة؛ لا تأخذه في القيام بحق الله والانتصار لدينه، والانتصاح لأمة نبيه محمد ﷺ، والذب عن حوزتهم، والرمي من ورائهم، ودفع بائقة أهل الشقاق والنفاق والخلاف والمعصية عنهم فترة ولا سآمة؛ توفيقًا من الله، وتسديدًا لحرمته، وتأييدًا لعزمه، إذ كان لله شاكرًا، ولدينه ناصرًا، وبحقه قائمًا؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده، عليه يتوكل وعليه يتوكل المتوكلون.

والحمد لله الذي لم يزل منذ أفضى إلى أمير المؤمنين بخلافته، وحياه بكرامته، يختصه بالخيرة في كل ما أمضى من أمره، ويتولاه بالتوفيق في كل ما أبرم من تدبيره، ويحمل عنه أعباء ما حمله، ويعينه بتأييده على ما قلده، ويحوطه بجميل الصنع فيما ولاه واستحفظه، ويلهمه جهاد عدوه، ويحبوه بنصره؛ حمدا قاضيا لحق نعمته، موجبا أفضل مزيده.

والحمد لله الذي أورث أمير المؤمنين مواريث نبوته، وصير إليه مقاليد خلافته، وأوجب ذلك له بالقرابة برسوله ﷺ، والوراثة لوراثته من عصبته وأولى الناس به؛ ثم أعز نصره، وأعلى كلمته، وأفلج حجته، وأظهر على المشركين والمنافقين، ومن حاده وعانده من الناكثين والمارقين، والباغين والملحدين، فأتعس جدودهم وفعل وفعل.

والحمد لله الذي عرف أمير المؤمنين منذ استخلفه في أرضه، وائتمنه على خلقه، من عظيم نعمه، ولطيف صنعه، وجميل بلائه، واعزاز نصره، واعلاء يده وكلمته، وإفلاج حجته على من ضاده وحاده، إن الله بعظيم طوله ومنه ارتضى أمير المؤمنين لدينه، واصطنعه لخلافته؛ فملاه سر بالها، ورداه بهاءها وجمالها، فاستعمله بالكتاب والسنة والحق والعدل فيها؛ فأيده بقوته، وأعزه بنصره، وحاطه بكفايته، وتولى الصنع له في جميع أموره؛ فلم يكده كائد، ويعانده معاند، ويمرق عن طاعته الواجبة مارق، ويلحد في إمامته ملحد، ممن يعالن بمعصية وشقاق، أو ينطوي على غل ونفاق، إلا أوهن الله كيده، وأتعس جده، وعاجل المبادئ بعداوته، الشاهر على الدين والمسلمين سيفه، باصطلام وبوار، وأمكن منه بذلة وصغار، وقتل المسر غيره، المنطوي على غله بغيظه وغمه، وأماته بدائه وحسرته؛ إنجازًا منه جل ثناؤه لوعده، وإتمامًا لكلمته فيما وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من استخلافهم في أرضه، والتمكين في دينه؛ وله الحمد دائمًا، والشكر خالصًا، كما هو أهله وكما ينبغي أن يحمد ويشكر، لا إله إلا هو الواحد القهار.

والحمد لله الذي لم يبق لأمير المؤمنين عدوا من الناكثين والجاحدين، والمشركين والمنافقين، حاول نقضًا لإمامته التي صيرها الله إليه، وقلده إياها؛ أو صاول جيشًا من جيوشه التي أعدها للمحاماة عن دين الله ومحارمه، وإقامة سننه ومعالمه، إلا أحل به النقمة، وأصاره إلى الصغار والذلة، والبوار والهلكة، وعجله إلى ناره وعذابه.

والحمد لله الذي لم يزل يتولى أمير المؤمنين بحياطته، ويتوحد له من إعزاز نصره وإعلاء كلمته، وإفلاج حجته، وتأييد أوليائه وأنصار حقه؛ وأنزل البأس والنقمة والمثلات والسطوة بمن عانده، والذب عن حريم المسلمين وأهله؛ بما يبين به عن مكانه منه، ومنزلته عنده؛ حميدًا ربنا بذلك كما هو أهله ومستحقه، مشكورًا بعظيم منه فيه وطوله، مسؤلا لتمام أحسن عائدته وماضي سنته؛ فإن الله المحمود على نعمه، المشكور بآلائه، لم يزل ما يتوحد به لأمير المؤمنين بسلطانه من التعزيز، وفي أوليائه من التأييد بنصره، عادة يتبين بها برهانه، ويفلج بها حجته، ويدل بها على كرامته عليه، ويخبر بها عن منزلته عنده؛ ويجعل ما نزل بأعدائه المتولين عنه، الراغبين إلى غيره، الملحدين في حقه، عظة لمن قسا قلبه، وران عليه سوء عمله، ليكون ما يعطيه من البسط في ملكه، والتمهيد فيما خوله له، ويوفقه من السطوة بعدوه، والتنكيل بمن خالفه، حجتين متظاهرتين، وعبرتين بعسن؛[٢٦] فيعتصم معتصم، وينجو ناج، وليشجب [شاجب][٢٧] ويهلك هالك، وقد مضت من الله المشيئة، ووضح منه الإعذار، وكان الله بعباده عليمًا، وبأعمالهم خبيرا.

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بخلافته: وجعله وارث وحيه، وقيمه بكتابه في عباده، وأكرم هذه الأمة التي جعلها خير أمة أخرجت للناس به؛ فهو الميمون في تدبيره المنجح حويله، الميمون النقيبة، الموفق الرأي والسياسة؛ فإن الله عز وجل خلق الخلائق بقدرته، واختارهم بعلمه، فاختار أمير المؤمنين لخلافته، واصطنعه للقيام في العباد والبلاد بأمره وقسطه، وألهمه إقامة أحكامه وفرائضه، والعمل بحقه وعدله، وأبلى أهل الشرك به، وأخرها إلى أيام دولته، وحظرها عمن كان قبله؛ حتى حاز له أجرها، وأبقى له سناءها وذكرها، ونشر عنه أحدوثتها وسماعها؛ وفتح عليه البلدان القاصية، والمدائن المتنائية، التي لم تكن ترام من أهلها، ولا يطمع في زوالها؛ وذلت له الملوك القديم عتوها وعنادها، والأمم المستصعب مراسها وجهادها، الحامية في آباد الدهور حماها؛ فأنفذ فيهم مكيدته، وأنجح سعيه، ورماهم بالتخويف، وملأ قلوبهم رعبا منه؛ فأذعن مذعنوهم بطاعته، وانقادوا لأمره، وصاروا يدا وأعوانًا لأوليائه على أعدائه.

أما بعد، فإن أعظم النعم قدرًا، وأجلها أمرا، وأسرها موقعا، وأوجبها شكرًا، ما عم الإسلام والمسلمين نفعها، وعادت عليهم عائدتها، وجعل الله فيه عز الدين، وذل

المشركين؛ وقد جعل الله ذلك في خلافة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بيمنه وبركاته، وما أخلص الله من نيته وطاعته، وتأدية حقه فيما استحفظه من أمر دينه وعباده، وفرغ له نفسه، وأنصب فيه بدنه، وأسهر فيه ليله، من حياطة حريم الإسلام، والزيادة في حدودها متصلا متتابعًا، والنعم متظاهرة ومتوافرة، فسهل الصعب، وذلل له العزيز، وقصم عتاة الأعداء ومتكبريهم، والمستعصين والمستصعبين منهم، في آباد الدهور على من رامهم، وفتح عليهم حصون مدائنهم؛ وممتنع قلاعهم، وأنفذ مكيدته فيهم؛ فبين مقتول ومأسور، وشريد طريد عن محلته، وموضع عزه ومنعته، مستسلم معط قياده باخع بطاعته؛ وكذا فإن الله بمنه وطوله قد أوصل لأمير المؤمنين من صنعه له فيما قلده من خلافته، وحياطته إياها فيما يحوطه من دينه، وعرفه من كفايته فيما قام به من حقه، وأيده من نصره فيما جاهد عنه في سبيله، ما قد جعل النعمة به عامة، والشكر به لازمًا، والمنة به واجبة، والصنع عظيمًا؛ فالحمد لله على نعمه في ذلك كثيرًا.

والحمد لله الذي جعل اجتهاد أمير المؤمنين ومقام أمره وتدبيره، في آناء الليل ونهاره، فيما فيه صلاح عباده، وإعزاز دينه وإقامة حقه.

تحميد

الحمد لله الذي لما افترض من الطاعة لولاة الأمر من خلفائه جعل أوائلها ناطقة عن فضل أواخرها، وبوادئها مخبرة عن حميد عواقبها، ومواردها مبشرة بالعلو في مصادرها، بما يعقبه أهلها من السعادة في الماضين من أوليائها القائمين بحقها؛ وعاد من الشقوة على مقارفي المعصية الملحدين إليها؛ حين أقبلت بهم هوادي الفتن، وكشفت لهم تواليها عن البوار والهلكة؛ معتذرين حين لا عذر ولا حجة، طالبين للمهارب بعد أن كانت منازل السلامة بهم مطمئنة، وخائفين وقد كانت سبل الأمن لهم واضحة؛ قد جعلتهم النقمة الواقعة بهم أمثالًا سائرة، وفرقت بينهم وبين النعم الشاملة، وحصلت السعادة لمن اتعظ بهم باقية، سنة من الله فيهم ماضية، وعادة جارية، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا.

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لخلافته فحرس به دينه من البغاة الناكلين عنه، واختصه باعلاء رتب كرامته، وافترض طاعته على عباده، وجعلها بمواقعها في دينه نظامًا لسائر فرائضه، فتاركها مفارق لعصمة حقه، خارج من جملة الأمة التي سبقت لها رحمته؛ يستنصر أشياع الباطل والله خاذله، ويغالب الحق والله غالبه، ويطلب ما لا

سبيل له إليه والله طالبه؛ حتى يخلجه أجله عن أمله، وأقدار الله فيه عن تقديره، ونفوذ قضاء الله فيه عن نفوذ حيله؛ فضلا من الله على أوليائه وقضاء منه عدلا في أعدائه، والله ذو الفضل العظيم.

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لرعاية عباده، وحفظ بلاده، وتنفيذ أحكامه، وإقامة حدوده؛ فجمع به الألفة، وكف به بوائق الفتنة، وأصلح به أمور الأمة، وسكن به الدهماء، ودفع به عظيم البلاء، وأنقذ به من الجهد واللأواء؛ وجدد لرعيته العبر الشافية، والعظة الناهية، وجعل همه السعي لربه، وطلب الحق الذي أوجبه له من خلافته، ليؤدي فرضه في الأمانة التي حملها؛ فيوجب له بذلك ما لا يزول ولا ينقطع من ثوابه، فأعمل رأيه في الرأفة بمن ولاه أمره، والحياطة له، والعناية بصلاحهم؛ فأعطاه لين الموعظة في وقت التأني، والنفوذ لإقامة الحجة والبينة، وشدة السطوة على من غمط النعمة وعند به الإصرار عن النزوع والفيئة؛ منا من الله وتفضلا، وإحسانًا وتطولا، والله ذو فضل عظيم.

ويسأل الله أمير المؤمنين مبتدئًا ومعقبًا، وأولا وآخرا، وقبل كل مسئلة، وأمام كل رغبة، ومقدمة كل طلبة؛ أن يصلي على صفوته من عباده، وخيرته وخاتم أنبيائه ورسله، محمد عبده ورسوله، أفضل صلواته، ويبارك أكثر بركاته، وأن يديم له كرامته، ويجري عنده أجمل عاداته، ويتمم له ما اختص به من إحسانه؛ حتى يملأ الأرض عدلا وقسطا، والإسلام تأييدًا وعزًا، والشرك ذلا وقمعا؛ إنه ولي كل نعمة، ومنتهى كل رغبة، وغاية كل حاجة.

ولم يزل أمير المؤمنين منذ الوقت الذي أفضى الله إليه بخلافته، وأكرمه برد حقه من إرث نبوته، يتلقى عظيم النعمة في ذلك بالإخلاص للنية والطوية في الصفح عن كل زلة، والإقالة لكل عثرة، والتعمد للهفوة وقبول الفيئة، والإنابة ممن عظم جرمه، وجل ذنبه، وظن أن لا توبة له؛ وكلما جدد الله له نعمة، جدد له في ذلك نية حسنة، شكرًا لله عز وجل على ما ابتدأه به، وارتهانًا لنعمه عنده، واستزادة من جميل مواهبه، وتقديم الاهتمام بما فيه صلاح رعيته، واستقامة أمورها، وحياطتها والذب عنها، وكف الأذى والمكروه عن الداني والقاصي منها؛ ويتخلص إلى ذلك بكل ما يجد إليه السبيل ويجتهد فيه، ويعمل لكثرة أوقات دهره في كل ما بلغه محبته نظرًا لها، وحدبا على كافتها، وإشفاقًا من سوء حالها؛ إذ كان لها والدا برا، وراعيًا كالئا، وناظرًا لطيفًا؛ ويستعمل كل ما يرجو ائتلافها، والإبقاء على أحوالها، والسلامة لها في دينها ودنياها؛ وينصب لذلك ليله ونهاره، ويذيب فيه نفسه، ويجعله شغله دون غيره.

والحمد لله الذي اصطفى أمير المؤمنين بخلافته، وأكرمه بإرث نبوته، وجعل خلافته خلافة يمن وبركة، ولطف وسعادة؛ انتاش بها أولياءه من موارد الهلكة فرفع منزلتهم، وشرف درجتهم، وأعلى كلمتهم، وأذل بها أعداءهم، وجذ دوابرهم، ورد دائرة السوء عليهم؛ وحباه مزية نصره وتمكينه، وإعزازه وتأييده، وإظهاره على من ناوأه وعند عن حقه، وصدف عن طاعته؛ فإن الله لما اختار أمير المؤمنين لخلافته فأيده بها، جعل الحق نيته، وإعزاز الدين بغيته، ومجاهدة أعداء الله شرقًا وغربًا وبرًا وبحرًا نهمته وإرادته؛ ثم يسره في ذلك لما أحسن به عونه، على من استحفظه وقلده، فضلا من الله ونعمة، والله عليم حكيم.

والحمد لله الذي كان لسابق علمه وسالف قضائه، الذي لا يستطيع الناس رده، ولا منعه ولا صرفه، ما ولى المؤمنين من خلافته، وما ابتعثه له من النصر لدينه، والطلب لحقه، والجهاد لأعدائه؛ وأحسن في ذلك عونه فيه وبلاءه، وأيده في نفسه، لم ينقصه خذلان خاذل، ولا مخالفة من خالف، ولم يزد أمره في شيء من ذلك إلا تماما وإحكامًا؛ حتى أظهر حقه، وأفلج حجته، ومحق باطل أعدائه، وأدحض حججهم؛ وجعل أهل طاعته حزبه الغالبين، وجنده المنصورين؛ وجعل عدوه وعدوكم حزب الشيطان الخاسرين، وأولياءه الأذلين؛ بغير حول من أمير المؤمنين في شيء مما ولاه وأبلاه، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لأبي عبيد الله

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بما أصار إليه من الخلافة وإرث النبوة، وجعله القائم بأمر عباده وبلاده، والمحيي لسننه، والذاب عن دينه وحقه، والمناصب لأهل الشرك والجحود به؛ ثم نصره وأظهر فضل أيامه ودولته، ومكن له في بلاد عدوه، وجعل كلمته العليا وأنصاره الغالبين، ومن ناوأه من أهل الخلاف الأذلين المقهورين؛ وعرفه من نعمته في ذلك ومنته وجميل صنعه وعاداته، أحسن ما عود أحدًا من أوليائه الذابين عن الإسلام وأهله؛ حمدًا متتابعًا لا انقطاع له ولا انصرام، دون بلوغ حلقه، وقد كان كذا وكذا.

ما يكتب به في المخالفين في وقت الهزيمة

نكصوا على أدبارهم منكوبين مهزومين، قد ضرب الله وجوههم، وفت في أعضادهم، ومنح الأولياء أكتافهم؛ فقتلوهم في كل فج، وعلى رأس كل تلعة ومهرب ومسلك؛ أباد الله خضراءهم وغضراءهم، وحصد شوكتهم، وفل حدهم، وأباخ[٢٨] نيران ضلالتهم وكفرهم، وشفى منهم الصدور، وأدرك منهم الإحن؛ ونفل المسلمين أموالهم وذراريهم، وجعلهم لهم خولا وعبيدا، وأورثهم أرضهم وديارهم، وأحل الله بهم من البأس والنقمة والجائحة والظهور والغلبة جزاء من الله لمن أخلد إلى المعصية وابتغى غير سبيله المسلوكة. وكذلك يفعل الله بالقوم الظالمين، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، إن الله لا يخلف الميعاد. ثم أنزل الله عز وجل من صار إلى الأمصار منهم هربًا، واعتصم بالحصون، وتعوذ بالجبال، ولاذ بالقلاع، ولجأ إلى الأودية، من صياصيهم، وأمكن من نواصيهم، واستخرجهم من أوزارهم ومعاقلهم ومتعوذهم، وأخذ أسيرًا ذليلا منكوبًا خائفًا قد نخب الوجل قلبه وملأ الرعب صدره، متوقعًا أن ينزل الله به من النقمات والمثلات ما لا مرد له عن مثله من القوم الظالمين، وفشت في الكفرة الجراحات، وعضتهم السيوف، وشرعت فيهم الفنا، وهرتهم نار الحرب، وغالهم النزال، ومارسهم الأبطال، واستحر فيهم القتل، فصبر لهم الأولياء أحسن صبر، فلم يطيقوا بالموت مرامًا ولا على الحرب مقامًا.

في صفة الخالعين

الناصبين لدين الله، المكذبين بآياته، الجاحدين رسله، الجاعلين معه إلها، لا إله إلا هو، لطول مدتهم، وشدة شوكتهم، وصعوبة مرامهم، وقطعهم السبل وانتهاكهم المحارم وسفكهم الدماء التي أوجب الله على من سفكها بغير حلها واقترف واحتمل وزرها، أليم العذاب وشديد العقاب، فأبوا إلا تماديًا في ضلالتهم، وعتوا في طغيانهم، وثبوتًا على عصيانهم، ومقامًا على كفرهم، لأحداثه السالفة، وغوائله المتقدمة، وبوائقه المشجية، فوقف مميلا بين ثكل التقدم وحقيقة الاصطلام في التأخر، دعاهم إلى الفيئة والمراجعة والإنابة وقبول الأمان والدخول في الطاعة، استظهارًا بالحجة عليهم، ورجاء لصنع الله فيهم. فلما بلغهم نزولي فيمن معي، جمع أصحابه، وضم جنده، وتحرز في معسكره، وخندق على منزله، واحترس بجهده، فأقمت معسكري، وأنا مع ذلك في كل يوم أوجه رسلي وأدعوه إلى حظه، من طاعة أمير المؤمنين والدخول في أمانه، وأعلمه أن له نظراء

ممن عمط الطاعة، وسفه الجماعة، وقد ركضوا في الفتنة عمرهم وسعوا فيه دهرهم، فانتشر خبرهم، وكثر تبعهم، وكبر وزرهم، وثقل وقرهم، ثم أذعنوا لطاعتهم، واستقلوا ناهضين من عثرتهم، ومنتعشين من زلتهم، فغفرت ذنوبهم، وقبلت توبتهم، وفسح لهم في أمانهم، وشرفت منزلتهم، واستبدلوا بالخوف أمنا وبالذل عزا؛ فأبى به ميل الهوى، وغلبة الشقوة، ومستعلي الغواية، والقدر المحارب، والقضاء المحتوم. وتقدمت في موافقتهم وترغيبهم، والأخذ بالمخنق منهم، من غير قتال، ولا تناول سلاح، ولا تناوش صيال،[٢٩] وعرضت عليهم التوبة، ودعوتهم إلى الإنابة، وأعطيتهم الأمان، وأعلمتهم أنهم إن قبلوا حمدتهم وأخمدت نار الحرب بيني وبينهم، وإن أبوا إلا تماديا في غيهم ونكوصًا على شقائهم، وليت مناجزتهم وعرفت من الله الخيرة في محاربتهم، واستعنته عليهم واستكفيته أمرهم، ورجوت حسن عادته عند أمير المؤمنين في أمثالهم. ثم وجهت الأولياء فنفذوا نحو عسكرهم ليلا وهم متفرقون في رحالهم، مغترون في أوطانهم، قد أمنوا خدع الحروب ومكرها ومكيدتها، ووقعة البيات وهولها، إلا طائفة منهم أهل عدد وعدة، وبأس في أنفسهم وقوة، اتخذوا الليل جملا، وسروا نحونا يرجون غرتنا ويأملون غفلتنا، فوقف جندنا بمكانهم آخذين أهبتهم، متمسكين بالطاعة فيما به إمرتهم، فأسرعت إليهم من أعدائهم طائفة فدفعوهم عن أنفسهم، ونالوهم بجراحات مع قتلى منهم عند تناوشهم، ثم نكصوا على أدبارهم، ورجعوا القهقري على أعقابهم إلى الباقين من سريتهم، فاستجاشوهم فاجاهم بالمكانفة والمؤازرة، وأقبلوا بحميتهم وحنقهم حتى حملوا حملة رجل واحد، وضاق الفضاء وطارت أفئدة جندنا رعبا من حملتهم، وبلغت القلوب الحناجر منهم، إلا طائفة قليلة من لواقح الحرب ومواضي رواسخها وأشبال لبدتها، تزينوا بالطاعة فأموا حسن العاقبة، ونصروا الدين، فوثقوا بالتمكين، انتدبوا إليهم، ووقفوا لهم، وازدادوا بصيرة في أمرهم، ونفاذا وجدا في اجتهادهم ومجاهدتهم، فثبتوا قائمين بالقسط في أحوالهم، قائلين بالعدل في أملائهم، يسألونهم الكرة بعد الكرة، ويعدونهم الغلبة، ويمنونهم السلامة، ويضمنون لهم الغنيمة؛ ففاءوا إليهم، ورجعوا إلى الحق لله عز وجل عليهم، فشافعوا ساعة بالقنى بعد تراميهم إرشاقًا بالسهام فلما رأى أعداء الله جدهم، وعرفوا صدقهم، وخافوا حدهم، نكصوا على أعقابهم، يريدون اللحاق بمعسكرهم، وتحرك أصحابنا في طلبهم، ورجوا سوء الصباح لهم، فأمعنوا في أثرهم؛ فلما أحسوا الفساق أعطوهم الضمة وولوا إلى ديارهم لا يلوي قريب على قريب، ولا ذو رحم على حبيب؛ ونالتهم القنى فدسرتهم، وعضت هامهم السيوف فكلمتهم، وحيل

بينهم وبين الدخول من باب عسكرهم، فأخذوا في غير طريقه منهزمين، قد فل الله حدهم، وقلل كثرتهم، وقتل عامتهم؛ ورجع أصحابنا إلى معسكر أعدائهم بعد التشريد والتفريق بجماعتهم، فأحاطوا بهم في آخر ليلتهم، فلما رأوا غفلتهم، وأمنوا غرتهم، وانتهزوا مكان الفرصة منهم أحاطوا بهم وهم نائمون، فارون غافلون متفرقون، فوضعوا السلاح فيهم، ضربًا بالسيوف، وطعنًا بالرماح، وضربًا بالأعمدة، وذبحًا بالشفار، لا يشوون من جرحوا، ولا يبقون من كلموا، غير مدفوعين ولا ممنوعين، حتى انثنت السيوف، وتحطمت القنى واندقت الأعمدة، وكلت الشفار، وبقيت منهم عدة يسيرة وشرذمة قليلة ممن لم ينله القتل، فأخذوا أسرى، وأوثقوا حديدًا، وكبلوا قيودًا، وكان أول رأس أتاني بخبره[٣٠] بشيرهم وأسرع به إلى ذو المعرفة منهم رأس[٣١] عدو الله المارق الباغي، الشاق لعصا المسلمين، ملأني رئيس ضلالتهم، وقائد جهالتهم، ومستغوي جماعتهم، فعرفته بحليته ونعته وصفته في عدد كثير من رءوس قواده وأهل الفتنة وأئمة البدعة، فلم يلبثوا إلا ريثما تصدعوا في كل جبل وخمر، منهزمين هاربين، لا يستطيعون لما أتاهم من عذاب الله دفعا ولا منعا بأيد ولا قوة؛ ولا يلجئون إلى ركن وعصمة، قد تشتت بهم نظامهم، وفارقهم وجوههم وأعلامهم، فأخذهم أسرًا قسرا قد منهم النصب، وملأ قلوبهم الرعب وتخرمتهم الوقائع، ونخبتهم الهزائم، وتحيفهم القتل، وغلب الله عز وجل لأمير المؤمنين على حصنه الذي كان مناف عزه، وموضع منعته في نفسه، ومجتمع عدته، ومادة قوته، فقوضوا عساكرهم، وأقشعوا عن حصنهم يتبع آخرهم أولهم، متحيرين متلددين، أذلة خاسرين، فتفرقوا لا نظام لهم ولا جامع لشتاتهم. فلما استحر القتل فيهم، وفشت الجراحات في عامتهم، وطحنتهم الحرب بكلكلها، وألموا وقع حديد أنيابها ومساعرها، قذف الله الرعب في قلوبهم وزلزل بهم أقدامهم، فولوا منهزمين مغلولين، وركب المسلمون أكتافهم، يقتلونهم في رءوس جبالهم، وخلال غياضهم، وبطون أوديتهم، ومقاصي تلاعهم، وفي كل ناحية من نواحيهم، حتى عجز الليل دونهم، وأعجزوهم هربًا في معاقلهم.

وفي العصاة

حتى إذا ظن أن قد عز بضلاله، وتحصن بمعاقله، واستكمل قواه، وكثف تدبيره، ولجأ إلى مانع منه ودافع عنه، عطفت عليه عواطف الحق بأولياء الحق وأنصاره، ناقضين ما أبرم، ومتداولين ما سد، ومتوغلين إلى غيه ببصائرهم، وإلى باطله بحقهم، فاستنزل عن موضع عزه قسرًا، وأمكن الله أولياءه أسرا؛ سنة الله فيمن عند عن سبيله، وألحد في دينه، ومرق عن الطاعة وثائقها، واستبدل بالحق ومنهاجه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا، ولن تجد من دونه ملتحدًا ولا نصيرًا؛ حتى إذا تراءى الجمعان تبرأ الشيطان من حزبه، وأرهق الله باطلهم بحقه، وجعل الفلج والظفر لأولي الحزبين به، بذلك جرت سنة الله في الماضين من خلقه، وذلك ما وعد من تمسك بأمره وطاعته.

وفي مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء في أحوالهم

لما بلا من طاعته، واختبر من نصيحته، ويمن نقيبته، وشدة شكيمته، وصحة عزيمته، وصدق نيته، وثقل وطأته على أعداء الله وأعداء الدين والمسلمين، وعلمه بمراوضة الحرب وممارستها، ومكايدة الأعداء ومواقفتهم فيها، فشمر تشمير أهل الحسبة وحسن الظن بالله من غير ونية ولا فترة ولا بقاء جد ولا اجتهاد، راجيًا أن ينجح الله سعيه، ويفلج حجته، ويظهره على عدوه من الاستقلال الذي حمله، والاضطلاع بما أسند إليه، والامتثال لسيرته، والانتهاء إلى أمره، والقبول لأدبه، والخفوف بما يستنهضه له من حروبه وأموره مثل الذي جعل عند فلان: يفضلهم بطوله، ويطولهم بمحاسنه، ويتقدمهم بحسن بلائه وغنائه، ومواقفه ومساعيه، لم يختبره أمير المؤمنين في جميع خصاله إلا وجده عند الاختبار والتحصيل سالكًا لمناهجه، قابلا لأمره، متبعًا لأثره، ساميًا بهمته إلى أقصى الغايات وأعلى الدرجات، حتى صار عند أمير المؤمنين مقدما في القدر والرتبة، مخصوصًا بالمنزلة والرفعة، يرى ذلك قليلا في كثير ما وجب بطاعته ونصيحته، فبارك الله عليه وليا ظهيرًا. فأقدموا متوكلين على الله مسلمين لأمره صابرين على ما نالهم من اللأواء والجهد والتعب وكلب الشتاء وحمارة القيظ، وصعوبة المرام من أعداء الله الكفرة، يرجون نصر الله وتنجز ما وعد الصابرين والمجاهدين في سبيله من الظفر والنصر والغلبة على عدوهم، توحد به من نصرهم وإعزازهم أن كان الله عز وجل تكفل لأوليائه بالنصر والعز والحيطة، وجعل حسن العاقبة لهم، وكبت من حادهم وأخلد إلى المعصية

والكفر والأسر، ليكونوا بذلك عظة ونكالا لمن أمهله الله منهم، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم؛ أعظمهم غناء، وأحسنهم بلاء، وأشدهم صولة، وأقساهم نكاية، وآمنهم سريرة، وأمضاهم عزيمة، وأربطهم جأشًا، وأصدقهم بأسًا، وأملأهم للأقران، وأرعاهم لوثائق الإيمان، وأشدهم تحدبًا على السلطان، فآزره بهم، وحصن أطراف خلافته بأيديهم، فكفوه المهم وقاموا دونه بالملم، غير مستطيلين بغناء، ولا متعرضين لطلب جزاء، قد تعبدهم الوفاء، وغنوا بقربة الولاء؛ فإن الله جعل آباءه أعلاما في الطاعة يهدون إليها وأوليته قادة إلى سبيل النصيحة يتمسك المناصحون بآثارهم فيها، باقيًا على كر الأيام ذكر مساعيهم، وزائدة على تصرف الأيام حقوقهم، وباديا للعيون حميد أفعالهم، لا تنصرم الأخبار عن سالف لهم إلا وصلوه بحادث، ولا يتقادم لهم من بلائهم أول إلا اتبعه آخر. ففلان يجري في أمره على منهاج قد أوضحوه له، ويسلك في الطاعة طريقًا قد سهلوا له مذاهبه، ويتمسك بعرًا وثيقة قد رأى آثارها على من تقدمه، والله محمود. ولم يزل الله يعرف أمير المؤمنين في كل ما أسنده إلى فلان من أعماله وقلده من أموره، المبالغة في قضاء الحق عليه ويمن النقيبة فيما يتولاه، والاجتهاد في كل ما قربه من الله وخليفته. وأمير المؤمنين يحمد الله على ما يخصه به من نعمته، وإياه يستعين على قضاء حقه، إنه سميع قريب. فإن كتابك ورد على أمير المؤمنين بما لم يزل يتطلع إليه منك ويؤمله عندك، ويرجو أن يوفقك الله فيه لرشدك، ويؤثرك منه بحظك، للذي كان يبلغه وينتهي إليه من خبرك، في أحوالك وتصرفك في خصال الخير، وتنقلك في درجتها، مساميًا لأهل الفضل في مراتبهم، متزينًا بصالح أفعال الملوك في قصد سيرتهم، وحسن طريقتهم، ولين أكنافهم. فحقق الله ظنه بك، وأجاب دعاءه لك، وبلغ بك أمنيته، وأعطاه فيك رغبته. وكنت فيما هديت له بانقيادك إليه راغبًا، ودخولك فيه محتسبًا، مستوليا على أسنى الأمور مؤونة، وأفضلها ذخيرة، وأعلاها درجة، وخيرها عاقبة، وأعمها سلامة، وأمنعها كهفًا، وأبقاها شرفا، وأعدلها حكما، وأطولها سلما، مستحقًا بذلك على الله عز وجل زيادة الملك فيها، وبهاء الثروة، وانبساط القدرة، واتساع المملكة، وظهور الغلبة وعز التمكين، والنصرة في الدار التي حبيت فيها بقليل ما ترجو أن تصير إليه من ثواب الله عز وجل وحسن مجازاته بالنعيم المقيم في دار الأمد، ومحل الأبد، بما لا يبلغه إحصاء، ولا يكون له انتهاء؛ وملأه فرحًا وابتهاجًا، وسرورًا وجذلا، ورجاء لك من الله عز وجل حسن عونه وتوفيقه أن يغلب لك على حظك، وأن يأخذ إلى تقواه بقلبك ويجعل فيما عنده رغبتك، وإلى ذلك سموك وهمتك. وليس ينفك أمير

المؤمنين مقتفرا فيك أثرًا يحمده، ومتصفحًا بخبر يبهجه، ومستحدثًا نعمة من الله عز وجل يرجو اتصالها واتساقها لديه بك، حتى يتناهى إلى الدرجة العليا، والغاية القصوى، فيما [يبتغيه][٣٢] من اجتثاث أرومة الفسقة وقطع دابرهم. وبالله الثقة والحول والقوة، متعرفًا من الله فيما فارقه من جهاد عدوه أتم مصادق وعد القائمين بحقه، الصابرين في جنبه، وأحسن ما أبلى، ذائدًا عن حريم، ومحصنًا لبيضة، ومدافعًا عن ملة، فشمر شاريا لله نفسه، طارحا عنه لباس الغفلة، متجافيًا عن مهاد الوطأة، وليس تدخله الخلة والوحشة على من كنت قريبًا منه، ولا يمتنع لأمير المؤمنين طرف أنت فيه، ولا أمر يعين عليه ويتمسك بسبب من أسبابه.

وصف الأولياء في الكتب

وصار أهل السمو إلى الدرجة العليا، والاعتصام بالعروة الوثقى، من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، منشرحة صدورهم بمكانفته، منبسطة أيديهم بمعاونته؛ وقسم لأمير المؤمنين من أولياء دينه وأنصاره، قوم آزرهم بالنصر، وكنفهم باليقين، وألف بصائرهم على الحق، وأيدهم بمؤيدات التقوى؛ فلما أمرهم أطاعوا أمره، ولما فرضوا في ذات الله طاعته، فرض الله نصرهم وتمكينهم، فجاهد مجاهدهم مستبصرًا محتسبًا، وقام قائمهم بالحق عليه مخلصا مجتهدًا؛ وقادتهم طلائع الدين ودواعيه أرسالا قدما، فاتبعوا سبيله لا ناكلين عن إقدام، ولا متوقفين عن ارتياب، ولا متهيبين، مع دخائلهم وبصائرهم، عدوا ولا عنادا؛ طالبين بثأر الدين بغاته، وبطوائل الإسلام عداته: من صنوف أمم الكفر ومردة النفاق وأئمة الملحدين؛ متقلدين للحق ونصرته، ولئن تمم الحق بهم ومضى، ولين مع الحق من نكث عنه بألسنتهم وأيديهم، حتى فتح الله عز وجل لأمير المؤمنين معاقل الشرك وأممه، وأناخ الباطل وأركانه، وأعلام البدع وأتباعها، فضلا من الله ونعمة، والله عليم حكيم؛ إن هززتهم قطعوا قطع الحسام، وإن أجريتهم في عظيمة وقعوا وقع الجياد، وإن استغنيت ودام الغناء لك عن جميع العاملين، كانوا رصدًا لك فوق أعناق الحاسدين.

ما يقرظ به أمير المؤمنين في أواخر الكتب

ليعرفوا موقع نعم الله عند أمير المؤمنين، يحوطه به في أوليائه، من النصر والتمكين، وعلى أعدائه من الوقم[٣٣] والتوهين؛ ويشكر الله على النعمة في ذلك، إن الشكر محصن للنعم، وأمان من الغير، لتحلو مواقع النعمة عليهم، فيما يجمع الله بأمير المؤمنين من كلمتهم، ويحوط من حريمهم، ويحل من بأسه ونقمته بمن صدف عن سبيله وحاول تشتيت جماعتهم وتوهين حقهم، ويقابلون ذلك بما ترتبط به نعمه، ويستدر مزيده.

سعيد بن حميد

ليشكروا الله على ما منح خليفته من هؤلاء المراق الخارجين من جماعة المسلمين، فإن الشكر أمان من الغير ومادة للمزيد.

(٣) التحاميد في أواخر الكتب

تحميد لسعيد بن نصر في آخر كتاب فتح له

الحمد لله المعز لدينه، المظهر لحقه، المؤيد لأوليائه، الصانع للإسلام وأهله، الناصر لخليفته، الحافظ لما استحفظه، المتوحد بالنعمة عليه فيما حمله.

تحميد لإبراهيم بن العباس في آخر كتاب فتح

فالحمد لله المزيل لما يمهد المبطلون، ويمكر به الماكرون، ويكيد به الملحدون، تمكينًا لعبده وخليفته، وذبًا عن دينه وحقه، وإظهارًا لأوليائه وحزبه وإمضاء لعزائمه وقدرته، منعمًا قادرًا، ومموليا ممهلا، عدلا إذا استدرج، متفضلا إذا أنعم، حمدا يستنزل به نصره، ويبلغ به رضوانه، ويمترى بمثله فواضل مزيده.

تحميد في فتح لإبراهيم بن العباس

والحمد لله بجميع محامده التي حمد بها، على جميع آلائه وجميل بلائه، فيما ولى به خليفته، ونصر به دينه، وأقام به حقه، وأعز به وليه، وقمع به من ألحد عن سبيله، حمدا يؤدي حق نعته، ويوجب به أفضل مزيده بمنه وطوله.

تحميد لأبي عبيد الله في آخر كتاب

فالحمد لله على ما يحدث لأمير المؤمنين في دولته وسلطانه، ولعامة المسلمين من صنعه وكراماته، في جسيم الأمور ولطيفها، وخاصها وعامها، بما يجعله للنعمة تمامًا، وعلى ما يحل بعدوه من بأسه وقوارعه، ويوقع بهم من جوائحه واستئصاله، ما يكون لموعوده إنجازًا، حمدا يبلغ رضاه ويستوجب مزيده.

تحميد آخر

الحمد لله الذي تمم لأمير المؤمنين نعمته، وأكمل دعوته، وجعل العاقبة فيه لمن اختاره لخلافته، ورد إليه من شد عنه من رعيته، وأتى أمير المؤمنين بصنعه على حد نيته وقدر أمنيته، ولم يفل رأيه ولم يخلف ظنه، حمدًا كثيرًا دائمًا بما يزكو عنده فيتقبله، ويرفع إليه فيبلغ رضاه؛ حمدًا يكون لأسبغ نعمه جزاء، ولأفضل إحسانه كفاء، وللمزيد من فضله وإحسانه موجبًا، وإلى أعلى الدرجات عنده مؤديًا، وللخلود في جنته وسيلة وسببًا.

آخر: الحمد لله الذي جمع لأمير المؤمنين ما حباه بمزية نصره وتمكينه وإعزازه وتأييده، وإظهاره على من ناوأه وصد عن حقه، وصدف عن طاعته، ووفقه لاختصاص فلان بما وكله إليه وعصبه به من أعباء أموره وجلائل أعماله، وأجرى بفلان وعلى يديه وبركته وسعادة جده ويمن طائره، من تتابع الفتوح، وتواتر النصر، وإقبال الصنع، وإعلاء الحق وإنارته، وإزالة الباطل وإبادته، حمدا يؤدي حقه، ويرى عزه، ويمير من أحسن[٣٤] مزيده، بكرمه وجوده.

آخر: الحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بالخلافة، وخصه بالإمامة، وقلده من أمور عباده وبلاده ما تولاه بكفايته وكلاءته وتأييده وحياطته، حمدا يوجب المزيد من فضله.

تحميد لإبراهيم بن العباس

الحمد لله الذي أنجز وعده، ونصر عبده، وأيد جنده، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقًا وغربًا مشفوعة بين اقامة حق وإدالة باطل وإزالة عاند وإبادة عائد وإقالة[٤] مستقيل. ويسأل الله أمير المؤمنين، مسألة العبد سيده ومولاه رغبة إليه متذللا له أن يصلي أفضل صلواته عنده على أكرم أنبيائه.

دعاء أمير المؤمنين في الكتب والدعاء له

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه، أن يكنفه فيما حباه واستحفظه عليه بأفضل تأييده وأعز نصره، وأن يهب له مع كل نعمة يجددها له حارسًا من شكرها، يتابع به أفضل مزيده، فإن النعمة منه، والشكر بتوفيقه، والمزيد لمن شكره.

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه وربكم ووليّ النعم عليه وعليكم، أن يلهمه وإياكم أداء حقه وشكر نعمته وحمده عليها، ويطوقه وإياكم أفضل الأعمال وأرضاها عنده وأشدها استيجابًا لما وعد الشاكرين من مزيده؛ إنه سميع قريب.

وأمير المؤمنين يسأل الله الذي ولاه خلافته وأعلاه بها، أن يطوقه ما حمله، ويلهمه العدل بين رعيته، ويلهمهم نصيحته وطاعته، ويصلح أمرهم به في ولايته وخلافته. ويرغب إلى الله الذي أيده بنصره ومكن له بغير حول منه ولا قوة، أن يلهمه وإياكم شكره وذكره وخشيته، ويشمله وإياكم بطاعته ومرضاته ومحبته، وأن يعرفه وإياكم الزيادة في نعمه والنصر على عدوة والتمكين في بلاده؛ إنه ذو فضل عظيم.

وإلى الله يرغب أمير المؤمنين في إعانته على نيته وتبليغه منتهى سؤله وغاية همته وإعزاز دينه وإذلال من صد عن سبيله؛ إنه سميع قريب. وأمير المؤمنين يسأل الله الذي دل على الدعاء تطولا وتكفل بالإجابة حتما، فقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أن يجمع على رضاه ألفتكم وأن يصل على الطاعة حبلكم، وأن يمتعكم بأحسن ما عودكم من مننه، ويوزعكم عليها من شكره ما يواصل لكم به مزيده، وأن يكفيكم كيد الكائدين، وحسد الباغين؛ ويحفظ أمير المؤمنين فيكم، أفضل ما حفظ به إمام هدى في أوليائه وشيعته؛ ويحمل عنه ثقل ما حمله من أمركم؛ وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوي من جزائكم بالحسنى، وحملكم على الطريقة المثلى، وبه يرضى لكم ناصرًا ووليًا، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرًا.

ويسأل الله أمير المؤمنين، أن يحسن على صلاح نيته عونه، وأن يتولاه فيما استرعاه، ولاية جامعة، لصلاح ما قلده، إنه سميع قريب.

ويسأل الله أمير المؤمنين الذي بيده مفاتيح مقاديره وفواضله، أن يصلي أفضل صلواته على أفضل أنبيائه، وأن يجعل ما ادخر لأمير المؤمنين إلى دولته وخلافته، وحباه به من وسائل الخير عنده، أن يجمع إلى أحسن توفيقه لما يرضى من شكره وحسن معونته على ما أصلح له ربه، فإنه شاكر يحب من شكره ويوجب لمن وفق لشكره مزيدًا بمنه وطوله وفضله وإنعامه، إنه جواد كريم.

ويسأل الله أمير المؤمنين مبتدئًا ومعقبًا وأولا وآخرا، وقبل كل مسألة، وأمام كل رغبة ومقدمة كل طلبة، أن يصلي على صفوته من عباده وخير خلقه وخاتم أنبيائه ورسله، محمد عبده ورسوله، أفضل صلواته، ويبارك عليه أكثر بركاته؛ وأن يديم له كرامته، ويجري عنده على أجمل عاداته، وأن يتمم له ما اختصه به من إحسانه، حتى يملأ الأرض عدلا وقسطًا، والإسلام تأييدًا وعزا، والشرك ذلا وقمعًا، إنه ولي نعمته ومنتهى كل رغبة، وغاية كل حاجة، وهو على كل شيء قدير.

وأمير المؤمنين يقول: الحمد لله طاعة لأمره، واعتصامًا من الفتنة بشكره، واستدامة لنعمه المتزايدة[٣٥] عنده، إنه سميع قريب.

وأمير المؤمنين، يسأل الله السامع كلام من جهر، والعالم بغيب من أسر، المطلع على ضمائر العباد ووسوستهم، والمستنقذ من يشاء برحمته، والممتن على من يشاء بقدرته، أن يجمع على الحق أهواءكم وينصركم على أعدائكم ويصلح ذات بينكم ولا يكلكم في موطن من مواطن اللقاء، والتحاكم والتناجز إلى أنفسكم، ويكفيكم ويكفي بكم إنه سميع قريب.

الدعاء لأمير المؤمنين في أواخر الكتب

ونسأل الله أن يهنأ أمير المؤمنين ما صنع له، ويعينه على شكر ما أولاه، إنه ولي ذلك وإنا إليه فيه راغبون والسلام.

وله: ونسأل الله أن يهنأ أمير المؤمنين الكرامات التي يتابعها، والنعم التي يظاهرها عليه، والفتوح التي جعلها في خلافته، وولايته ودولته، ويهب له من المعرفة بحقه في ذلك والشكر له بحسن بلائه فيه، ما يبلغ أعظم رغبة وأقصى أمنية، من ذخائر الخير وفضيلة الأجر وحسن الثواب في الدنيا والآخرة.

أسأل الله لأمير المؤمنين في غابر أموره، أحسن ما عوده في سالفها، من السلامة التي حرسه بها من المكاره، والعز الذي قهر له به الأعداء، والنصر الذي مكن له في البلاد، والهدى الذي وهب له به المحبة، والرفق الذي أدر له به الحلب، والاستصلاح الذي اتسقت له به الرغبة، حتى يكون بما أعطاه من ذلك، وما هو مستقبل به، أبعد خلفائه ذكرًا، وأبقاهم في العدل أثرًا، وأطولهم في العمر مدة، وأحسنهم في المعاد منقلبًا.

أسأل الله لأمير المؤمنين نعمة لا تزول، وكرامة لا تنفد، وعزا لا يضام، ونصرا لا يغلب، وكفاية ينتظم بها جميع الصلاح، حتى لا يكون بأول من ذلك أسعد منه بآخر، ولا بماض أسر منه بمستقبل.

أسأل الله لأمير المؤمنين في عاقبة كل نعمة أفضل ما وهب له في عاجلها، حتى يجعل كل نعمة أنعم بها عليه، وكرامة حازها له، موصولة بالتمام، محوطة بالحفظ، مكلوءة من الغير، ممدودة إلى طول غايات البقاء؛ لا يشوب صفوها كدر، ولا سلامتها غير، ولا سرورها تنغيص؛ وهنأ الله أمير المؤمنين الظفر، وأدام له عادة النصر والتمكين الموضح، وحجته المدحضة لحجة أعدائه، والغلبة المظهرة لحقه، المجتاحة لمن خالفه؛ ثم لا برحت نعمة الله راهنة بمثله في الأولياء نصرًا، وفي الأعداء إباحة، وفي الناكثين تنكيلا.

سر الله أمير المؤمنين بما أهدى له من كفايته، وحاطه به من منعته، وأيده به من نصره، وجعله وما استرعاه من دينه وسلطانه، في كنفه الذي لا يستباح وتحت يده المانعة وجناحه المحفوظ.

أدام الله لأمير المؤمنين السرور بما يقذي به عيون أعدائه في تمكينه وتوهينهم، ونصره وخذلانهم، وإعزازه والمجاهدة لهم؛ ولا زالت نعمة الله تزيده في قوة الظفر، وعزة النصر، وتفد من آفاق الأرض بالبشارات والفتوح، حتى تملأ له ما بين طرفي ملكه أمنا وعزًا، ويملأ به قلوب أعدائه خوفًا ورعبًا، ويعدهم على خلافه سطوة وتنكيلا.

أحمد بن يوسف

وهنأ الله أمير المؤمنين نعمه، وملأه كرامته، وأولى له فتوحه، وأدام إعزازه، وتولى حياطته وكفايته، فيما دنا منه وما غاب عنه، وأطال بقاءه والامتناع به.

(٤) مختار ما كتب من باب التهاني في كل فن

تهنئة خليفة بظفر

الحمد لله الذي جمع لأمير المؤمنين مع الغلبة الحجة، ومع الظفر المعذرة، وجمع لعدوه مع الذل السطوة، ومع دحوض الحجة النكال؛ فلم يجمعه والناكثين موطن من مواطن الصبر، إلا جعل الحجة عليهم فيه، ولسان العذر فيه معه، ويد الظهور فيه له؛ ثم وهب له عند الظفر من الشكر، وعند الفلج من التواضع، وعند القدرة من العفو، ما جعله مستوجبًا لما أصفاه به، معرفًا بأن العذر منقطع ممن نكبه، وأن مستزاد الحجة ومطلب السلامة، في التمسك بطاعته ومناصحته، والمجاهدة دونه.

وفي مثله: أدام الله لأمير المؤمنين السرور بما يقذي به عيون أعدائه.

وكتب إبراهيم بن المهدي إلى المعتصم يهنئه بخروجه عن أرض الروم بعد فتح عموريه

الحمد لله الذي تمم لأمير المؤمنين غزوته، فأذل بها رقاب المشركين وشفى بها صدور قوم مؤمنين؛ ثم سهل الله له الأوبة سالمًا غانمًا، وكذا وكذا؛ وليهنئه ما كتب الله له، مما أحصاه فلا ينساه، ليقفه به موقفًا يرضاه، فإنه عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾، فطوى الله لأمير المؤمنين نازح البعد برا وبحرًا، ووقاه وصب السفر سهلا ووعرًا، وحاطه بحراسته كالئًا، ودافع عنه بحفظه راعيًا؛ حتى يؤديه إلى المحل من داره، والوطن من قراره؛ وجزاه عن الإسلام خاصة، وعن رعيته كافة، بتخيره مستخلفا عليهم، وقائمًا مقامه فيهم هارون ابن أمير المؤمنين؛ فقد استخلفه رفيقًا شفيقًا، حليمًا وقورًا، يقظان ساكنا؛ لم يشذب عليه أمر، ولم ينتشر عليه طرف، ولم يضع معه سبيل، ولم يسخط وليا مكانفًا، ولا عدوا مخالفًا، بلا سيف أشرعه، ولا سور أقرع به؛ فمثل جزاء أمير المؤمنين في تخيره إياه، فجزاه الله على ما حفظ من وصاته، على محمود مقامه، إنه مجيب الداعي.

وكتب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر يهنئه بظفر

بلغني — فتح الله عليك — خروج ابن السرى إليك، فالحمد لله الناصر لدينه المعز لوليه وخليفته على عباده، المذل لمن صد عن حقه ورغب عن طاعته؛ ونسأل الله أن يظاهر النعم ويفتح بلدان الشرك به؛ والحمد لله على ما والاك منذ ظعنت لوجهك، فإنا نتذاكر سيرتك في حربك وسلمك، ونكثر التعجب لما وفقت له، من وضع الشدة والليان بموضعهما، ولا نعلم سائر جند ولا رعية عدل بينهم عدلك، ولا عفا بعد القدرة عمن آسفه وأضغنه عفوك.

تهنئة خليفة بحج

أصلح الله أمير المؤمنين وأراه من الزيادة في نعمه، ما يكون تماما لما ابتدأه به من فضله؛ والحمد لله على ما خص به أمير المؤمنين من كرامته، وأعطاه من الفضل في نيته، وجعله يستعين على دينه، بما بسط له في دنياه، ويحمل على بدنه النصب فيما يتقرب به إليه؛ فيجفو عن دعته على لينها، ويشخص عن طمأنينته على فضلها، إيثارًا لآخرته، وأداء لحق ربه؛ بادر له بذلك ليكرمه به، ثم يستعمل فيه نفسه، تقربًا إليه، فيسعده بالإذن في ذلك حين كان من الله له، وبالعمل فيه حين كان لله منه؛ فيكون قبوله الخير حين يعرضه له، دليلا على قبوله الخير عنه حين يعمل لربه؛ وكان من ذلك ما أذن الله لأمير المؤمنين في زيارة نبيه ﷺ العام، وموافاة مشاعره العظام، في وقتها من الأيام، التي لا توافى إلا معها، ولا تكون مناسكة إلا فيها؛ فكتب الله له في ذلك الآثار الصالحة والأعمال المبرورة، فدخل في الإحرام له بتعظيم حقه، وخرج منه بقضاء نسكه، أجرًا عقده الله عليه في ابتدائه، ثم أتمه له باستيفائه.

ولمحمد بن مكرم تهنئة لحاج

بلغك الله الرضا في أملك من نجح كل حاجة وإبلاغ كل أمنية، وتقبل كل دعوة خصصت بها نفسك أو عممت بها أحدًا من أهلك، في مجامع وفوده، ومعتزل قراره، فكنت شافع من شاهدك، ووافد من غاب عنك، يستفتح بدعائك، ويرجي بركة محضرك، والقربة إلى الله عز وجل بفضل جاهك.

تهنئة بولاية

نرى ما أحدث الله لك من الولاية، لنا خاصا وإلينا واصلا.

آخر: ولم تتخطني النعمة إذ أصابتك، ولم تتعدني إذ دخلت بك، ولم أخل من لازم شكرها، وما ينفلك الله منها، إذ قلدتها، اعتدادا بكل ما طوقت من المنن، وإيجابا على نفسي ما حملت من الشكر.

ولسعيد بن حميد إلى بعض إخوانه

سرك الله بتتابع نعمه، وترادف إحسانه، وزادك من فواضل أقسامه. بلغني — أكرمك الله — ما وهب الله لك من سلطانك، فقواك الله على ما استرعاك. ورزقك الشكر على ما أولاك.

وفي مثل ذلك: أكمل الله لك السعادة، وزادك في الكرامة، وخصك بدوام النعمة. بلغني ما وهب الله لك من سلطانك، فسررت به، وسألت الله إتمام نعمه عليك فيه بتأييدك، وتوفيقك للعدل في سيرتك، وغرس المحبة لك في قلوب رعيتك، وأن يعينك عليه، ويرزقك السلامة في الدين والدنيا.

وله في مثله: أنا أهنئ بك العمل الذي وليته، ولا أهنئك به، لأن الله أصاره إلى من يورده موارد الصواب، ويصدره مصادر الحجة، ويصونه من كل خلل وتقصير، ويمضيه بالرأى الأصيل، والمعرفة الكاملة، قرن الله لك كل نعمة بشكرها، وأوجب لك بطوله المزيد منها، وأوزعك من المعرفة بها ما يصونها من الفتن، ويحوطها من النقص.

آخر: قد وليت من العمل ما أسأل الله عز وجل أن يرزقك بركة بدئه وعاقبته، ويعطيك الرضا ممن وليت له وعليه.

آخر: هنأك الله هذه النعمة المقبلة، الدال أولها على تمامها، وأوزعك شكرها.

آخر: أسعدك الله بهذه الولاية وجعلها مباركة، تنتقل بظل السلامة منها، ونيل الكفاية فيها إلى أملك بنهايته ورجائك بغايته، ورزقك السلامة ممن وليت له وعليه.

آخر: سرك الله بما جدد لك من هذه المنزلة، ونفعك بهذه الولاية، وأرضى عنك من وليت له ومن وليت عليه.

وكتب محمد بن مكرم إلى أحمد بن دينار

نحن من السرور أيها الأمير بما قد استفاض من جميل أثرك فيما تلى من أعمالك، وزمك إياها بحزمك وعزمك، وانتياشك[٣٦] أهلها من جور من وليهم قبلك، وسرورهم بتطاول أيامك والكون في ظل يدك وجناحك، في إعانة من تخصه وتعمه نعمتك، وتحول به الحول حيث حالت بك؛ فالحمد لله الذي جعل العاقبة لك، ولم يردد علينا آمالنا فيك منكوسة، كما ردها على غيرنا في غيرك. ولوددت أن أباك كان عاين آثارك هذه ومناقبك، وإن كان الافتراق لم يقع بينكما حتى علم أنك خلفه، وألقى إليك بأمره ومعاقد ثقته، وجعلك موضع اختصاصه وأثرته، وصرف ذلك عمن كان لا يستحقه، وذم سالف رأيه فيك وفيه وحمد آخره، ثم نعمة اتصلت لك بما قبلها، انتظمت بها أمورك فاعتدلت، وتلاحمت عليها واتسقت، ما منحت في كاتبك، ومستقر ثقتك، وحامل أعبائك، من الكفاية والنصيحة، ووضعه عن قلبك مؤونة التهمة والقص لأثره، وإدخاله راحة الطمأنينة إليه وروح الثقة به، لا كما ابتلي أخوك، فإنه صحبه فخلط عليه أمره، وأفشى أسراره إلى صاحب بريده، فأنفل ذلك بينهم، وقطع حبالهم، حتى هجنت آثاره مع حسنها ووضوحها، وصفرت يده من حظ عمله، ولزمه الذم من أهله؛ فهذه كتبه إليّ، في اطراح نصيحة له كانت فيه، ويسألني أن أشخص إليه كاتبًا يحمل ثقله، ويفتح له ما أرتجه من أمره. وهذا من سعادة جدك، ويمن طائرك، وإقبال الأمور إليك، وسعيها على طريق موافقتك، وهنيئًا هنأك الله نعمه خاصها وعامها، وأوزعك شكرها، وأوجب لك بالشكر أحسن المزيد فيها.

تهنئة بعزل

كتب رجل إلى مالك بن طوق لما عزل عن عمله:

أصبحت والله فاضحًا متعبًا: أما فاضحا فلكل والٍ قبلك بحسن سيرتك؛ وأما متعبًا فلكل والٍ بعدك أن يلحقك.

فصل

سواء علينا أوليت أم صرفت، إنا لنشهد بك الولاية، بما بسط الله من يدك ببذل العرف، ونهنئك بالعرف بما يلحقك من ثناء ما أسلفت من الجميل؛ ولا نخاف عليك أن تفارق عملا وأنت محل له، ولا أن تصحبه وليس به فاقة إليك. فهنأك الله النعمة، وأعانك على الشكر، وأيدك بالمزيد.

تهنئة بعزل عامل عن عمله

بلغني صرفك، فخار الله لك، وهناك لطيف نظره وجليل إحسانه، فإني أرى الرجل عند خروجه من العمل سالمًا نقيًا من مأثمه ودنسه، أولى بالتهنئة منه عند دخوله فيه، وأرى الدعاء له عند بدء تلبسه به بالخلاص منه معصومًا بريئًا من تبعاته ورواجع آثامه، أولى بمن عنى به وأحب صلاحه، ولذلك قدمت تهنئتك.

ولسعيد بن حميد في مثله إلى بعض إخوانه: حفظك الله بحفظه، وأسبغ عليك كرامته، وأدام إليك إحسانه. إن سروري بصرفك، أكثر من سرور أهل عملك بما خصوا به من ولايتك. وقد كنت — أعزك الله — فيما يربأ بك عنه، بما أنت عليه في قدرك واستئهالك؛ ولكنا رجونا أن يكون سببًا لك إلى ما تستحق، فطبنا نفسًا بالذي رجونا. فالحمد لله الذي سلمك منه، ونسأله تمام نعمه عليك وعلينا فيك، بتبليغك أملك وآمالنا فيك، وشفاع ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات وأشرف المراتب؛ ثم خصك الله بجميل الصنع، وبلغك غاية المؤملين. إن من سعادة الوالي — حفظك الله — وأعظم ما يخص به في عمله وولايته السلامة من بوائق الإثم، ونوائب الدنيا وشرها، والعاقبة مما يخاف منها؛ وقد خصك الله منها بمنه وطوله ما نرجو أن يكون سببًا لك إلى نيل ما تستحق من المراتب. والله نسأل إيزاعك شكر ما منّ به عليك، وتبليغك غاية أملك في جميع أمورك، برحمته وفضله.

آخر: ما أحسن ما كشفت عنك الولاية، وأجمل ما أبرز منك العمل، قد كسبك الله حمد ولايتك وعزل عنك لائمتها، بما انتشر عنك من عدلك، وظهر من معروفك، فإذا ساءك هذا فليسررك.

وكتب محمد بن مكرم إلى إبراهيم بن المدبر: الحمد لله رب العالمين حمدا يجوز حمد الحامدين، الذي جعل قضاءه خيرة لك؛ فإن زادك نعمة وفقك لشكرها، وإن امتحنك

ببلوى من نفث حاسد أو كيد كائد، أنار برهانك وأفلح حجتك وجمع بين وليك وعدوك في الشهادة لك؛ وإن نقل أمرًا عن يدك، فربما يرجعه إليك مختلا لفقدك. هذا إلى ما جعل عندك من خواص النعم التي إن ذكرناها فأطنبنا أو تجوزنا فقصرنا، كان غايتنا إلى الحسور دون مدى غايتك. وقد زادك الله بهذا الحادث فضلا عظيمًا، لما ظهر من وله العامة إليك وتطلعها إلى ما كانت فيه: من لين إنصافك وكريم أخلاقك، ووحشة الخاصة لما فقدت من حسن معاملتك وكثير تفضلك. وأيقن أهل الرأي والتأمل لصفحات الأمور، أن كل ما خرج عنك فعائد إليك ومتصل به غيره، حتى تستقر في يدك عرا الأمور ومعاقدها، وتفتح برأيك وتدبيرك أبوابها ومغالقها، فليهنك أن كل ما زاد غيرك نقصًا زادك فضلا، وكل ما نقص من الرجال وحطها ألحق بك شرفًا. فزادك الله وزادنا منك، وجعلنا ممن يقبله رأيك، ويقدمه اختيارك، ويقع من الأمور بموافقتك، ويجري منها على سبيل طاعتك.

وكتب سعيد بن حميد إلى بعض إخوانه: جعلني الله من السوء والمكروه فداءك، وأطال في الخير والسرور بقاءك، وأتم نعمه عليك، وأحسن منها مزيدك، وبلغك أقصى أمنيتك، وقدمني أمامك، وقد بلغني ما اختار الله لك، فسررت من حيث يغتم لك من لا يعرف قدر النعمة عليك، ولا يراك بعين استحقاقك. ولئن ساءني ما ساء إخوانك من عزلك، لقد سرني ما يسر الله لك. والحمد لله الذي جعل انصرافك محمودًا، وقضى لك في عاقبتك الحسنى، وأقول:

لِيَهْنِك أَنْ أَصْبحتَ مُجْتَمعَ الحمد ... ورَاعِي المعالي والمُحامي عن المجدِ
وأنّك صُنتَ الأمرَ فيما وَليتَه ... ففرّقتَ ما بين الغَوَاية والرُّشْد
فلا يَحْسَبِ الباغونَ عَزْلك مَغْنمًا ... فإنّ إلى الإصدار عاقبة الوِرْد
وما كنتَ إلّا السيفَ جُرِّد للوَغَى ... فأَحْمَدَ فيها ثم رُدّ إلى الغِمْد

وقد قال الأول:

فمن يكُن بورود العَزْل مُكتئبا ... فإنني بورود العزْلِ مسرورُ
بعدَ الولاية عَزْلٌ يستبين به ... طَوْلُ الوُلاة وبعدَ العَزْلِ تأمير

أما ما عندي مع تصور العاقبة لك في نفسي، فيمسني في أمرك في حال المحنة ما يخصني منه في وقت تجدد النعمة. وبحسب ضميرك الشاهد على ما عندي ما أجده لك

في نفسي. فلا زلت في نعم متتابعة متجددة، ولا عدمت الثروة والزيادة؛ وبلغك الله أقصى أملك، وأمل أخيك لك، وكبت أعداءك، وجعلني وقاءك المقدم عنك. أحب أن تشرح لي صورة الأمر إلام تأدت، وكيف كان الابتداء؛ فإني لا أشك أنها حيلة ونية من عز الصاحب الجليل القدر؛ ولها عاقبة منه إن شاء الله محمودة، وتفضي من ذلك إلى ما تسكن إليه نفسي، إن شاء الله.

تهنئة بتزويج وبناء بأهل

بطائر اليمن فليكن هذا البناء، وبأسباب السعادة فليتصل عقد هذا الاجتماع، وبكل ذكاء الولد، وثروة العدد، فلتجر لك الأقدار، وفي أطول غايات البقاء فلتدم هذه الغبطة والسرور.

تهنئة بتزويج

بلغني تزوجك من فلانة، فبالرفاء والبنين، تهنئة السلف الصالحين، ومبلغ سنة المجتهدين المتبحرين، ونقول على يمن الطائر، وسعادة الجد، ونماء العدد، واتفاق الهوى، وطيب المناسمة، واجتماع الشمل، وثبات الريع، وتملي النعم. أسأل الله الذي قضاها أن يجعلها لك سكنًا ويجعلك لها شجنًا، وأن يؤخر حمامها إلى انتهاء نفسك عنها، وجعلك جائزًا تربها، ووليت المال وهناءة العيش وملاهاة الغواني بعدها.

تهنئة لغسان بن عبد الحميد بتزويج

قد بلغني جمع الأمير أهله على الحال التي جمعهم عليها من نعمة الله عليه. فالحمد لله على كل ما يرى الأمير فيما له فيه نعمة. فأسأل الله أن يجعل الطائر في ذلك ميمونا، والشمل مجتمعًا، والبركة عظيمة، والأمور سليمة؛ وكذلك فقد عظم الله القسم منه لزوجه، جعل الأمير سكنًا لها، وأجرى المودة والرحمة بينهما، فإنه يقول عز وجل: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾. فلما كان الأمير هو المنظور إليه، وهي المنظور إليها، اختارها الأمير لنفسه واختار نفسه لها، وأراد الله عز وجل أن يزيدها مع فضلها في نفسها فضلا باختيار الأمير إياها، وباختصاص الله لها بالأمير دون غيرها؛ فكان ذلك فضلا من الله زينه بفضل، وكرامة من الله وصل بعضها

ببعض. فنرغب إلى الله عز وجل في أن يزيد الأمير في كل سعة مبسوطة، ونعمة مقسومة، ويعطيه في ذلك شكرًا يكون لرضاه موجبًا، كما أعطاه فضلا كان الشكر له به واجبًا؛ ثم يملي الأمير ذلك بأحسن ما ملى أحدًا من خلقه كرامة اصطنعها عنده.

تهنئة بمولود

كتب العباس بن الحسن الطالبي إلى المأمون يهنئه بمولود له:

قد كان أجذلني ما أحدث الله لأمير المؤمنين من الموهبة التي ليس، وإن كان أولى بها من غيره، بأعظم فيها حظًا من رعيته. فعمر الله لك يا أمير المؤمنين قلوبهم بنور الحكمة وأبصارهم حتى يشد بهم عضدك، ويسد بهم ثلمتك، ويبلغهم الغاية المأمول لهم بلوغها بعدك، غير مقعد بك مهل، ولا محل بك أجل، ولا مكذبك أمل، ولا منقطعة أيامك، حتى تخترم أنفسنا قبلك.

وكتب أحمد بن يوسف إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له:

بارك الله في مولودك الذي أتاك، وهنأك نعمته بعطيته، وملاك كرامته بفائدته، وأدام سرورك بزيادته، وجعله بارًا تقيًا، ميمونًا مباركًا زكيًا، ممدودًا له في البقاء، مبلغًا غاية الأمل، مشدودا به عضدك، مكثرًا به ولدك، مداما به سرورك، مدفوعًا به الآفات عنك، مشفوعًا بأكثر العدد، من طيب الولد.

وله في مثل ذلك:

هنأك الله هذه الفائدة التي أفادكها، وبارك الله في الهبة التي رزقكها، وشفعها بإخوة متواترين، يسرونك في حياتك ويخلفونك في عقبك.

كتب رجل إلى رجل يهنئه بمولود:

جعلت فداءك للبقاء مولودك، في السناء نباته، وفي اليمن شبابه، وعلى البركة ميلاده.

كتب الحسن بن سهل إلى ذي الرياستين:

إنه ليس من نعم الله، وفوائد قسمه — وإن خص موقعها ووجب شكرها — نعمة تعدل النعمة في الولد، لنمائها في العدد، وزيادتها في قوة العضد، وما يتعجل به من عظيم بهجتها، ويرجى من باقي ذكرها في الخلوف والأعقاب، ولاحق بركتها في الدعاء والاستغفار. وإن الله قد أفادك وأنالك غلامًا سريا، سميته فلانًا، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين. فرجوت أن تكون موافاته بالنصر الذي أظهرنا الله به على عدو الدين والمسلمين من دلائل بركته ويمنه، وشواهد سعادته والسعادة به. فبارك الله لأمير المؤمنين في طارف نعمه وتالدها، وشفع له قديم مننه بحادثها، ورزقه ذكورًا طيبين مهذبين، يأنس بهم ربعه، ويتصل بهم نجاحه، ويجعلهم ذرية زاكية، وبقية صالحة.

آخر:

بلغني الذي وهب الله لك، فجعله الله ذخرًا سنيًا، وعقبًا كريمًا.

عمرو بن مسعدة إلى الحسن بن سهل

أما بعد، فإن هبة الله لك هبة لأمير المؤمنين، وزيادته إياك في عدده لمحلك عنده ومكانك في دولتك من دولته. وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلامًا سريًا، فبارك الله لك فيه، وجعله بارًا تقيًا، مباركا سعيدا زكيا.

تهنئة بمولود

الحمد لله الذي رضى منا بيسير القول عند عظيم النعمة، حمدا نستوجب به بقاء هذه الموهبة للنماء والفائدة؛ فإن نعمة الله وإن كانت لم تزل متتابعة، فقد كان ما يقبض الأمل منا ذكر انفراد الأمير بنفسه وقلة نسله، وما لا يؤمن من انقطاع الذكر بفوات الأجل، ومن دثور الأنام، بواقع الحمام، وقد أصبحنا من الله من يدين في فسحة المهل، ومده مواقع الأجل، لمن أراد فيه موضع أملنا في حسن الخلافة من الأمير وإحياء ذكره.

تهنئة بمولود

سرورك سرور يخصني منه ما يخصك، وتلبسني فيه النعمة ما تلبسك، والحمد لله على النعمة فيك وعندك.

كتب أحمد بن يوسف إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود:

أما بعد، فقد بلغني من متجدد نعم الله عز وجل عليك، وإحسانه إليك فيما رزقك من الهبة ما اشتد جذلي به، وسألت الله أن يشفعه بأمثاله؛ ولذلك أقول:

قد شُفِع الواحد بالوافد ... وأُرْغِمَ الأنفُ من الحاسدِ
أبا حُسَين قَرَّ عينًا بما ... أَعْطيته من هِبَةِ الماجدِ
قد قلتُ لمّا بشَّروني به ... بُورك في المولود للوالدِ
إنّا لنرجو وافدا مثلَه ... والطائرُ الميمون للوافدِ

وله إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود:

أما بعد، فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورًا وفرحًا، إلا كنت به بهجًا، أعتد فيه بالنعمة من الله الذي أوجب عليّ من حقك وعرفني من جميل رأيك. فزادك الله خيرًا، وأدام إحسانه إليك. وقد بلغني أن الله وهب لك غلامًا سريًا، أكمل لك صورته، وأتم خلقه، وأحسن البلاء فيه عندك، فاشتد سروري بذلك، وأكثرت حمد الله عليه. فبارك الله فيه، وجعله بارًا تقيًا، يشد عضدك، ويكثر عددك، ويقر عينك.

وكتب إسحاق بن يحيى إلى بعض إخوانه يهنئه بابنة له:

رب مكروه أعقب مسرة، ومحبوب أعقب معرة. وخالق المنفعة والمضرة، أعلم بمواضع الخيرة.

كتب ابن المقفع إلى صديق له ولدت له جارية:

بارك الله لك في الابنة المستفادة، وجعلها لكم زينا، وأجرى لكم بها خيرًا، فلا تكرهها؛ فإنهن الأمهات والأخوات، والعمات والخالات، ومنهن الباقيات الصالحات؛ ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم، ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم.

وكتب عبد الحميد بن يحيى إلى أخ له في مولود ولد له وهو أول مولود كان:

أما بعد، فإن مما أتعرف من مواهب الله، نعمة خصصت بمزيتها، واصطفيت بخصيصتها، كانت أسر لي من هبة الله ولدا سميته فلانًا، وأملت ببقائه بعدي حياة وذكرى، وحسن خلافتي في حرمتي، وإشراكه إياي في دعائه، شافعًا إلى ربه عند خلواته في صلاته وحجه، وكل موطن من مواطن طاعته، فإذا نظرت إلى شخصه تحرك به وجدى وظهر به سروري، وتعطفت عليه منه أنه الولد، وتولت عني به وحشة الوحدة، فأنا به جذل في مغيبي ومشهدي، أحاول مس جسده بيدي في الظلم، وتارة أعانقه وأرشفه، ليس يعدله عندي عظيمات الفوائد، ولا منفسات الرغائب. سرني به واهبه لي على حين حاجتي، فشد به أزري، وحملني من شكره فيه ما قد آدنى بثقل حمل النعم السالفة إليّ به، المقرونة سراؤها في العجب بقدر ما يدركني به من رقة الشفقة عليه، مخافة مجاذبة المنايا إياه، ووجلا من عواطف الأيام عليه. فأسأل الله الذي امتن علينا بحسن صنعه في الأرحام، وتأديته بالزكاء، وحرسه بالعافية، أن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفي غيره، وأن يجعل ما يهب لنا من سلامته والمدة في عمره موصولا بالزيادة، معروفًا بالعافية، محوطا من المكروه، فإنه المنان بالمواهب والواهب بالمنى، لا شريك له. حملني على الكتاب إليك لعلم ما سررت به علمي بحالك فيه وشركك إياي في كل نعمة أسداها إلى ولي النعم. وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله جل ذكره. والسلام عليك.

تهنئة بنقلة إلى دار جديدة

تناهى إلي نقلتك إلى الدار التي أرجو أن يجعلها الله نقلة المكروه عنك، ونقلة السرور إليك، ودوام نعمة الله عليك. جعلها الله لك أيمن دار وأعظمها بركة، ووصل نعمه فينا عندك ونعمه عندنا فيك.

تهنئة لمحمد بن مكرم إلى نصراني أسلم

أنا أقول الحمد لله الذي وفقك لشكره، وعرفك هدايته، فطهر من الارتياب قلبك، ومن الافتراء عليه لسانك. وما زالت مخايلك ممثلة لنا جميل ما وهب الله لك، حتى كأنك لم تزل بالإسلام موسومًا، وإن كنت على غيره مقيمًا، وكنا مؤملين لما صرت إليه، مشفقين لك مما كنت عليه، وإذ كاد إشفاقنا يستعلي رجاءنا، أتت السعادة بما لم تزل الأنفس تعد منك. فأسأل الله الذي نور لك في رأيك وأضاء لك سبيل رشدك، أن يوفقك لصالح العمل، وأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار.

هوامش

(١) نقلا عن اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور.
(٢) الجديلة: الناصية والحالة والطريقة.
(٣) بياض في الأصل، ولعله: أن أقنع نفسي بفضل اتخذه بمثل ما أقنع رجلا الخ.
(٤) على أذلالها: على وجوهها وطرقها.
(٥) بياض في الأصل، ولعل الكلمة المتروكة «بحاجتي». والظاهر أن كلمة «محدد» محرفة عن كلمة «مجد».
(٦) كذا بالأصل.
(٧) في الأصل «حظة» والسياق يقتضي ما أثبتناه.
(٨) بياض في الأصل. ولعل الكلمة المتروكة «وآتى».
(٩) بياض في الأصل. وما وضعناه يناسب المقام.
(١٠) السياق يقتضي وضع هذه الكلمة، وهي متروكة في الأصل.
(١١) في الأصل: «... وسراه ما قبله ...».
(١٢) في الأصل «عليها ...» وهو لا يؤدي الغرض المراد.
(١٣) في الأصل: «وأجزلنا ...».
(١٤) في الأصل: «ما قبلك».
(١٥) في الأصل: «وأملكها ...».
(١٦) في الأصل: «مخافة السلامة من الناس ...».
(١٧) في الأصل: بياض.

(١٨) في الأصل: «فالاستراحة ...».
(١٩) في الأصل: «ولا مكدر عليها صفوها ...».
(٢٠) هكذا وردت في الأصل.
(٢١) الفلج: الغلب والظفر، يقال فلج فلان على خصمه، أي غلب وظفر.
(٢٢) في الأصل بياض. وفي العبارة اضطراب ظاهر.
(٢٣) الاستشلاء: الانقاذ.
(٢٤) بياض في الأصل. وما أثبتناه يناسب المقام.
(٢٥) هكذا وردت في الأصل. ولم نوفق إلى تحقيقها.
(٢٦) كذا في الأصل، ولعلها بالغتين.
(٢٧) كذا في الأصل، ولعلها وليشجب.
(٢٨) أباح النار: أطفأها.
(٢٩) الصيال مصدر صال على قرنه: سطا عليه.
(٣٠) في الأصل: «بخبرهم».
(٣١) في الأصل «برأس عدو الله».
(٣٢) بياض في الأصل والسياق يقتضي ما أثبتناه.
(٣٣) الوقم: القهر والذلة.
(٣٤) سقطت في الأصل كلمات فأثبتنا ما يقوم مقامها.
(٣٥) في الأصل المنازل، وما أثبتناه صحيح.
(٣٦) انتياشك أهلها: استنقاذهم.

باب المنظوم

(١) أبو نواس

كان أبو نواس[١] ينادم ولد المهدي ويلازمهم فلم يلف مع أحد من الناس غيرهم، ثم نادم القاسم بن الرشيد ولقى منه أشياء كرهها وكرهت له، ففارقه.

ثم جلس أبو نواس إلى الناشىء الراوية فقرأ عليه شعر ذي الرمة، فأقبل الناشىء على أبيه هانئ وقال له: إن عاش ابنك هذا وقال الشعر ليقولنه بلسان شتوم.

ثم اتصل بوالبة بن الحباب الأسدي، لقيه بدار النجاشي الأسدى وإلى الأهواز للمنصور، فقال له والبة: إني أرى فيك مخايل فلاح، وأرى أنك لا تضيعها، وستقول الشعر وتعلو فيه، فاصحبني حتى أخرجك؛ فقال: ومن أنت؟ قال: أبو أسامة؛ قال: والبة؟ قال: نعم؛ قال: أنا والله جعلت فداك في طلبك، وقد أردت الخروج إلى الكوفة وإلى بغداد من أجلك؛ قال: ولماذا؟ قال؛ شهوة للقائك ولأبيات سمعتها لك؛ قال: وما هي؟ فأنشده:

ولـهـا ولا ذنـبٌ لـهـا ... حبٌّ كأطرافِ الرّماحِ
جرحتْ فؤادي بالهوى ... فالقلبُ مجروح النواحي
سلَّ الخليفةُ صارمًا ... هو للفساد وللصلاحِ
أجداه كفُّ أبي الوليـ ... ـد يدًا مُبَارِية الرياحِ
ألقى بجانب خَصْره ... أمضَى من الأجل المُتَاحِ

وكـأنـمـا ذَرّ الـهـبـا ءَ عليه أنفاسُ الرياح

فمضى معه، ثم سأله أن يخرج إلى البادية مع وفد بني أسد ليتعلم العربية والغريب، فأخرجه مع قوم منهم، فأقام بالبادية سنة؛ ثم قدم ففارق والبة ورجع إلى بغداد.

وكان أبو نواس متكلمًا جدلا راوية فحلا، رقيق الطبع ثابت الفهم في الكلام اللطيف. ويدل على معرفته بالكلام أشياء من شعره، منها قوله:

وذاتِ خـد مـورَّد قـوهّـيّـة الـمـتـجـرَّدْ
تـأمّـل الـعـينُ مـنـهـا محاسنًا ليس تنفَدْ
فبعضه قد تناهى وبـعـضـه يـتـولـد
والحسن في كل شيء مـنـهـا مـعـاد مـردد

ومنها قوله:

يا عاقدَ القلب عنّي هـلا تـذكـرتَ حـلَّا
تـركـتَ غـيّ قـلـيـلًا مـن الـقـلـيـل أقـلَّا
يـكـاد لا يـتـجـزَّى أقلَّ في اللفظ مِنْ لا

ومنها قوله في امرأة اسمها حُسن:

ان اسم حُسنْ لوجهها صفةٌ ولا أَرَى ذا في غيرها جُمِعَا
فهي إذا سُمِّيت فقد وُصِفتْ فيجمعُ الإسم معنيين معا

ومن قوله فيما يتعلق بالحكمة:

قـل لـزُهَـيـر إذا حـدَا رشَـدًا أقـلـلْ أوَ أكـثِـرْ فـأنـت مِـهْـذارُ
سخُنْتَ من شدّة البرودة حتَّى صرتَ عـنـدي كـأنّـك الـنـارُ

لا يعجَبِ السامعون من صفتي كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

هذا شيء أخذه أبو نواس من مذهب حكماء الهند، فإنهم يقولون: إن الشيء إذا أفرط في البرودة انقلب حارًا، وقالوا: إن الصندل يحك منه اليسير فيبرد، فإذا أكثر منه سخن.

قالوا: كان أبو نواس دعيا يخلط في دعوته. فمن ذلك قوله يهجو عرب البصرة:

ألا كل بصريّ يرى أنما العُلا مُكَمَّهَة سُحْقٌ لهنّ جَرِينُ[٢]
فإن تغرِسُوا نخلًا فإن غِرَاسَنا ضِرابُ وطعنٌ في النحور سَخِينُ
فإن أك بصريًا فإن مُهاجري دِمَشقُ ولكنّ الحديثَ فنونُ
مجاورَ قوم ليس بيني وبينهم أواصرُ إلا دعوةٌ وظنونُ
إذا ما دعا باسمي العريف أجبتُه إلى دعوة مما على تَهُون

ثم هجا اليمن في هذه القصيدة بقوله:

لأزْد عُمَانٍ بالمهلّب نَزوةٌ إذا افتخر الأقوام ثمّ تلينُ
وبكَر ترى أن النبوة أُنزلَت على مِسْمَعٍ في الرِّحْم وهو جنينُ
وقالت تميمٌ لا نرى أن واحدًا كأحنفنا حتّى المماتِ يكونُ
فما لُمتُ قيسًا بعدها في قُتيبة وفخرٍ به إن الفخار فنونُ

وإنما نشأ أبو نواس بالبصرة وليس له بدمشق قبل ولا بعد.

ومما هجا به اليمن أيضًا قوله لهاشم بن حديج:

وردنا على هاشم مصَرهُ فبارت تجارتنا عِندَه

يقول فيها:

رأيتك عند حضور الخِوا ن شديدًا على العبد والعبده
وتحتدُّ حتى يخافَ الجليـ ـس شَذاك عليه من الحدّه

وتختم ذاك بفخرٍ عليه ... بِكنْدةَ فاسلَحْ على كنده
فإن حُديجا له هجرةٌ ... ولكنّها زمنَ الردّه
وما كان إيمانكم بالرسول ... سوى قتلكم صهرَه بعدَه
تُعدّونها في مساعيكُم ... كعدّ الأهلّة معتدّه
وما كان قاتلُه في الرجال ... بحمل لطهر ولا رِشده
فلو شهِدتْه قريشُ البِطا ... ح لما مَحشت نارُكم جلدَه[٣]

وقوله أيضًا:

ما منك سلمى ولا أطلالها الدّرُسُ ... ولا نواطقُ من طير ولا خُرُس
يا هاشمُ بنَ حديج لو عددتَ أبا ... مثلَ القَلَمَّس لم يعلَق بك الدّنَس
إذ أصبح الملكُ النعمانُ وافدَه ... ومن قُضاعَة أَسْرى عنده حُبُس
فابتاعهم بإخاءِ الدهر ما عَمِروا ... فلم ينل مثلَها من مثلهم أَنَسُ
أو رحت مثلَ حُوَىٍّ في مكارمه ... هيهات منك حُوَىّ حينَ يُلْتَمَس
أو كالسَّمَوءل إذ طاف الهمامُ به ... في جَحْفل لِجَبِ الأصواتِ يَرْتَجِس
فاختار ثُكْلًا ولم يَغْدِرْ بذمته ... إذ قيل أَشْرِفْ تَرَ الأوداجَ تنبجسُ
ما زاد ذاك على تيهٍ خُصِصتَ به ... وكيف بَعْدِل غيرَ السوءة الغَرَسُ

وقوله:

يا هاشمُ بنَ حُدَيج ليس فخركُم ... بقتل صهرِ رسول الله بالسَّدَدِ
أدرجتمُ في إهاب العَيْر جثتَه ... فبئَس ما قدَّمتْ أيديكُم لغدِ
إن تقتلوا ابنَ أبي بكر فقد قَتَلتْ ... حُجْرًا بدارةِ مَلْحوبٍ بنو أسدِ
وطرَّدُوكم إلى الأجبال من أَجَإٍ ... طردَ النَّعام إذا ما تاه في البلدِ
وقد أصاب شَرَاحيلا أبو حَنَشٍ ... يومَ الكُلَاب فما دافعتمُ بيدِ
ويوم قلتم لزيدٍ وهو يقتلكم ... قتل الكلاب لقد أَبْرحتَ من ولدِ
وكلّ كنديّةٍ قالت لجارتها ... والدمعُ ينهلّ من مَثْنى ومنفرِدِ
أَلْهَى امرأَ القيس تشبيبٌ بغانية ... عن ثأره وصفاتُ النَّوْء والوتدِ

وقد رثى أبو نواس خلفا الأحمر بعد موته بقصائد من شعره، منها قصيدته التي أولها قوله:

لو كان حيٌّ وائلًا[٤] من التَّلَفْ ... لو ألتْ شَغْواءُ في أعلى شَعَفْ
أمّ فُرَيخ أحرزتْه في لَجَفْ[٥] ... مُزَغَّبَ الأَلْغادِ لم يأكلْ بكفّ
كأنه مستقعَدٌ من الخَرَفْ ... هاتيك أو عَصْماء في أعلى شرفْ
تَرُوغ في الطُّبَّاقِ[٦] والنَّزْعِ الألفّ ... أَوْدَى جِمَاعُ العلم مُذْ أودَى خَلَفْ
من لا يَعُدّ العلم إلا ما عَرفْ ... قَلْيَدَمٌ[٧] من العَيَاليم الخُسُفْ
كنَّا متى نشاءُ منه نغترِفْ ... روايةً لا تُجتنَى من الصحفْ

ومنها قوله يرثيه:

لا تَئِلُ العُصْمُ في الهضاب ولا ... شَغْواء تَغْذُو فرخين في لَجَفِ
يُكِنُّها الجوُّ في النهار ويُؤ ... ويها سَوادُ الدُّجَى إلى شَرَف
تحنو بُجؤْشُوشِها[٨] على ضَرِم ... كقِعْدة المنحني من الخَرَف
ولا شَبُوب[٩] باتتْ تؤرّقه النَّـ ... ـثْرةُ منها بوابِلٍ قَصِف
دانٍ على الأرض والوَصِيد وفي ... بَهْوٍ أمينِ الإيادِ ذي هَدَفِ[١٠]
ديدنُه ذاك طولَ ليلتِه ... حتى إذا انجاب حاجبُ السَّدَف
غدا كوَقْف الهَلْوك ينهفتُ الـ ... ـقِطْقِط[١١] من مَنْبِتيه والكَتِفِ
كأن شَذْرًا وهتْ معاقدُه ... بين صَلَاه فملعَب الشَّنَف
وأخدريٍّ صُلْب النَّواهق صَلْـ ... ـصالٍ أمينِ الفُصُوص والوُظُفِ
منفرد في الفَلَاة تُوسعه ... ريًّا وما يَخْتليه من عَلَف
ما ترك الموت من أولى شَبَجًا ... بادتْ بتلك القِلَال والشَّعَف
لما رأيتُ المنونَ آخذةً ... كلَّ شديدٍ وكلَّ ذي ضَعَفِ
بتُّ أُعَزِّي الفؤادَ عن خَلَفٍ ... وبات دمعي إلّا يَفِضْ يَكِفِ
أنسى الرَّزايا مَيِّتٌ فُجِعتُ به ... أمسى رهينَ التُّراب في جَدَف
كان يُسَنِّي[١٢] برِفقه غُلُقًا ... في غير عِيٍّ منه ولا عُنُف
يجوبُ عنك التي غُشِيتَ بها ... من قبلُ حتى يَشفيك في لَطَف

لا يبهم الحاءَ في القراءة بالخا ء ولا لامَـهـا مـع الألـف
ولا يُعَمِّي معنى الكلام ولا يكون إنشادُه عن الصُّحُف
وكان ممن مضى لنا خَلَفا فليس منه إذ بان من خَلَف

واختلف أبو نواس إلى أبي زيد فكتب الغريب من الألفاظ، ثم نظر في نحو سيبويه، ثم طلب الحديث فكتب عن عبد الواحد بن زياد ويحيى القطان وأزهر السمان وغيرهم، فلم يتخلف عن أحد منهم، وأدرك الناس فعلم، ثم قدم بغداد بعد ذلك.

وكان أيضًا يتنزر ويدعى للفرزدق. ثم وقع بينه وبين الحكم بن قنبر المازني، فهجاه الحكم وذكر بريه العود وبغى عليه ونكبه. ولما قال أبو نواس قصيدته التي يهجو بها خِندِف، وهي:

ألم تَرْبَعْ على الطَّلَل الطِّمَاس عَفَاه كل أسحم ذي ارتجاس[١٣]
وذاري التُّرَب مُرْتكِمٌ حَصَاه نسيج المِيثِ مِعْنَقَة الدَّهَاس[١٤]
سوى سُفْع أعارتها الليالي سوادَ الليل من بعد اغبساس[١٥]
وأورق حالف المْثواةَ هابٍ كضاويّ الفِراخ من الهلاس[١٦]
منازلُ من عُفَيْرَة أو سُلَيْمى أو الدهماء أختِ بنى الحِمَاس
كأنّ معاقدَ الأوضاح منها بجِيدِ أغنَّ نُوّم في الكِنَاس
وتَبْسِمُ عن أغرّ كأنّ فيه مُجَاجَ سُلافة من بيت راس[١٧]
فمَنْ ذا مبلغٌ عمرًا رسولًا فقد ذَكَّرْتَ وُدَّكَ غيرَ ناس
فلم أهْجُرْك هجر قِلى ولكن نوائبُ لا نزالُ لها نُقاسي
نوائبُ تعجِزُ الأدباءُ عنها ويَعْيَا دونَها اللقِن النِّطاسي
وقد نافحتُ عن أحسابِ قومٍ هُمُ وَرَثوا مكارمَ ذِي نُوَاس
فإن تَكُ أوقِدتْ للحرب نار فما غَطَّيتُ خوفَ الحرب راسي
سأبْلي خيرَ ما أبلَى مُحَامٍ إذا ما النَّبْل أَلْجِمَ بالقياس[١٨]
وسَمتُ الوائلِينَ بفاقِراتٍ بهنّ وسَمْتُ رهطَ أبي فِرَاس
وقالت كاهلٌ وبنو قُعَيْنٍ حَنَانَكَ إننا لسنا بناس
فما بالُ النِّعاج ثَغَتْ بشَتْمي وفي زَمَعَاتهن دمُ الفراس
وما حامتْ عن الأحساب إلا لترفع ذكرَها بأبي نواس

عارضه الحكم وهجاه، فانقلب على النزارية وادعى أنه من لحاء وحكم؛ فزجره يزيد بن منصور الحميري خال المهدي وقال له: أنت خوزي، فمالك ولحاء وحكم! فقال له: أنا مولى لهم، فتركوه، وقال بعضهم لبعض: إنه لظريف اللسان غزير العوم فدعوه، وبهذا الولاء يتعصب لنا ويكايد عنا ويهجو النزارية؛ فكان كما قالوا وكما ظنوا، فانقلب إلى اليمن وعدل عن كنيته بأبي فراس واكتنى بأبي نواس، تشبها بكنية ذي نواس كما كانت اليمن تكتنى، وندم على هجاء اليمن، ووجدهم له أنصر ولدعوته أقبل، فاعتذر إلى هاشم بن حديج الكندي من هجائه، ومدح اليمن فقال:

أهاشمُ خذْ منّي رضاك وإن أتَى ... رضاك على نفسي فغيرُ ملُوم
فأَقسمُ ما جاوزتُ بالشتم والدي ... وعِرضي وما مزّقتُ غيرَ أديمي
فعُذتُ بَحْقَوىْ هاشمٍ فأعاذني ... كريمٌ أَراه فوقَ كلّ كريم
وإنّ امرأً أَغْضَى على مثلِ زَلّتي ... وإن جَرَحتْ فيه لَجِدُّ حليم
تطاولَ فوقَ الناس حتّى كأنّما ... يَرون به نَجما أمام نُجوم
إذا امتازتِ الأحسابُ يوما بأهلها ... أناخَ إلى عادّيةٍ وصَميم
إلى كلّ مَعصُوبٍ به التّاجُ مِقوَلٍ ... إليه أيادي عامرٍ وتَميم

وكان قبل أن ينتمي لليمن ويدعى لنزار يتعاجم في شعره، فمن ذلك قوله:

فاسقنيها وغنِّ صَو ... تًا، لك الخيرُ، أَعجما
ليس في نعتِ دِمْنةٍ ... لا ولا زَجْر أشأَما

وكان الجاحظ يقول: ما أعرف لأبي نواس شعرًا يفضل هذه القصيدة وهي:

ودارِ نَدامَى عطّلوها وأدلَجوا ... بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ
مَساحِبُ من جرّ الزِّقاق على الثّرى ... وأضغاثُ ريحانٍ جنيٌّ ويابسُ
حبستُ بها صَحبي فجدّدتُ عهدَهم ... وإنّي علَى أمثالِ تلك لحابسُ
ولم أدر منهم غيرَ ما شهِدتْ به ... بشَرقيّ ساباطَ الديارُ البسابسُ
أقمنا بها يومًا ويومًا وثالثا ... ويوما له يومُ الترحُّل خامسُ
تُدار علينا الراحُ في عَسجديّة ... حَبَتها بأنواع التّصاوِير فارس

قرارتُها كسرى وفي جَنباتها مَهًا تدَّريها بالقِسيّ الفوارسُ
فللخمر[١٩] ما زرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

وقوله يصف كرمة وعبر عنها بالهجمة وهو يريد الدنان:

لنا هَجمةٌ لا يُدرك الذئبُ سَخلَها ولا راعَها نَزوُ الفِحالة والخطر
إذا امتُحنت ألوانُها مال صفوها إلى الكَمْت إلا أن أوبارَها خُضرُ
وإن قام فيها الحالبون اتّقتهُمُ بنَجلاء ثقب الجوف دِرّتُها الخمرُ
مَسارحها الغربيُّ من نهر صَرصَر فقُطْرَ بُلٌ فالصّالحيّةُ فالعَقْرُ
تُراثُ أبي ساسانَ كسرَى ولم تكن مواريثَ ما أبقت تميمٌ ولا بكر
قَصَرتُ بها ليلي وليل ابنِ حُرّة له حسبٌ زاكٍ وليس له وَفرُ

وفي تَعَاجُم أبي نواس في شعره يقول الرقاشيّ يهجوه:

نَبَطيّ فإذا قيل له أنت مولَى حَكَم قال أجْل
هو مولَى الله إذ كان به لاحقًا فاللهُ أعلَى وأجلّ
واضعًا نسبتَه حيثُ اشتهى فإذا ما رابَه ريبٌ رَحَل

فقال أبو نواس يهجوه:

هجوتُ الفضلَ دهري وهو عندي رَقَاشيٌّ كما زعم المسولُ
فلما سُوئلتْ عنه رقَاشٌ لنعلم ما تقول وما يقول
ولمّا أن نصَصناه إليها لتعلم ما يُقال وما نقولُ
وجدنا الفضلَ أبعدَ من رقاش من الأتُن ادّعت فيها الفُيول
وجدنا الفضلَ أكرمَ من رقاش لأنّ الفضلَ مولاه الرسولُ

يريد بذلك قوله ﷺ: «أنا مولى من لا مولى له».

وقال أيضا يهجوه:

قل للرّقاشيّ إذا جئتَه ... لو متَّ يا أحمقُ لم اهجُكا
لأنّني أكْرِم عرْضي ولا ... أقرُنه يومًا إلى عِرْضكا
إن تهجُني تَهْجُ فتى ماجدا ... لا يرفع الطَّرْفَ إلى مثلكا
دونَك عِرضي فاهْجُه راشدًا ... لا تَدْنَسُ الأعراضُ من هجوكا
والله لو كنتُ جريرًا لما ... كنتُ بأهجى لك من أصلكا

وقال أيضًا يهجوه:

يا عربيًّا من صَنْعة السُّوق ... وصنعةُ السُّوق ذاتُ تَشْقيق
ما رأيكم يا نَزارُ في رجل ... يدخُل فيكم من خَلْق مخلوق
ويحمل الوَطْبَ والعِلَابَ ولا ... يصلُح إلّا لحملِ إبريق
لقد ضربنا بالطبل أنك في الـ ... ـقوم صحيحٌ وصِيَح في البُوق
قد أخذ اللهُ من رَقَاشَ على ... تركهمُ المجدَ بالمواثيق
فالناس يسعَوْن للعلا قُدُمًا ... وهم وراء مكسَّرو السُّوق
هذا كذا كم وفي الهَياج إذا ... هِيجَ فما شئتَ من بَوَاشِيق[٢٠]

وقال أيضًا يهجوه:

أصبح الفضلُ ظاهرَ التِّيهِ ... وذاك مذ صِرتُ أُهاجِيهِ
لله شعري، أيّ مِفْوَاهةٍ ... لكلّ من دوني قوافيهِ
كم بين فضلٍ منذ هاجيتُه ... وبينَه قبلَ أُهاجيهِ
فالحمد لله وإن كنتُ لم ... أحفِلْ بقومٍ نَصَحوا فيه
رَضِيتُ أن يشتمني ساقطٌ ... شِسْعِيَ خيرٌ من مَوَاليه

وكان أبو نواس في دعاويه يتماجن ويعبث ويخفي نسبه واسم أمه لئلا يهجى، وذلك مشهور عنه. ولو غضب هو نفسه على أبيه لهجاه ولم يحتشم. والمذكور من أمره أنه كان مولى الحكميين، يفتخر باليمن ويمدحهم لذلك، ويمدح العجم ويذكرهم لأنه منهم، فلذلك قال في العجم ما قال.

قال أبو الفرج الأصفهاني: كان أبو عبيدة يقول: ذهبت اليمن بجد الشعر وهزله: امرؤ القيس بجده، وأبو نواس بهزله. وكان يقول: ذهبت اليمن بجيد الشعر في قديمه وحديثه: امرؤ القيس في الأوائل، وأبو نواس في المحدثين. وكان يقول: شعراء اليمن ثلاثة: امرؤ القيس وحسان بن ثابت وأبو نواس. وقال أيضًا: أبو نواس في المحدثين مثل امرئ القيس في المتقدمين، فتح لهم هذه الفطن ودلهم على المعاني وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرف في فنونه. وكان يقول: يعجبني من شعر أبي نواس قوله:

بَنَينا على كسرى سماءَ مُدامةٍ مكلَّلة حافاتُها بنجوم
فلو رُدّ في كسرى بن سَاسَان روحُه إذًا لاصطفاني دونَ كل نديم

وسئل يعقوب بن السكيت عما يختار روايته من أشعار الشعراء، فقال: إذا أردت من الجاهليين فلأمرئ القيس والأعشى، ومن الإسلاميين فلجرير والفرزدق، ومن المحدثين فلأبي نواس فحسب. وقيل: للعُتْبى من أشعر الناس؟ قال: عند الناس أم عندي؟ قيل: عند الناس؟ قال: امرؤ القيس؛ قيل: فعندك؟ قال: أبو نواس.

وقال عبد الله بن محمد بن عائشة: من طلب الأدب فلم يرو شعر أبي نواس فليس بتام الأدب. وسئل: من أشعر المحدثين؟ فقال: الذي يقول:

كأنّ ثيابَه أطلعـ ـن من أزراره قمرًا
يزيدك وجهُه حسنًا إذا ما زدتَه نظرا
بعين خالط التفتيـ ـرُ من أجفانها الحَورا
ووجهٍ سابِريٍّ لو تصوَّب ماؤه قطَرا
وقد خطَّت حواضنُه له من عنبرٍ طُرَرَا

وقال إبراهيم بن العباس الطويل: إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبي نواس علمت أن ذلك عنوان أدبه ورائد ظرفه.

وكان أبو نواس يقول عن نفسه: سفلت عن طبقة من تقدمني من الشعراء وعلوت عن طبقة من معي ومن يجيء بعدي، فأنا نسيج وحدي.

وحدث جماعة من الرواة ممن شاهد أبا نواس قالوا: كان أقل ما في أبي نواس قول الشعر، وكان فحلا راوية عالما.

وقال أبو عبيدة: بلغني أن أبا نواس يتعاطى قرض الشعر فتلقاني وهو سكران ماطر شاربه بعد، فقلت له: كيف فلان عندك؟ فقال: ثقيل الظل، جامد النسيم؛ فقلت: زد؛ فقال: مظلم الهواء؛ منتن الفناء، فقلت: زد، فقال: غليظ الطبع، بارد الشكل؛ قلت: زد؛ فقال: وخم الطلعة؛ عسر القلعة؛ قلت: زد؛ قال: ناتئ الجنبات، بارد الحركات؛ قال: فخففت عنه؛ فقال: زدني سؤالا؛ أزدك جوابًا؛ فقلت: «كفى من القلادة ما أحاط بالعنق».

وقال سليمان بن أبي سهل لأبي نواس: ما الذي استجيد من أجناس شعرك؟ فقال: أشعاري في الخمر لم يقل مثلها، وأشعاري في الغزل فوق أشعار الناس، وهما أجود شعري إن لم يزاحم غزلي ما قلته في الطرد.

وكان يقول: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهن الخنساء وليلى، فما ظنك بالرجال؟ وإني لأروي سبعمائة أرجوزة ما تعرف.

وكان قد استأذن خلفا في نظم الشعر، فقال: لا آذن لك في عمل الشعر إلا أن تحفظ ألف مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة؛ فغاب عنه مدة وحضر إليه فقال له: قد حفظتها؛ فقال: أنشدها، فأنشده أكثرها في عدة أيام، ثم سأله أن يأذن له في نظم الشعر؛ فقال له: لا آذن لك إلا أن تنسى هذه الألف أرجوزة كأنك لم تحفظها، فقال له: هذا أمر يصعب علي فإني قد أتقنت حفظها، فقال له: لا آذن لك إلا أن تنساها، فذهب إلى بعض الديرة وخلا بنفسه وأقام مدة حتى نسيها، ثم حضر فقال: قد نسيتها حتى كأن لم أكن قد حفظتها قط؛ فقال له: الآن فانظم الشعر.

وكان أبو نواس يقول: لا أكاد أقول شعرًا جيدًا حتى تكون نفسي طيبة، وأكون في بستان مونق، وعلى حال أرتضيها من صلة أوصل بها أو وعد بصلة، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعارًا لا أرضاها. وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أيامًا، ثم يعرضها على نفسه فيسقط كثيرًا منها ويترك صافيها، ولا يسره كل ما يقذف به خاطره. وكان يهمه الشعر في الخمر فلا يعمله إلا في وقت نشاطه. ولم يكن في الشعر بالبطيء ولا بالسريع بل كان في منزلة وسطى.

وكان الأصمعي يقول: يعجبني من شعر الشاعر بيت واحد قد أجاد قائله وهو:

ضعيفَةُ كَرِّ الطَّرْف تحسَب أنها قريبةُ عهدٍ بالإفاقة من سُقْمِ

وإنّي لآتي الأمرَ من حيث يُتَّقَى ويعلَم سَهْمي حينَ أَنْزِع مَنْ أَرْمِي

قال العنابي لرجلين تناظرا في شعر أبي نواس: والله لو أدرك الخبيث الجاهلية ما فضل عليه أحد.

وقال أبو عمرو الشيباني: أشعر الناس في وصف الخمر ثلاثة: الأعشى والأخطل وأبو نواس.

قال محمد بن عمر: لم يكن شاعر في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته، وبعد صيته وظرف لسانه.

وقال أبو حاتم: سئل أبو نواس عن شعره فقال: إذا أردت أن أجد، قلت مثل قصيدي «أيها المنتاب عن عفره»، وإذا أردت العبث قلت مثل قصيدي: «طاب الهوى لعميده»، فأما الذي أنا فيه وحدي وكله جيد فإذا وصفت الخمر.

وقال أبو ذكوان: كنا عند التوزي فذكرت عنده أبا نواس، فوضع منه بعض الحاضرين؛ فقال له التوزي: أتقول هذا لرجل يقول:

يخافُه الناسُ ويَرجْونه كأنه الجنةُ والنارُ

ويقول:

فما جازه جودٌ ولا حلّ دونَه ولكن يصير الجودُ حيث يصيرُ

ويقول:

فتَمَشّتْ في مَفَاصلهمْ كتَمَشِّي البُرْءِ في السَّقَمِ

قال ابن الأعرابي يومًا لجلسائه: ما أشعر ما قال أبو نواس في الخمر؟ فقال بعضهم:

إذا عَبّ فيها شاربُ القومِ خلتَه يُقَبِّل في داجٍ من الْليل كوكبًا

وقال آخر:

كأن كُبْرَى وصُغْرَى من فَقَاقعها حصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذَّهَبِ

وقال آخر:

تَرَى حيث ما كانتّ من البيت مَشْرِقًا وما لم تكن فيه من البيت مَغرِبا

وقال آخر:

فكأنّ الكؤوسَ فينا نجومٌ دائراتٌ بروجُها أيدينا

وقال آخر:

صفراءُ لا تنزلُ الأحزانُ ساحتَها لو مَسّها حَجَرٌ مسته سَرّاءُ

فقال ابن الأعرابي: إن هذا كله لشاعر انفرد بالإحسان فيه، وتقدم من سبقه ومن تأخر عنه، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله:

لا ينزِلُ الليلُ حيث حَلّتْ فدهرُ شُرَّابها نهارُ

قال مسلم بن بهرام: لقيت أبا العتاهية فقلت له: من أشعر الناس؟ قال: تريد جاهليها أو إسلاميها أو مولدها؟ قال: كُلا أريد؛ قال: الذي يقول في المديح:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نُثني وفوق الذي نُثني
وإن جَرَتِ الألفاظُ يومًا بمدحةٍ لغيرك إنسانًا فأنت الذي نَعني

والذي يقول في الزهد:

ألا ربّ وجهٍ في التُّراب عَتِيقِ ويارِبّ حُسْنٍ في التراب رقيقِ
ويارِبّ حرمٍ في التراب ونَجْدةٍ ويارِبّ رأيٍ في التراب وَثِيقِ

فقل لقريب الدار إنك راحلٌ إلى منزلٍ نائي المَحَلِّ سَحيقِ
وما الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ وذُو نَسَبٍ في الهالكين عريقِ
إذا امتحن الدنيا لَبِيبٌ تَكَشَّفتْ له عن عدوٍّ في ثياب صديقِ

وكان يقول: سبقني أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت أني سبقته إليها بكل ما قلته فإنه أشعر الناس فيها، منها قوله:

يا كبيرَ الذَّنب عفو اللـ ـه من ذنبك أكبرْ

وقوله:

مَنْ لم يكن لله متَّهما لم يُمْسِ محتاجًا إلى أحَدِ

وقوله:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ له عن عدوٍّ في ثياب صديقِ

ثم قال: قلت في الزهد ستة عشر ألف بيت وددت أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات.

وقال الجاحظ: سمعت النَّظَّام يقول، وقد أنشد شعرًا لأبي نواس: كأن هذا الفتى جمع له الكلام فاختار أحسنه. وقال بعضهم: كأن المعاني حبست عليه، فأخذ حاجته وفرق الباقي على الناس. وقال أبو حاتم: كانت المعاني مدفونة حتى أثارها أبو نواس.

حدث الحسين بن الخصيب الكاتب، قال: قال أحمد بن يوسف الكاتب: كنت أنا وعبد الله بن طاهر عند المأمون، وهو مستلق على قفاه، فقال لعبد الله بن طاهر: يا أبا العباس، من أشعر من قال الشعر في خلافة بني هاشم؟ فقال: أمير المؤمنين أعرف بهذا وأعلى عينا؛ فقال له المأمون: على ذلك قفل؛ تكلم أنت يا أحمد بن يوسف، فقال عبد الله بن طاهر: أشعرهم الذي يقول:

ويا قبرَ معنٍ كنت أوّلَ حُفْرة من الأرض خُطَّت للسَّماحة منزلا

قال أحمد بن يوسف الكاتب: فقلت: بل أشعرهم الذي يقول:

أَشْبهتِ أعدائي فصرتُ أُحِبُّهمْ إذ كان حَظِّي منك حَظِّي منهُمُ

فقال المأمون: يا أحمد أبيت إلا غزلا! أين أنتم عن الذي يقول:

يا شقيقَ النَّفْس من حَكَمِ نِمْتَ عن لَيْلي ولم أَنَمِ

فقلنا: صدقت يا أمير المؤمنين.

وكان المأمون يقول: لو سئلت الدنيا عن نفسها فنطقت، لما وصفت نفسها كما وصفها أبو نواس في قوله:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تَكَشّفتْ له عن عدوٍّ في ثياب صديق

ورد على العتابي بحلب عدة من الكبار من أهل قنسرين، فدخلوا وسلموا؛ وكان في يده رقعة ينظر إليها، فقال لهم: لقد سلك صاحب هذه الرقعة واديًا ما سلكه أحد قبله؛ فنظروا فإذا هو شعر أبي نواس في جنان جارية آل عبد الوهاب الثقفي، وهو قوله:

رَبْعُ الكَرَى بين الجفون مُحِيلُ عَفَّى عليه بُكيَّ عليك طويلُ
يا ناظرًا ما أقلعتْ لحظاتُه حتى تشحَّط بينهن قتيلُ
أحللتُ قلبي من هواكَ محِلَّةً ما حلَّها المشروبُ والمأكولُ
بكمال صورتك التي من دونِها يتخيّر التشبيهُ والتمثيلُ
فوقَ القصيرةِ والقصيرةُ فوقَها دون السَّمِين ودونَها المهزولُ

ومما أنشده العتابي لأبي نواس فقال أحسن وأجاد:

متتايهٌ بجماله صَلِفٌ لا يستطاع كلامُه تِيهَا
للحسن في وَجَناته بِدَعٌ ما إن يَمَلُّ الدرسَ قاريها
لو كانت الأشياءُ تعقله أَجْللنَه إجلالَ باريها
لو تستطيع الأرض لانقبضت حتى يصير جميعه فيها

وقوله:

إن السحابَ لتستحيي إذا نظرتْ إلى نداك فقاستْه بما فيها
حتى تَهُمّ بإقلاعٍ فيمنعُها خوفٌ من السُّخْط من إجلال منشيها

قال محمد بن صالح بن بيهس الكلابي: لما دخلت العراق صرت إلى مدينة السلام فسألت عمن بها من الشعراء المحسنين، وذلك في أيام خلافة الأمين أو عند موته قبل دخول المأمون بيسير، فقيل لي: قد غلب عليهم فتى من أهل البصرة يقال له الحسن ابن هانئ ويعرف بأبي نواس، وقد كنت سمعت شيئًا من شعره، فأتاني فتى كان من أهل الأدب، فقلت له: هل تروي لأبي نواسكم هذا شيئًا؟ قال: أروي له أبياتًا في الزهد وليس هو من طريقته، فقلت أنشدنيها؛ فأنشدني:

أخي ما بالُ قلبك ليس يَنْقَى كأنك لا تظُنّ الموتَ حَقّا
ألا يا بنَ الذين فَنُوا وبادوا أما والله ما ذهبُوا لتَبْقَى
وما للنفس عندكَ من مُقَام إذا ما استكملتْ أَجَلًا ورِزْقًا
وما أحدٌ بزادك منك أَحْظَى ولا أحدٌ بذنبك منك أَشْقَى
ولا لكَ غيرَ تقوى الله زادٌ إذا جعلتِ إلى اللَّهَوات تَرْقَى

فقلت له: أحسن والله! قال: أفلا أنشدك أحسن من هذا؟ قلت بلى؛ فأنشدني في رثاء محمد الأمين:

طوى الموتُ ما بيني وبين محمد وليس لما تَطْوي المنيةُ ناشرُ
فلا وصلَ إلا عَبْرةٌ تستديمُها أحاديثُ نفسٍ ما لها الدهرَ ذاكرُ
لئن عَمَرتْ دور بمن لا أوده لقد عَمَرتْ ممن أحبُّ المقابرُ
وكنتُ عليه أحذرُ الموتَ وحدَه فلم يَبْقَ لي شيءٌ عليه أُحاذِرُ

فقال: بحق ما غلب هذا على أهل الأدب وقدموه على غيره.

قال محمد بن جعفر الأصم: كنا عند أبي نعيم، فتذاكرنا قول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين ذكرت شعر لبيد يرثي أخاه أربد:

ذَهَبَ الذين يُعاشُ في أكنافهم وَبقيتُ في خَلَفٍ كجلد الأجرب

ولقد أنشدني أبو نعيم أبياتًا، قلنا: أنشدناها، فقال:

ذهبَ الناسُ فاستَقُّلوا وصِرْنَا خَلَفًا في أراذل النَّسناسِ
في أُناسٍ نَعُدُّهم من عديدٍ فإذا فُتِّشُوا فليسوا بناسِ
كلما جئتُ أبتغي الفضلَ منهم بَدَرُوني قبل السؤالِ بياس
وبَكَوْا لي حتى تمنَّيتُ أنِّي مُفْلتٌ عند ذاك رأسًا براس

ثم قال: أتدرون لمن الشعر؟ قلنا: لا، قال: للحسن بن هانئ.

قال أبو عبد الرحمن الضرير: رأيت مسلم بن الوليد بجرجان وهو يتولاها، فسألني عمن خلفت من الشعراء؛ فقلت له: أما من الكوفيين فأبو نواس، وهو مقدم عندهم؛ فقال: ويحك! كيف يتقدم وهو يقول: رويدك يا إنسان لا أنت تقفز أرأيت قوله: «تقفز» خرجت من بين فكي شاعر قط! ثم قال: ويلك! وكيف يكون كذلك وهو يحيل ويتخطى من صفة المخلوق إلى صفة الخالق؟ فقلت: مثل ماذا من قوله؟ قال: أما فيما أحال فكقوله:

وأخفتَ أهلَ الشِّرْكِ حتى إنه لَتَخافُك النُّطَفُ التي لم تُخْلَقِ

وهذا من الإغراق المستحيل في العقول ومما ليس على مذهب القوم؛ وأما في تخطيه بصفة المخلوق إلى صفة الخالق فكقوله:

يَجِلّ أن تلحَقَ الصفاتُ به فكلّ خُلْقٍ لخُلْقه مثلُ

وكقوله:

بريءٌ من الأشباه ليس له مثل

ومما قيل عن أبي نواس إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء وأبو نواس لا يحسنهما، وأجود شعره في الخمر والطرد، وأحسن ما فيهما مأخوذ ليس له وإنما سرقه، وحسبك من رجل يريد المعنى ليأخذه فلا يحسن أن يبني عليه حتى يجيء به قبيحًا، مثل قوله: «وداوني بالتي كانت هي الداء» أخذه من قول الأعشى: «وأخرى تداويت منها بها» والذي أخذه منه أحسن. ومنها أيضًا قوله: «إن الشباب مطية الجهل» أخذه من قول النابغة الجعدي: «فإن مطية الجهل الشباب». وقوله: «كطلعة الأشمط من إهابه» أخذه من قول أبي النجم: «كطلعة الأشمط من كسائه». ولكن رزق أبو نواس في شعره أن سار وحمله الناس وقدمه أهل عصره، وإن له على ذلك لأشياء حسانًا لا يدفعها ولا يطرحها إلا جاهل بالكلام أو حاسد.

ومن أحسن مدائح أبي نواس قوله من أرجوزته التي يمدح بها الفضل بن الربيع وهي:

وبلدة فيها زَوَرْ ... صَعْراءَ تحظَى في صَعَرْ
مَرْتٍ[٢١] إذا الذئبُ اقتفرْ ... بها من القومِ الأثرْ
كان له من الجَزَرْ ... كلُّ جَنِين ما اشْتَكرْ[٢٢]
ولا تَعَلَّاه شَعَرْ ... مَيْتُ النَّسَاحيُّ الثَّغَرْ
عَسَفْتُها[٢٣] على خَطَرْ ... وغَرَرٍ من الغَرَرْ
ببازلٍ حين فَطَرْ ... يَهُزُّه جِنُّ الأَشَرْ
لا مُتَشَكٍّ من سَدَرْ[٢٤] ... ولا قريبٍ من خَوَرْ
كأنّه بعدَ الضُّمُرْ ... وبعدَ ما جال الضُّفُرْ[٢٥]
وانْمَحَّ فيّ فَحَسْر: ... جَأْبٌ[٢٦] رَبَاعُ المُثَّغَرْ
يَحْدُو بُحقْب كالأكَرْ ... ترى بأَثْباج القَصَرْ[٢٧]
منهنّ تَوْشِيمُ الجَدَرْ ... رَعَيْنَ أبكارَ الخُضَر
شَهْرَيْ رَبِيع وصَفَرْ ... حتى إذا الفحلُ جَفَرْ[٢٨]

وأشبه السَّفَى الإبَرْ ... ونَشَّ أَذْخَارُ النُّقَرْ[٢٩]
قُلْنَ له: ما تأتمِرْ؟ ... وهنَّ إذ قُلْنَ: أَشِرْ
غيرُ عَوَاصٍ ما أَمَرْ ... كأنَّها لمن نَظَرْ
رَكْبٌ يَشِيمُونَ مَطَرْ ... حتى إذا الظلُّ قَصُرْ
يَمَّمْنَ من جَنْبَي هَجَرْ ... أخضرَ طَمَّامَ العَكَرْ
وبينِ أَحْقافِ القَتَرْ ... سَار وليس للسَّمَرْ
ولا تِلَاواتِ السُّوَرَ ... يمسَحُ مِرْنَانًا يَسَرْ[٣٠]
زُمَّتْ بمَشْزُورِ المِرَرْ ... لَأْمٍ كحُلْقُومِ النُّغَرْ[٣١]
حتى إذا اصْطَفَّ السَّطَرْ ... أهدَى لها لو لم تُجَرْ
دَهْياءَ يَحْدُوها القَدَرْ ... فتِلْكَ عَنْسٌ لم تُدَرْ
شَهْبَا إذا الآلُ ظَهَرْ ... إليكَ كلّفنا السَّفَرْ
خُوصًا يُجَاذِبْنَ النَّظَرْ ... قد انطوتْ منها السِّرَرْ
طَيّ القَرَاريّ[٣٢] الحبَرْ ... لم تتقعَّدْها الطِّيَرْ
ولا السَّنِيحُ المزدَجَرْ ... يا فَضْلُ للقوم البَطَرْ
إذ ليس في الناس عَصَرْ ... ولا من الخوف وَزَرْ
ونزلتْ إحدى الكُبَرْ ... وقيلَ صَمَّاءُ الغيَرْ
فالناسُ أبناءُ الحَذَرْ: ... فرَّجْتَ هاتيكَ الغُمَرْ
عَنّا «وقد صَابَتْ بُقر»[٣٣] ... كالشمس في شَخْصٍ بشَرْ
أعيا مُجارِيكَ الخَطَرْ ... أبوك جَلّى عن مُضَرْ
يوم الرِّواق المحتَضَر ... والخوفُ يَفْرِي ويَذَرْ
لما رأى الأمرَ اقمطَرّ[٣٤] ... قام كريمًا فانتصَر
كهَزّة العَضْب الذّكَر ... ما مسّ من شيء هَبَر[٣٥]
وأنت تَقْتافُ الأثَر ... من ذي حُجُول وغُرَرْ
معيد وِرْدٍ وصَدَر ... وإن علا الأمرَ اقتدر
فأين أصحابُ الغَمَر ... إذ شَربوا كأس المَقِر[٣٦]
وقُصِرُوا فيمن قُصِر ... هيهات لا يخفَى القمر
أصحرتَ[٣٧] إذ دَبّوا الخَمَر ... شكرا، وحرٌّ مَنْ شَكَر

فاللهُ يُعطيك الشَّبرَ[٣٨] وفي أعاديك الظَّفَرْ
واللـه مَنْ شاء نَصَر وأنت إن خِفْنا الحَصَر[٣٩]
وهَرّ دهرٌ وكَشَرْ عن ناجِذَيْه وبَسَر[٤٠]
أغنيتَ ما أغنى المَطَرْ وفيك أخلاقُ اليَسَر
فإنْ أبَوا إلا العَسَرْ أمررتَ[٤١] حبلًا فاستمرّ
حتى ترى تلك الزُّمَر تَهْوي لأذقان الثَّغَر[٤٢]
من جذْبِ أَلْوَى[٤٣] لو نتر إليه طَوْدًا لانأطَرْ[٤٤]
صعبٍ إذا لاقى أَبَرْ وإن هَفَا القومُ وَقَرْ
أو رَهِبُوا الأمرَ جَسَرْ ثم تَسَامَى فَفَغَرْ
عن شقْشق ثم هَدَرْ ثم تَنَاجَى فخَطَرْ
بذي سِبِيبٍ[٤٥] وعُذُرْ يمضع أطرافَ الوَبَرْ
هل لك والهَلّ[٤٦] خِيَرْ فيمن إذا غبتَ حَضَرْ
أو نالكَ القومُ ثَأَرْ وإن رأى خيرًا شَكَرْ
أو كان تقصيرٌ عَذرْ

ولما عمل أبو نواس القصيدة التي أولها:

ومستعبدٍ إخوانَه بثرائه

بلغت الأمين، فبعث إليه، وعنده سليمان بن جعفر. فلما دخل عليه قال له: يا عاض بظر أمه العاهرة، ويا مدعي ولاء حاء وحكم! أتدري يا بن اللخناء من توليت وإلى من ادعيت؟ إلى الأم قبيلتين في اليمن، علوج باغين. أنت تكتسب بشعرك أوساخ أيدي الناس اللئام، وتقول:

ولا صاحب التاج المحجَّب في القَصْر

أما والله ما نلت مني شيئًا بعد ذلك أبدا! فقال له سليمان بن أبي جعفر: إي والله! نعم هو مع هذا من كبار الثنوية[٤٧] (وكان يرمي بذلك)؛ فقال له محمد الأمين: وهل يشهد عليه شاهد بشيء من ذلك؟ فأتاه سليمان بعدة نفر، فشهدوا عليه أنه شرب في يوم مطير فوضع قدحه تحت السماء في المطر فوقع فيه المطر؛ فقالوا له: ما تصنع بذلك ويحك؟ قال: أنتم تزعمون أنه ينزل مع كل قطرة ملك، فكم تراني أشرب من الملائكة! ثم شرب ما في القدح؛ فغضب محمد، وأمر به إلى السجن. فذلك قول أبي نواس:

يا ربِّ إن القومَ قد ظلَمُونِي ... وبلا اقترافِ معطِّلٍ حبَسُونِي
وإلى الجحود بما عرفت خلافَه ... ربِّي إليك بِكذْبِهم نَسَبُونِي
ما كان إلّا الجَرْىُ في مَيْدانِهم ... في كلّ خزْيٍ والمَجَانَةُ دِيني
لا العذرُ يُقبَل لي ويُفْرَق شاهدي ... منهم، ولا يرضَون حَلْفَ يميني
ما كان — لو يدرون — أولَ مَخْبأ ... في دار مَنْقَصة ومنزل هُونِ
أما الأمينُ فلستُ أرجو دفعَه ... عنّي، فمن لي اليوم بالمأمون

فبلغت أبياته المأمون، فقال: والله لئن لحقته لأغنينه غنى لا يؤمله. فمات قبل دخول المأمون بغداد.

لما وصلت الخلافة إلى محمد الأمين وولى الفضل بن الربيع الوزارة، تفرغ محمد للهو والصيد والنزهة، وكان لا يخرج إلا لصيد أو لنزهة. فخرج ذات يوم وقد أمر الجند والقواد فركبوا، ولبس ثيابه وتقلد سيفه، وأعدت الحراقات[٤٨] والزلاجات في دجلة؛ فقال له إسماعيل بن صبيح — وكان كاتب سره —: يا أمير المؤمنين إن قوادك وجندك وعامة رعيتك قد خبثت نفوسهم، وساءت ظنونهم، وكبر عندهم ما يرون من احتجابك عنهم، فلو جلست لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك! فإن في ذلك تسكينًا لهم ومراجعة لآمالهم! فجلس في مجلسه وأذن للناس عامة فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم، وقام الخطباء فخطبوا، والشعراء فأنشدوا، فلم يكن أحد منهم يتعدى إلى الأطناب والتطويل، إلا أمر بالسكوت ومنع من القول.

وقام فيمن قام أبو نواس، فقال: يا أمير المؤمنين! هؤلاء الشعراء أهل حجر ومدر، وإبل ووصف للبقر وبيوت الشعر، قد جفت ألفاظهم، وغلظت معانيهم، ليس لهم بصر بمدح الخلفاء ونشر مكارمهم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إنشاده فليفعل، فأذن له فأنشده:

أيا دارِها بالماء حتى تُلِينَها فلن تُكرم الصَّهْباءَ حتى تُهينَها
أُغالي بها حتى إذا ما ملكتُها أهنتُ لإكرام الخليل مَصُونَها
وصفراءَ قبل المَزْج بيضاءَ بعده كأنّ شعاع الشمس يلقاك دونَها
ترى العينَ تستعفيك من لَمعَانها وتحسُرُ حتى ما تُقِلّ جفونَها
نَزُوعٌ بنفس المرء عما يَسُوءه ويُجْذِلُه ألّا يزالَ قرينَها
كأنّ يواقيتا رواكدُ حولَها وزُرْقَ سَنَانِيرٍ تدير عُيونَها
وشَمْطاءَ حلّ الدهرُ منها بنَجْوةٍ دلفتُ إليها فاستللتُ جَبينَها
كأنا حُلُولٌ بين أكنافِ روضةٍ إذا ما سلَبْناها مع الليل طِينهَا

إلى أن أكمل القصيدة. فقال له محمد: ألم أنهك عن شرب الخمر! قال: بلى يا أمير المؤمنين، والله ما شربتها منذ نهيتني عنها ومنعتني من شربها، وأنا الذي أقول:

أيُّها الرائحانِ باللوم لُوما لا أذوق المدامَ إلا شَمِيمَا
نالني بالمَلامِ فيها إمامٌ لا أَرَى لي خِلَافَه مستقيمَا
فاصرِفاها إلى سِوايَ فإنِّي لستُ إلا على الحديثِ نديمَا
كبرُ حظِّي منها إذَا هي دارتْ أن أَرَاها وأن أشمَّ النسيمَا
فكأنِّي وما ازيِّن منها قَعَدِيٌّ يُحَسِّن التحكيمَا[٤٩]
كلَّ عن حملِه السلاحَ إلى الحر ب فأَوصَى المُطِيقَ ألّا يقِيمَا

فتبسم محمد، وقال له: أحسنت! وقام بعض الشعراء فأنشد:

ترقَّى في فضائله الأمينُ وزايلَه المُشَاكِلُ والقَرينُ
وأورق زَهْرةُ التقوى وعَزّتْ خلافتُه وصُدِّقتِ الظُّنُونُ
تَمَسُّ منابرَ الخلفاء منه يَدٌ بخلاف طاعتِها المَنُونُ
يخاف الخوفُ صولتَه ويرجو نداه الجودُ فهو له خَدين

فقال عدة ممن حضر: قد أوجز وأجاد، أكرم الله أمير المؤمنين! فقال أبو نواس: أشعر منه يا أمير المؤمنين الذي يقول:

ألا يا خيرَ من رأتِ العيونُ نَظِيرُك لا يُحَسُّ ولا يَكُونُ
وفضلُك لا يُحَدّ ولا يُجَارَى ولا تَحْوي حيازتَه الظنونُ
فأنت نَسيجُ وحْدك لا شبيهٌ نُحَاشِيه عليك ولا خَدِينُ
خُلِقتَ بلا مشاكلة لشيء فأنت الفوقُ والثقلان دُونُ
كأن الملكَ لم يَكُ قبلُ شيئًا إلى أن قام بالملكِ الأمينُ

قال: ففضله محمد وأحسن جائزته. ويقال: إنه قالها بديها.

ثم نهض محمد من مجلسه ذلك، فركب الحراقة إلى الشماسية، واصطفت له الخيل وعليها الرجال على شاطئ دجلة، وحملت معه المطابخ والخزائن. وكان ركوبه حراقة[٥٠] على مثال الأسد. فما رأى الناس منظرًا كان أبهى ولا مسيرًا كان أحسن من ذلك المنظر والمسير. وركب أبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه، فقال:

سخَّر اللهُ للأمين مطايا لم تسخَّر لصاحب المحرابِ[٥١]
فإذا ما ركابُه سِرْنَ بحرًا سار في الماء راكبًا ليثَ غابِ
أسدًا باسطا ذراعيه يعدو أَهْرَتَ الشِّدْقِ[٥٢] كالِحَ الأنيابِ
لا يعانيه باللِّجام ولا السَّو طِ ولا غَمْزِ رجلِهِ في الرِّكابِ
عَجِب الناسُ إذ رأوْك على صو رة ليتٍ تمرُّ مَرَّ السحابِ
سبَّحوا إذ رأوك سرتَ عليه كيف لو أبصروك فوقَ العُقَابِ
ذات زَوْر ومِنْسَرٍ وجناحـ ـين تشُقُّ العُبَاب بعد العُبَابِ
تسبِق الطيرَ في السماء إذا ما اسـ ـتعجلوها بجَيْئةٍ وذهابِ
بارَك الله للأمين وأبقا ه وأبقى له رداءَ الشبابِ
ملك تَقْصُر المدائحُ عنه هاشِميٌّ موفَّق للصوابِ

ويقال: إن هذا الشعر قاله أبو نواس في محمد، وقد ركب حراقته الدلفين؛ فقال له شيخ إلى جانبه: اتق الله يا هذا! فقال له أبو نواس: يا شيخ، إن الله لم يسخر لصاحب المحراب الدلفين، وقد سخر له ما هو خير من الدلفين، فأي شيء تنكر من هذا؟

قال ابن حبيب: كنت مع مؤنس بن عمران، ونحن نريد الفضل بن الربيع ببغداد، فقال مؤنس: لو دخلنا على أبي نواس في السجن فسلمنا عليه! ففعلنا؛ فقال أبو نواس لمؤنس: أين تريد؟ فقال: أريد أبا العباس الفضل بن الربيع؛ قال فبلغه رقعة أعطيكها، قال: نعم؛ فأعطاه رقعة فيها:

ما من يدٍ في الناس واجدةٍ	كيدٍ أبو العباس مَوْلاها
نام البُغَاةُ على مضاجهم	وسَرَى إلى نفسي فأحياها
قد كنتُ خِفْتُكَ ثم أمّنني	من أن أخافك خوفُك الله
فعفوتَ عنّي عفوَ مقتدر	وَجَبَتْ له نِقَمٌ فألغاها

فكانت هذه الأبيات سبب خروجه من السجن.

انصرف أبو نواس من بعض المواخير سكران، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة، فدخل فقام في الصف الأول؛ فقرأ الإمام: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فقال أبو نواس من خلفه: لبيك؛ فلما قضيت الصلاة لببوه[٥٣] وقالوا له: يا كافر نشهد عليك بالكفر ودفعوه. فبلغ خبره الرشيد، فدعا له حمدويه صاحب الزندقة، وأحضر أبا نواس فقال له حمدويه: يا أمير المؤمنين، إن هذا ماجن، وليس هو بحيث يظن؛ فقال له الرشيد: ويحك! إنه وقع في نفسي منه شيء، فامتحنه. قال: فخط له صورة ماني،[٥٤] وقال له: ابصق عليها؛ فأهوى أبو نواس بفيه ليقيء عليها؛ فقال له حمدويه: قد قلت لك يا أمير المؤمنين إنه ماجن. قال: ودعا برجل من الزنادقة مشهور، وقال له: ابصق عليها؛ فقال: وما معنى البصاق! إنه من أخلاق الشرك ولا أفعله، وأبى أن يفعل. فقال الرشيد لبعض خدم القصر: امض بهذا (يعني أبا نواس) إلى السندي، فقل له: أدبه وأطلقه، وبهذا (يعني الزنديق) فقل له: احبسه قبلك إلى أن تستتيبه، فإن تاب وإلا قتلناه. قال: فمضى بهما الخادم، فلما صار في آخر الصحن، قال أبو نواس للخادم: إلى أين تذهب بنا؟ قال: إلى السندي؛ قال: فما تقول له؟ قال: أقول له: يحبسك قبله حتى تستتاب أو تقتل، ويؤدب هذا ويطلقه. قال: فرفع أبو نواس يده ولطمه، وقال له: يا بن الزانية، من الساعة نسيت! وبصر بهم الرشيد، فقال: ردوهم؛ فقال لأبي نواس: ما هذا الذي رأيت منك؟ قال: أراد والله أن يهلكني ويطرحني بحيث أنسى أبدا أو أبقى مخلدًا، سله يا أمير المؤمنين عن الرسالة، فإذا هو قد غيرها؛ فضحك من أبي نواس وأطلقه.

قال رزين الكاتب: اجتمعنا يوما أنا وأبو نواس وعلي بن الخليل في سوق الكرخ، وكنا نجتمع ونتناشد الأشعار ونتذاكر الأخبار ونتحدث بها. فقال أبو نواس: أدبر من كان في نفسي وكان أسرع الخلق في طاعتي، فما أدري ما أحتال له؟ فقال علي بن الخليل يمازحه: يا أبا علي، سل شيخك وأستاذك يعطفه عليك؛ فقال له أبو نواس: من تعني؟ قال: من أنت في طاعته ليلك ونهارك (يعني ابليس) فإن لم يقض لك هذه الحاجة، فما ينبغي لك أن تسأله مسألة ولا أن تقر عينه بمعصية؛ فقال: هو أسد لرأيه من أن يخل بي أو يخذلني؛ وانقضى مجلسنا ذلك. فلما كان بعد أيام اجتمعنا في ذلك الموضع، وأخذنا في أحاديثنا، فضحك أبو نواس؛ فقلنا له: ما أضحكك؟ فقال: ذكرت قول علي بن الخليل يومئذ: سل شيخك يعطفه عليك. حينئذ قد سألته يا أبا الحسن فقضى الحاجة، وما مضت والله ثالثة حتى أتاني من غير أن أبعث إليه ومن غير أن أستزيره، فعاتبني واسترضاني، وكان الغضب منه والتجني، وأحسب الشيخ (يعني ابليس) كان يتسمع علينا في وقت كلامنا؛ وقد قلت أبياتا في ذلك؛ فقلنا: هاتها، فأنشد:

لما جفاني الحبيبُ وامتنعتْ ... عنِّي الرسالاتُ منه والخبرُ
واشتدّ شوقي فكاد يقتلُني ... ذكرُ حبيبي والهمُّ والفِكَرُ
دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له ... في خَلْوة والدموع تنحدر:
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد ... أقرح جَفْني البكاءُ والسهرُ؟
إن أنت لم تُلْقِ لي المودةَ في ... صدر حبيبي وأنت مقتدر
لا قلتُ شعرا ولا سمعتُ غِنًا ... ولا جرى في مفاصِلي السَّكَرُ
ولا آزالُ القرآنَ أدرُسُه ... أروح في درسِه وأبتكرُ
وألزم الصومَ والصلاةَ ولا ... أزال دهري بالخير آتمرُ
فما مضتْ بعد ذاك ثالثةٌ ... حتى أتاني الحبيبُ يعتذرُ
ويطلب الودَّ والوِصَالَ على ... أفضلِ ما كان قبلَ يهتجرُ
فيا لها مِنّةً لقد عظُمتْ ... عندي لإبليس ما لها خَطَرُ

لما قدم أبو نواس على الخصيب[٥٥] بمصر أذن له وعنده جماعة من الشعراء فاستنشده، فقال له: هنا جماعة من الشعراء هم أقدم مني وأسن، فأذن لهم في الإنشاد، فإن كان شعري نظير أشعارهم أنشدت وإلا أمسكت؛ فاستنشدهم الخصيب، فأنشدوا مديحًا في الخصيب، فلم تكن أشعارهم مقاربة لشعر أبي نواس؛ فتبسم أبو نواس ثم

قال: أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى لتلقف ما يأفكون؟ قال هات، فأنشده قصيدته التي أولها:

أجارةَ بيتَيْنا أبوكِ غَيُورُ ومَيسورُ ما يُرْجَى لديكِ عَسِيرُ

حتى أتى على آخرها، فانفض الشعراء من حوله.

ويقال: إن أبا نواس كان خرج إلى مصر في زي الشطار[٥٦] وتقطيعهم بطرة قد صففها وكمين واسعين وذيل مجرور ونعل مطبق، وكان خروجه مع سليمان بن أبي سهل؛ فلما دخل على الخصيب بهذه الصورة ازدراه واستخف به، وكان تورد عليه كتب الجلة ممن بباب السلطان، ووردت كتب أبي نواس فيها فقرأها ولم يستنشده، فانصرف مهموما. وجاءه أهل الأدب فاستمعوا شعره وكتبوه وأنشدوه للخصيب؛ فاستحضره فأنشده:

أجارةَ بَيْتَيْنا أبوكِ غيورُ ومَيسورُ ما يُرْجَى لديك عَسِيرُ
فإن كنتِ لا خِلْما[٥٧] ولا أنت زوجةً فلا بَرِحَتْ دوني عليكِ سُتُورُ
وجاورتُ قوما لا تزاورَ بينَهم ولا وصلَ إلّا أن يكون نُشُورُ
فما أنا بالمشغوف ضربةَ لازِبٍ ولا كلُّ سلطان عليّ قَدِير
وإنّي لطَرْفِ العين بالعين زاجرٌ فقد كدتُ لا يَخْفَى علىّ ضميرُ
كما نَظرتْ والريحُ ساكنةٌ لها عُقَابٌ بأرساغ اليدين نُدُورُ[٥٨]
طوتْ ليلتين القوتَ عن ذي ضرورةٍ أُزَيْغِبَ لم ينبُتْ عليه شَكِيرُ[٥٩]
فأوفتْ على علياءَ حين بدا لها من الشمس قَرْنٌ والضَّرِيبُ يمورُ[٦٠]
تقلِّبُ طرفًا في حِجَاجَيْ مغارةٍ من الرأسِ لم يدخُل عليه ذَرُورُ[٦١]

ولما قال أبو نواس:

تقول التي بيتها خَفَّ مركبي: عزيزٌ علينا أن نراك تَسِيرُ
أما دون مصرٍ للغنى متطلَّبٌ؟ بَلَى إن أسباب الغنى لكثير
فقلتُ لها واستعجْلتها بوادرٌ جرتْ فَجَرى في جَرْيهن عَبِيرُ

ذَرِيني أكثِّر حاسديك بِرحْلَة إلى بلدٍ فيه الخَصيبُ أميرُ

قال له الخصيب: إذا يكثر حسادها وتبلغ أملها، وأمر له بألف دينار.
وتمامها:

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيب ركابُنا فأيّ فتًى بعدَ الخصيب تزور!
فما جازه جودٌ ولا حَلَّ دونَه ولكن يصير الجودُ حيث يصير
فتًى يشتري حسنَ الثناء بماله ويعلم أن الدائراتِ تَدُورُ
ولم تَرَ عيني سُودَدًا مثلَ سُودَدٍ يحِلُّ أبو نصرٍ به ويسير
وأطرق حَيَّات البلاد لحَيَّةٍ خَصِيبيِّة التصميم حين تَسُورُ[٦٢]
سموْت لأهل الجور في حال أمنِهم فأضحَوْا وكلٌّ في الوَثَاقِ أسيرُ
إذا قام غنَّتْه على الساق حِلْيةٌ لها خَطْوه عند القيَامِ قصيرُ
فمن يَكُ أمسى جاهلًا بِمقَالتي فإن أميرَ المؤمنين خَبِيرُ
فما زلتَ تُولِيه النصيحةَ يافعًا إلى أن بدا في العارضيْن قَتيرُ[٦٣]
إذا غاله أمرٌ فإمّا كفَيْتَه وإما عليه بالكِفاءِ تُشيرُ
إليك رمت بالقوم هُوجٌ كأنما جماجمها تحت الرِّحال قبور
رحلْنَ بنا من عَقْرَقُوفَ[٦٤] وقد بدا من الصبح مفتوقُ الأديم شَهيرُ
فما نَجِدتْ[٦٥] بالمَاء حتى رأيتُها مع الشمس في عينْي أَبَاغَ تَغُورُ
وغُمِّرْن من ماء النقيب بشَرْبةٍ وقد حان من ديك الصباح زَمِيرُ
ووافَيْنَ إشراقًا كنائسَ تَدْمُرٍ وهنّ إلى رُعْن المدخّن صُورُ[٦٦]
يؤمْمَن أهلَ الغَوطتين كأنما لها عند أهل الغُوطتيْن ثُؤُورُ
وأصبحْنَ بالجولان يَرْضَخْن[٦٧] صخرَها ولم يبق من أجراحهن شُطُورُ
وقاسيْنَ ليلا دونَ بْيسانَ لم يكد سَنَا صبحِه للناظرين يُنيرُ
وأصبحن قد فوَّزْنَ من نهر فطرسٍ وهنّ عن البيت المقدّس زورُ[٦٨]
طوالب بالرُّكبان غرة هاشم وفي الفَرَما من حاجِهن شُقُور[٦٩]
ولما أتت فسطاطَ مصر أجارها على ركبها أن لا تزال مجيرُ
من القوم بَسَّامٌ كأن جبينَه سَنَا الفجرِ يَسْري ضوءُه وينيرُ
زها بالخصيب السيفُ والرمح في الوَغَى وفي السّلم يزهو مِنبرٌ وسريرُ

جوادٌ إذا الأيدي كففْنَ عن الندى ... ومن دون عورات النساء غَيُورُ
له سَلَفٌ في الأعجمين كأنهم ... إذا استُؤذنُوا يومَ السلام بدورُ
وإنِّي جدير إذ بلغتُك بالمنى ... وأنت بما أَمّلتُ منك جديرُ
فإن تُولِني منك الجميلَ فأهلُه ... وإلا فإنّي عاذرٌ وشَكُورُ

وقال يمدح العباس بن الفضل بن الربيع وأجاد:

ساد الملوكَ ثلاثةٌ ما منهمُ ... إن حُصِّلُوا إلا أغرُّ قَرِيعُ
ساد الربيعُ وساد فضلٌ بعدَه ... وعَلَتْ بعبَّاسِ الكريم فُروعُ
عباسُ عباسٌ إذا احتدَم الوَغَى ... والفضلُ فضلٌ والربيعُ ربيعُ

وقال يعاتب عمر الوراق:

يا من جَفَاني وَملَّا ... نسيتَ أهلًا وسَهْلًا
ومات مرحبُ لما ... رأيتَ مالِيَ قَلَّا
إني أظنّك تَحْكي ... فيما فعلتَ القِرِلَّى[٧٠]
تلقاه في الشرَّ يَنْأَى ... وفي الرخا يتدلَّى

وله في عزة النفس:

ومستعبدٍ إخوانَه بِثَرَائه ... لبستُ له كبْرًا أبرّ على الكِبْرِ
إذا ضَمَّني يومًا وإياه مَحْفِلٌ ... يرى جانبي وَعْرًا يزيد على الوَعْرِ
أُخالفه في شكله وأجرَه ... على المنطق المبرور والنظر الشزْرِ
وقد زادني تِيهًا على الناس أنني ... أرانِيَ أَغْناهم وإن كنتُ ذا فَقْرِ
فوالله لا يُبْدي لساني لَجَاجَةً ... إلى أحد حتى أُغَيَّب في قبري
فلا يطمعَنْ في ذاك منّيَ طامعٌ ... ولا صاحبُ التاج المحجَّبُ في القصر
فلو لم أَرِثْ فخرًا لكانت صيانتي ... عن الناس حَسْبي من سؤالي من الفَخْر

دخل أبو نواس بعد ما نسك على قوم من إخوانه عندهم شراب ومغن، فعرضوا عليه الجلوس فأبى، وأخذ الدواة والقرطاس وكتب:

إذا لم تَنْهَ نفسَك عن هواها وتُحْسِن صونَها فإليكَ عنِّي
فإني قد شبِعْتُ من المعاصي ومن إدمانها وشبِعْنَ منّي
ومن أسوأ وأقبح من لبيبٍ يرى متطربا في مثلِ سنِّي

ومن شعر أبي نواس:

عفَّى المصلَّى وأقوتِ الكُثُبُ مِنّي فالمِرْبدانِ فالَّلهَبُ
منازلٌ قد عَمَرْتُها يَفَعًا حتى بدا في عُذارى الشُّهُبُ
في فتيةٍ كالسيوف هَزّهمُ شَرْخُ شبابٍ وزانَهم أدب
ثم أرابَ الزمانُ فانقسموا أيدي سَبَا في البلاد فانشعبُوا
لن يُخْلِفَ الدهْر مثلَهم أبدا على هيهاتَ شأنُهم عجبُ
لما تيقَّنْتُ أن رَوْحتَهم ليس لها ما حييتُ منقلَبُ
أَبْليتُ صبرا لم يُبْلِه أحد واقتسمتْني مآربٌ شُعَبُ
لذاك أنّي إذا رُزِئتُ أخًا فليس بيني وبينَه نَسَبُ
قُطْرَبّل مَرْبَعي ولي بُقرَى الـ ـكرخِ مَصيفٌ وأُمِّيَ العِنَبُ
تُرْضعُني دَرَّها وتُلْحِفُني بطَلِّها والهَجيرُ يلتهبُ
إذا ثَنَتْه الغُصُونُ جلَّلَني فَيْنانُ[٧١] ما في أَدِيمه جَرَبُ
تَبِيت في مَأْتم حَمَائمه كما تَرَاءَى الفَوَاقِدُ السُّلُبُ
يهُبُّ شَوْقي وشوقُهن معًا كأنما يَسْتخِفُّنا الطَّرَبُ
فقمتُ أحْبُو إلى الرَّضَاع كما تَحامَل الطفلُ مَسَّه السَّغَبُ
حتى تخيرتُ بنتَ دَسْكَرةٍ قد عجمتْها السِّنُون والحِقَبُ
هتكتُ عنها والليلُ معتكرٌ مهلهَلُ النَّسْجِ مالَه هُدُبُ
من نَسْج خَرْقاء لا تُشَدّ لها أَخِيّة في الثَّرَى ولا طُنُبُ
ثم توجَّأْتُ خَصْرَها بشَبَا الـ ـإ شْفَى فجاءتْ كأنّها لَهَبُ
فاستوْسَقَ الشَّربُ للنَّدَام وأجـ ـراها علينا اللُّجَيْنُ والغَرَبُ[٧٢]

أقول لما تحاكَيَا شبهًا ... أيُّهما للتشابُهِ الذهَبُ
هما سواءٌ وفَرْقُ بينهما ... أنهما جامدٌ ومنسكِبُ
مُلْسٌ وأَمْثَالُها محفَّرَةٌ ... صُوِّر فيها القُسُوس والصُّلُبُ
يَتْلُون إنجيلَهم وفَوْقَهُمُ ... سماءُ خمرٍ نجومُها حَبَبُ
كأنّها لؤلؤٌ تبدِّدُه ... أَيْدي عَذَارَى أَفْضى بها اللَّعِبُ

ومن جيد شعره قوله لما منعه الأمين من شرب الخمر، وذلك أن المأمون أمر الخطباء بخراسان أن يعيبوا الأمين بشعر أبي نواس ويقولوا هو جليسه ونديمه وينشدوا على المنابر شعره، فمنعه الأمين فقال:

غنِّنا بالطلولِ كيف بَلِينَا ... واسقِنا نُعْطِك الثناءَ الثمينَا
من سُلَافٍ كأنه كلُّ طِيبٍ ... يتمنَّى مخبرٌ أن يكونا
أكل الدهرُ ما تجسَّم منها ... وتبقَّى لُبَابَها المَكْنُونَا
ثم شُجَّت فاستضحَكتْ عن لآلٍ ... لو تجمّعْنَ في يدٍ لاقْتُنِينَا
وإذا ما لَمْستَها فَهَباءٌ ... تمنعَ الكفَّ ما تُبِيح العُيُونَا
في كؤوسٍ كأنهنّ نُجُومُ ... جارِياتٌ بُرُوجُها أيدينَا
طالعاتٌ من السُّقَاةِ علينا ... فإذا ما غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فينا
لو تَرَى الشَّرْبَ حولَهَا من بعيدٍ ... قلتَ قَوْمٌ من قِرَّةٍ يَصْطَلُونا
وغزالٍ يُدِيُرها بَبَنان ... ناعمَاتٍ يزيدُها العُسْرُ لِينَا
ذاكَ عيشٌ لو دام لي غيرَ أنّي ... عِفْتُه مكرهًا وخِفْتُ الأمينَا
أدِرِ الكأسَ حان أن تسْقِينا ... وانقُرِ العُودَ إنه يُلْهِينَا
ودَعِ الذكرَ للطُّلولِ إذا ما ... دارتِ الكأسُ يَسْرةً ويَمِينَا

ومن قول أبي نواس يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر:

غرَّد الديكُ الصَّدُوح ... فاسقِني طاب الصَّبُوحُ
اسقِني حتى تَرَاني ... حَسَنًا عندي القبيحُ
قهوةً تذكر نوحًا ... حين شاد الفلكَ نوحُ

نحن نُخْفيها ويأبَى طيبُ عَرْفٍ فَيفُوح
فكأن القومَ نُهْبَى بينهم مسكٌ ذَبِيحُ
أنا في دنيا من العبـ ـاس أَغْدو وأروحُ
هاشِميٌ عَبْد لي عنده يَغْلو المديحُ
علَم الجودِ كتابٌ بين عينيه يَلوحُ
كلّ جو يا أميري ما خلا جودكَ رِيحُ
إنما أنتَ عطايَا أبدا ما تستريحُ
بَحَّ صوتُ المالِ ممّا منك يَشْكُو ويَصيحُ
ما لهذا أحدٌ فو قَ يديه أو نَصيحُ
جُدْتَ بالأموالِ حتّى قيل ما هذا صحيحُ
فهو بالمال جوادٌ وهو بالعِرْضِ شحِيحُ
صُوِّرَ الجودُ مثالًا وله العباسُ رُوحُ

قال محمد بن عيينة: لقيت أبا نواس بعسكر مكرم فقلت له: أحب أن تنشدني من شعرك شيئًا تضن به على غيري، فأنشدني:

يَكْفي الكريمَ من الكلا م لمن يحادثه أَقَلُّه
والشيءُ شيءٌ لم يَزَلْ بأدقِّه يأتي أجَلُّه
إن لم يُصِبْكَ من الكري ـم الحُرِّ وابلُه فطَلُّهْ
يُبْدي مكارمَه كما يُبْدي فِرِنْدَ السيفِ سَلُّهْ
والنذلُ يُوقِع نفسَه متعمِّدًا فيما يُذِلُّهْ
والحرُّ يكرِم نفسَه بالصفح عمّن لا يُجِلُّهْ

وقال أبو نواس يمدح الأمين:

صببتُ على الأمين ثيابَ مدحي فكلُّ الناسِ حسَّن واستجادَا
ولولا فضلُه ما جاد شعري ولا أعطتْنيَ الفِطَنُ القِيَادَا
وقالوا قد أجدتَ فقلتُ إنّي وجدتُ القولَ يمكنُني فجادا

ومن خمرياته:

ذكر الصَّبُوحَ بُسحْرةٍ فارتاحا ... وأملَّه ديكُ الصباح صِيَاحَا
أَوْفَى على شَرَفِ الجدار بسُدْفَةٍ ... غَرِدًا يصفِّق بالجناحِ جَنَاحَا
فأدِرْ صباحَك بالصَّبُوحِ ولا تكن ... كَمُسَوِّفِين غَدَوْا عليك شِحَاحَا
إن الصَّبُوحَ جِلَاء كل مخمّر ... بدرتْ يَدَاه بكأسه الإصْبَاحَا
وخَدِينِ لَذَّاتٍ معلّل صاحبٍ ... تقتاتُ منه فكاهةً ومزاحَا
نبَّهتُه والليلُ ملتبسٌ به ... وأزحْتُ عنه نُعَاسَه فانزاحَا
قال ابْغِني المصباحَ، قلت له اتَّئِدْ ... حَسْبي وحَسْبُك ضوؤها مصباحَا
فسكبتُ منها في الزجاجة شَرْبةً ... كانت له حتى الصباحِ صَبَاحَا
مِن قهوةٍ جاءتْك قبل مِزَاجِها ... عُطُلًا فألبسها المزاج وِشَاحَا
شَكَّ البِزَالُ فؤادَها فكأنها ... أهدتْ إليك بريحها تُفَّاحَا
صفراء تفترسُ النفوسَ فلا ترى ... منها بهنّ سوى السُّبَاتِ جِرَاحَا

ومنها:

لا تَبْكِ لَيْلَى ولا تطربْ إلى هند ... واشربْ على الورد من حمراءَ كالوردِ
كأسًا إذا انحدرتْ في حلقِ شاربها ... أجدَتْه حمرتَها في العين والخدِّ
فالخمر ياقوتةٌ والكأس لؤلؤةٌ ... من كف لؤلؤة ممشوقة القدِّ
تسقيك من طَرْفِها خمرا ومن يدها ... خمرا فما لك من سكريْنِ من بُدِّ
لي نشوتانِ وللنَّدْمان واحدةٌ ... شيءٌ خُصِصْتُ به من دونهم وَحْدِي

كان الأصمعي يفضل أبا نواس على شعراء زمانه بهذه القصيدة:

أما ترى الشمسَ حَلَّتِ الحَمَلَا ... وطاب وقتُ الزمان واعتدلَا
وغَنَّتِ الطيرُ بعد عُجْمَتِها ... واستوفتِ الخمرُ حَوْلَها كَمَلَا
واكتستِ الأرضُ من زخارِفها ... وَشْيَ ثيابٍ تخالُه حُلَلَا
فاشربْ على جِدّة الزمان فقد ... أصبح وجهُ الزمان مقتبلا
من قهوةٍ تُذْهِب الهمومَ فلا ... أَرْهَبُ فيها الملامَ والعَذَلَا

كَرْخِيّةٍ تترك الطويلَ من العيـ ـش قصيرًا وتبسُط الأملا
تَلْمَعُ لمعَ السرابِ في قَدَح الـ ـقوم إذا ما حَبَابُها اتصلا
يقول صرِّف إذا مزجتُ له من لم يكن للكثير محتمِلا
فسَقِّ هذا بقدر طاقته واحملْ على ذا بقدر ما احتملا
عُجْنَا بشيئين من طبائعها حسن وطيبٍ ترى به المَثَلَا

كان أبو نواس لا يستنشد شيئًا من شعره إلا أنشد هذه القصيدة:

وخَيْمةِ نَاطُورٍ[٧٣] برأس مُنِيفةٍ تَهُمَّ يدَا مَنْ رامها بزَلِيلِ[٧٤]
إذا عارضتْها الشمسُ فَاءَ ظلالُها وإن واجهتْها آذنتْ بدُخُولِ
حَطَطْنا بها الأثقالَ فَلَّ[٧٥] هَجِيرةٍ عَبُورِيةٍ تُذْكَى بغير فَتِيلِ
تأنَّتْ[٧٦] قليلًا ثم فاءتْ بمَذْقَةٍ من الظلِّ في رَثِّ الأَبَاءِ ضَئيلِ
كأنّا لديْها بين عِطْفَيْ نعامةٍ جَفَا زورُها عن مَبْرَكٍ ومَقِيلِ
حلبتُ لأصحابي بها دِرَّةَ الصِّبَا بصَهْباءَ من ماء الكروم شَمُولِ
إذا ما أتتْ دون اللَّهاةِ من الفتى دعا همُّه من صدره برَحِيلِ
فلما توفَّى الشمسَ جِنْحٌ من الدُّجَى تصابيتُ واستجملتُ غيرَ جَميل
وعاطيتُ من أَهْوَى الحديثَ كما بدا وذللْتُ صعبًا كان غيرَ ذَلِيلِ
فغنَّى وقد وسَّدْتُ يُسْرايَ خدَّه ألا ربما طالبتُ غيرَ مُنِيلِ
وأنزلتُ حاجاتي بحَقْوَيْ مساعدٍ وإن كان أدنى صاحب وخليلِ
وأصبحتُ أَلْحَى السكَر والسكُر محسِنٌ ألا رُبَّ إحسانٍ عليكَ ثقيلِ
كفى حَزَنًا أن الجوادَ مقتَّرٌ عليه ولا معروفَ عند بَخِيلِ
سأَبْغي الغنى إما جليسَ خليفةٍ يقوم سواء أو مخيفَ سبيلِ
بكلّ فتًى لا يُسْتطارُ جَنَانُه إذا نوَّه الزَّحْفانِ باسم قَتِيلِ
لنَخْمسَ مالَ الله من كلّ فاجرٍ أخى بِطْنةٍ للطّيبات أَكُول
ألم تر أن المالَ عَوْنٌ على النَّدَى وليس جوادٌ مقترٌ كبخيلِ

فإن استزيد أنشد هذه القصيدة الأخرى:

كان الشبابُ مطيةَ الجهل ومحسِّن الضحكاتِ والهَزْلِ
كان الجمالَ إذا ارتديتُ به ومشيتُ أَخْطِر صَيِّتَ النعلِ
كان البليغَ إذا نطقتُ به وأصاخِت الآذانُ للمُمْلي
كان المشفَّع في مآربه عند الفتاةِ ومدرِك التَّبْلِ
والآمري حتى إذا عزمت نَفْسي أعان يديّ بالفِعْلِ
فالآن صرتُ إلى مقاربة وحططتُ عن ظهر الصِّبَا رَحْلي
والراح أَهْواها وإن رَزَأتْ بُلَغَ المعاشِ وقلَّلتْ فَضْلي
صفراء مجَّدها مَرَازِبُها جَلَّتْ عن النُّظَراءِ والمِثْلِ
ذُخرتْ لآدمَ قبل خِلْقتِه فتقدّمتْه بحُظوة القَبْلِ
فأتاك شيءٌ لا تلامسُه إلا بحسنِ غَريزة العقل
فَتُرود منها العينُ في بَشَرٍ حُرِّ الصَفيحة ناصِع سَهْلِ
فإذا علاها الماءُ ألبَسها حَبَبًا شبيهَ جَلا جل الحجلِ
حتى إذا سكنتْ جَوَامحُها خطَّت بمثل أكارع النَّمْلِ
خطَّيْن من شتَّى ومجتمع غُفْلٍ من الإعجام والشَّكْلِ
فاعذِر أخاك فإنه رجلٌ مَرَنتْ مسامعُه على العَذْلِ

ومن طيب شعره، والشطر الأول من القصيدة لفظ ابن الدمينة:

أعاذَل ما على وجهي قُتُومُ ولا عِرْضي لأولِ مَنْ يَسُومُ
يفضِّلني على الفتيان أَنّي أَبِيتُ فلا أُلَام ولا أَلُوم
أعاذل إن يكن بُرْدَايَ رَثًّا فلا يَعْدَمْك بينهما كريمُ
شُقِقْتُ من الصبا واشْتُقَّ منّي كما اشتَقَّتْ من الكَرم الكُرُومُ
فلست أَسُومُ للذات نفسي مياومةً كما دفع الغريمُ
ومتصلٍ بأسباب المعالي له في كل مكرُمةٍ قديمُ
رفعتُ له النداءَ بقُمْ فخُذْها وقد أخذتْ مطالَعها النجومُ
بتَفْديةٍ تزال النفسُ فيها وتُمْتهن الخؤولةُ والعمومُ

فقام وقمتُ من أخوينْ هاجا على طربٍ وليلُهما بَهِيمُ
أجرّ الزِّقَّ وهو يجرّ رجلا يجور به النعاسُ ويستقيمُ
سَلِ النَّدْمان ما أولْته منها وسَلْها ما احتوى منها الكريمُ
كلا الشخصيْن منتصِفٌ ولكن قضتْ وَطَرًا وذا منها سَقِيمُ

وقال:

إنِّي صرفتُ الهوى إلى قَمَرٍ لم تبتذله العيونُ بالنظرِ
إذا تأملَته تعاظمك الـ ـإقرارُ أنه من البَشَرِ

ومن قوله:

يا شقيقَ النفسِ من حَكَمٍ نمتَ عن ليلى ولم أَنَمِ
فاسْقِني البكَر التي اختمرت بخِمَار الشيبِ في الرَّحِم
ثُمَّتَ انصاتَ الشبابُ لها بعد ما جازتْ مَدَى الهَرَمِ
فهي لليوم التي بُزِلتْ وهي تِرْبُ الدهرِ في القِدَمِ
عَتُقتْ حتّى لو اتصلتْ بلسان ناطقٍ وفَمِ
لاحتبتْ في القوم ماثلةً ثم قصَّتْ قصّةً الأمم
فرعَتْها بالمزاج يَدٌ خُلِقَتْ للسيفِ والقلم
في نَدَامَى سادةٍ زُهُرٍ أخذوا اللذاتِ من أَمَم
فتمشّتْ في مفاصلهم كتمشِّي البُرْء في السَّقَم
فعلتْ في البيتِ إذ مُزِجَتْ مثلَ فعلِ الصبح في الظُّلَمِ
فاهتدى ساري الظلام بها كاهتداء السَّفْر بالعَلَمِ

ومن طرديات أبي نواس في صفة الكلب:

أنعتُ كلبًا أهلُه من كَدِّهْ قد سعِدتْ جُدودُهم بجَدِّهْ
فكلّ خيرٍ عندَهم من عِنْدِه وكل رِفْد نالهم من رِفْدِهْ
يظَلّ مولاه له كعبدهْ يبيتُ أَدنى صاحبٍ من مَهْدِهْ

وإن عرى جلَّله ببُرْدِهْ ذا غُرَّة محجَّلا بِزَنْدِهْ
تلَذُّ منه العينُ حسنَ قدَّه يا حُسْنَ شِدْقِيْه وطولَ قدِّه
تَلْقَى الظباءُ عنتًا من طَرْدِهْ يشربُ كأسًا شُدها من شَدِّهْ
يا لك من كلبٍ نسيج وَحْدِهْ

أبو نواس وجنان

قال أبو الفرج: كانت جنان هذه جارية آل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، وكانت حلوة جميلة المنظر أديبة، ويقال: إن أبا نواس لم يصدق في حب امرأة غيرها، وقيل له يوما إن جنان قد عزمت على الحج، فكان هذا سبب حجه وقال: أما والله لا يفوتني المسير معها والحج عامي هذا إن أقامت على عزيمتها، وقال وقد حج وعاد:

ألم تر أنني أفنيتُ عمري بمطلبها ومطلبُها عسيرُ
فلما لم أجدْ سببًا إليها يقرِّبني وأعيَتْني الأمورُ
حجَجْتُ وقلتُ قد حَجَّتْ جنانٌ فيجمَعُني وإياها المَسِيرُ

قال من شهده حين حج مع جنان وقد أحرم: لما جنه الليل جعل يلبي بشعر ويحدو به ويطرب، فغنى به كل من سمعه وهو قوله:

اِلهنا ما أعدَلَكْ مَلِيكَ كلٍّ من مَلَكْ
لبَّيْكَ قد لبَّيْتُ لكْ لبيكَ إن الحمدَ لكْ
والملكَ لا شريكَ لكْ والليلَ لما أن حَلَكْ
والسابحات في الفَلَكْ على مَجَاري المُنْسلَكْ
ما خاب عبدٌ أمَّلَكْ أنت له حيثُ سَلَكْ
لولاك يا ربِّ هلَكْ كلُّ نبيٍّ ومَلَكْ
وكل مَنْ أهلَّ لكْ سبَّح أو لبَّى فلَكْ
يا مخطئا ما أغفلك عجِّل وبادرْ أجَلكْ
واختمْ بخيرٍ عملَكْ لبَّيك إن الملكَ لَكْ

والحمدُ والنعمةُ لكْ والعزُّ لا شريكَ لكْ

وفيها يقول:

جَفْنُ عينِي قد كان يسـ ـقطُ من طولِ ما اختلجْ
وفؤادي من حرّ حبـ ـك والهجرِ قد نَضَجْ
خبِّريني فدتكِ نفـ ـسي وأهلي متى الفرجْ
كان ميعادُنا خرو جَ زيادٍ فقد خرجْ
أنت من قتلِ عائذٍ بِك في أضيقِ الحَرَجْ

قال الأصفهاني: قال محمد بن إبراهيم بن كثير الصوفي: دخلنا على أبي نواس نعوده في علته التي مات فيها، فقال له علي بن صالح الهاشمي: يا أبا علي، أنت في أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا، وبينك وبين الله عز وجل هنات، فتب إلى الله عز وجل، فبكى ساعة ثم قال: ساندوني ساندوني، ثم قال: أأخوف بالله عز وجل وقد حدثني حماد ابن مسلم عن زيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي شفاعة وإني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة» أفتراني لا أكون منهم؟

ومن قوله في مرض موته:

دبَّ فيَّ السقامُ عُلْوًا وسُفْلًا وأراني أموتُ عُضْوا فعُضْوا
ليس تمضي من لحظةٍ بيَ إلّا نقصتني بمَرِّها في جُزْوَا
ذهبتْ جِدّتي بحاجة نفسي وتطلبتُ طاعةَ الله نِضْوا
لهفَ نفسي على ليلٍ وأيا م تجاوزتُهن لِعْبًا ولَهْوًا
قد أسأنا كلَّ الإساءة فاللـ ـهمّ صفحًا عنا وغَفْرا وعَفْوَا

ثم قال:

شِعْر حيّ أتاكَ من لفظ مَيْتٍ صار بين الحياة والموت وَقْفَا
قد برتْ جسمَه الحوادثُ حتى كاد عن عين الخلائق يَخْفَى

لو تأملتَني لتُبْصِرَ وجهي لم تبن من كتاب وجهيَ حَرْفَا
ولكرَّرْتَ طَرْفَ عينيكَ فيمن قد براه السقام حتى تعَفَّى

وكان عمر أبي نواس تسعًا وخمسين سنة، وكانت وفاته قبل دخول المأمون مدينة السلام بست سنين (سنة ١٩٨).

(٢) العتابي[٧٧]

قال أحمد بن سهل: تذاكرنا شعر العتابى فقال بعضنا: فيه تكلف، ونصره بعضنا، فقال: شيخ حاضر، ويحكم! أيقال إن في شعره تكلفا وهو القائل:

رُسُلُ الضّمير إليك تَتْرَى بالشوق ظالِعةً وحَسْرَى
متزجِّيَات[٧٨] ما يَنِيـ ـنَ على الوَجَا من بعد مَسْرَى
ما جَفَّ للعينين بعـ ـدك يا قَرِيرَ العينِ مَجْرَى
فاسْلَمْ سلِمتَ مُبَرّأً من صَبْوتي أبدا مُعَرًّى
إن الصبابةَ لم تَدَعْ منِّي سوى عَظْمٍ مُبَرًّى
ومدامعٍ عَبْرَى على كبدٍ عليك الدهرَ حَرَّى

أو يقال إنه متكلف وهو الذي يقول:

فلو كان للشكر شخصٌ يَبين إذا ما تأمّله الناظرُ
لمثّلتُه لك حتى تراه لتعلم أنّي امرؤ شاكر

وجد الرشيد على العتابي فدخل سرًا مع المتظلمين بغير إذن، فمثل بين يدى الرشيد وقال له: يا أمير المؤمنين، قد آذنتني الناس لك ولنفسي فيك، وردني ابتلاؤهم إلى شكرك، وما مع تذكرك قناعة بغيرك، ولنعم الصائن لنفسي كنت لو أعانني عليك الصبر، وفي ذلك أقول:

أَخِضْني المقامَ الغَمْر إن كان غَرّني سَنَا خُلّبٍ أو زَلّت القَدَمانِ

أتتركني جَدْبَ المعيشة مُقْترًا وكفّاك من ماء الندى تَكِفَانِ
وتجعلني سهم المطامع بعد ما بَلَلْتَ يميني بالندى ولساني

فأعجب الرشيد قوله، وخرج وعليه الخلع، وقد أمر له بجائزة.

كلم العتابي يحيى بن خالد في حاجة بكلمات قليلة، فقال له يحيى: لقد نزر كلامك اليوم وقل، فقال له: وكيف لا يقل وقد تكنفني ذل المسألة وحيرة الطلب وخوف الرد؟ فقالك والله لئن قل كلامك لقد كثرت فوائده، وقضى حاجته.

قال يحيى بن خالد البرمكي لولده: إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابي فضلا عن رسائله وشعره، فلن تروا أبدا مثله.

وقف العتابي بباب المأمون يلتمس الوصول إليه، فصادف يحيى بن أكثم جالسا ينتظر الإذن، فقال له: إن رأيت أعزك الله أن تذكر أمري لأمير المؤمنين إذا دخلت فافعل، قال له: لست أعزك الله بحاجبه، قال: فإن لم تكن حاجبًا فقد يفعل مثلك ما سألت، واعلم أن الله عز وجل جعل في كل شيء زكاة، وجعل زكاة المال رفد المستعين، وزكاة الجاه إغاثة المهلوف؛ واعلم أن الله عز وجل مقبل عليك بالزيادة إن شكرت، أو التغيير إن كفرت. وإني لك اليوم أصلح منك لنفسك، لأني أدعوك إلى ازدياد نعمتك وأنت تأبى، فقال له يحيى: أفعل وكرامة، وخرج الإذن ليحيى، فلما دخل لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن استأذن المأمون للعتابي، فأذن له.

وقيل له: لو تزوجت، فقال: إني وجدت مكابدة العفة أيسر عليّ من الاحتيال لمصلحة العيال.

قال دعبل: ما حسدت أحدا قط على شعر كما حسدت العتابي على قوله:

هَيْبَةُ الإخوانِ قاطعةٌ لأخى الحاجات عن طَلَبه
فإذا ما هِبتَ ذا أمل مات ما أمّلتَ من سببهْ

كان العتابي جالسًا ذات يوم ينظر في كتاب، فمر به بعض جيرانه، فقال: أيش ينفع العلم والأدب من لا مال له؟ فأنشد العتابي قوله:

يا قَاتَل اللهُ أقوامًا إذا ثَقِفُوا ذا اللّب ينظر في الآداب والحِكَم

قالوا: وليس بهم إلا نَفَاسَتُه[٧٩] أنافعٌ ذا من الإقتار والعُدُم
وليس يدرون ما الحظّ الذي حُرُموا — لحاهم الله — من عِلْم ومن فَهَم

ومن قوله أيضًا:

لئن كانت الدنيا أنالتْك ثروةً فأصبحتَ ذا يُسر وقد كنت ذا عُسْرِ
لقد كشّف الإثراءُ منك مَخازِيًا من اللؤم كانت تحت سِتْر من الفقر

وقال أيضًا:

رحَل الرجاءُ إليك مغترِبا حُشِدَتْ عليه نوائبُ الدهر
ردّتْ إليك نَدامتي أملي وثنا إليك عِنانه شكري
وجعلتُ عَتْبَك عَتْبَ موعظة ورجاءَ عفوك منتهى أملي

لما سعى منصور النمري بالعتابي إلى الرشيد اغتاظ عليه فطلبه، فستره جعفر بن يحيى عنه مدة وجعل يستعطفه عليه حتى استل ما في نفسه وأمنه، فقال يمدح جعفر بن يحيى:

ما زلتُ في غَمَرات الموت مُطَرَّحًا قد ضاق عني فسيحُ الأرض من حِيلي
ولم تَزَل دائبًا تسعى بلطفك لي حتى اختلستَ حياتي من يَدَيْ أَجَلي

عاد عبد الله بن طاهر وإسحاق بن إبراهيم بن مصعب كلثوم بن عمرو العتابي في علة اعتلها، فقال الناس: هذه خطرة خطرت، فبلغ ذلك العتابي، فكتب إلى عبد الله بن طاهر:

قالوا الزيارةُ خَطْرَةٌ خَطَرتْ وبِحارُ بِرّك ليس بالخَطْر
أَبْطِلْ مقالتهم بثانية تستنفِد المعروفَ مِنْ شكري

فلما بلغت أبياته عبد الله بن طاهر ضحك من قوله وركب هو وإسحاق فعاداه مرة ثانية.

كانت له امرأة من باهلة، فلما مضى إلى رأس عين قالت له: هذا منصور النمري: قد أخذ الأموال فحلى نساءه وبنى داره واشترى ضياعا وأنت ههنا كما ترى، فأنشأ يقول:

تلوم على تَرْك الغِنى باهلِيّةٌ ... ذوى الفقر عنها كلَّ طِرْف وتالد
رأت حولها النّسوان يرفُلن في الثرى ... مقلَّدة أعناقُها بالقلائد
أسّرِك أني نلتُ ما نال جعفر ... من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأنَ أميرَ المؤمنين أغصّني ... مغصهما بالمُرْهَفات البَوارد
رأيتُ رفيعات الأمور مَشُوبةً ... بمستودَعات في بطون الأساود
دعيني تَجِئْني ميتتي مطمئنةً ... ولم اتجشّم هولَ تلك الموارد

لما قدم العتابي مدينة السلام على المأمون أذن له، فدخل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وكان العتابي شيخًا جليلًا نبيلا، فسلم فرد عليه وأدناه وقربه حتى قرب منه، فقبل يده، ثم أمره بالجلوس فجلس، وأقبل عليه يسائله عن حاله وهو يجيبه بلسان ذلق طلق، فاستظرف المأمون ذلك وأقبل عليه بالمداعبة والمزاح، فظن الشيخ أنه استخف به، فقال: يا أمير المؤمنين، الإيناس قبل الإبساس،[٨٠] فاشتبه على المأمون قوله، فنظر إلى إسحاق مستفهما، فأومأ إليه وغمزه على معناه حتى فهم، فقال: يا غلام، ألف دينار، فأتى بذلك، فوضع بين يدى العتابي وأخذوا في الحديث، وغمز المأمون إسحاق بن إبراهيم عليه، فجعل العتابي لا يأخذ في شيء إلا عارضه إسحاق، فبقى العتابي متعجبًا، ثم قال: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في سؤال هذا الشيخ عن اسمه؟ قال: نعم سل، فقال لإسحاق يا شيخ، من أنت وما اسمك؟ قال: أنا من الناس واسمي كل بصل، فتبسم العتابي وقال: أما أنت فمعروف وأما الاسم فمنكر، فقال إسحاق: ما أقل إنصافك! أتنكر أن يكون اسمي كل بصل، واسمك كلثوم، وكلثوم من الأسماء، أو ليس البصل أطيب من الثوم؟ فقال له العتابي: لله درك! فما أحجك، أتأذن لي يا أمير المؤمنين في أن أصله بما وصلتني به؟ فقال المأمون: بل ذلك موفر عليك ونأمر له بمثله: فقال له إسحاق: أما إذ أقررت بهذه فتوهمني تجدني، فقال: ما أظنك إلا إسحاق الموصلي الذي يتناهى إلينا خبره، قال: أنا حيث ظننت، وأقبل عليه بالتحية والسلام، فقال المأمون — وقد طال الحديث بينهما —: أما إذ قد اتفقتما على المودة فانصرفا متنادمين، فانصرف العتابي إلى منزل إسحاق فأقام عنده.

قال عثمان الوراق: رأيت العتابي يأكل خبزًا على الطريق بباب الشام، فقلت له: ويحك! أما تستحي؟ فقال لي: أرأيت لو كنا في دار بها بقر كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا، قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر، فقام فوعظ وقص ودعا حتى كثر الزحام عليه ثم قال لهم: روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار، فما بقي أحد إلا أخرج لسانه يومىء به نحو أرنبة أنفه ويقدره حتى يبلغها أم لا، فلما تفرقوا قال لي العتابي: ألم أخبرك أنهم بقر؟

قال الفضل: رأيت العتابي بين يدى المأمون وقد أسن، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون، فما زال المأمون ينهضه رويدا رويدا حتى أقله فنهض.

وكتب كلثوم بن عمرو العتابي إلى صديق له يستجديه:

> أما بعد — أطال الله بقاءك وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجنة — فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم، تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها؛ وكنا نعفيها من النجعة[٨١] استتماما لزهرتها، وشفقة على خضرتها، وادخارًا لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من سني يوسف اشتد علينا كلبها،[٨٢] وغابت قطتها، وكذبتنا غيومها، وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانتجعتك. وأنا بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد،[٨٣] وأنك تغطي عين الحاسد. والله يعلم أني ما أعدك إلا في حومة[٨٤] الأهل. واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير، لم يعرف جوده ولم تظهر همته. وأنا أقول في ذلك:
>
> إذا تكرمت عن بذل القليل ولم تقدِر على سَعَة لم يظهر الجُود
> بث النوالَ ولا تمنعك قِلّته فكل ما سَدّ فقرا فهو محمود

قيل فشاطره جميع ماله.

(٣) دِعبِل[٨٥]

شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أم لم يحسن، ولا أفلت منه كبير أو صغير.

وكان دعبل من الشيعة المشهورين بالميل إلى عليّ صلوات الله عليه. وقصيدته: «مدارس آيات خلت من تلاوة» من أحسن الشعر وفاخر المدائح المقولة في أهل البيت عليهم السلام، وقصد بها أبا علي بن موسى الرضا بخراسان، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه وخلع عليه خلعة من ثيابه، فأعطاه بها أهل قم ثلاثين ألف درهم، فلم يبعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها؛ فقال لهم: إنها إنما تراد لله عز وجل وهي محرمة عليكم، فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم، فحلف ألا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون في كفنه، فأعطوه فردكم، فكان من أكفانه.

قال إبراهيم بن المهدي للمأمون قولا في دعبل يحرضه عليه؛ فضحك المأمون وقال: إنما تحرضني عليه لقوله فيك:

يا معشرَ الأجناد لا تَقْنَطوا	وارضَوْا بما كان ولا تَسخَطوا
فسوف تُعْطَوْن حُنَّيْنِيَّةً[٨٦]	يَلْتَذّها الأَمْردُ والأشْمَط
والمَعْبَدِيّات[٨٧] لقُوادكم	لا تدخل الكيسَ ولا تُرْبَط
وهكذا يرزق قوَّادَه	خليفةٌ مُصْحفه البَرْبَط
قد ختَم الصَّكَّ بأرزاقكم	وصحّح العزمَ فلا تسخَطوا
بَيْعَةُ إبراهيم مشئومةٌ	يُقْتَل فيها الخَلق أو يَقْحَطوا

فقال له إبراهيم: فقد والله هجاك أنت يا أمير المؤمنين؛ فقال: دع هذا عنك فقد عفوت عنه في هجائه إياي لقوله هذا، وضحك. ثم دخل أبو عباد، فلما رآه المأمون من بعد قال لإبراهيم: دعبل يجسر على أبي عباد في الهجاء ويحجم عن أحد! فقال له: وكأن أبا عباد أبسط يدا منك يا أمير المؤمنين؛ قال: لا! ولكنه حديد جاهل لا يؤمن، وأنا أحلم وأصفح، والله ما رأيت أبا عباد مقبلا إلا أضحكني قول دعبل فيه:

أولى الأمورِ بضَيْعةٍ وفساد	أمرٌ يدبِّره أبو عَبّاد
خَرِقٌ على جلسائه فكأنهم	حضَروا لِمَلْحَمة ويومِ جِلاد

يَسطو على كتَّابه بِدَواته فَمُضَمّخ بدم وَنضْح مِداد
وكأنه من دَيْرِ هِرْقِل مُفْلتٌ حَرِد يجرّ سلاسل الأقياد
فاشدُدْ أميرَ المؤمنين وَثاقه فأَصَحُّ منه بقيّة الحَدّاد

وكان «بقيّة» هذا مجنونا في البيمارستان.

قال أبو خالد الخزاعي لدعبل: ويحك! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعًا، فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف، فلو كففت عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك! فقال: ويحك! إني تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة، ولا يبالي الشاعر وإن كان مجيدًا إذا لم يخف شره، ولمن يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك في تشريفه، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم، وليس كل من شرفته شرف، ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك، فإذا رآك أوجعت عرض غيره وفضحته اتقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر، ويحك يا أبا خالد! إن الهجاء المقذع آخذ بضبع الشاعر من المديح المضرع؛ فضحك أبو خالد وقال: هذا والله مقال من لا يموت حتف أنفه.

كان سبب خروج دعبل من الكوفة أنه كان يتشطر ويصحب الشطار، فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعتمة، فجلسا على طريق رجل من الصيارفة، وكان يروح كل ليلة بكيسه إلى منزله، فلما طلع مقبلا إليهما وثبا إليه فجرحاه وأخذا ما في كمه، فإذا هي ثلاث رمانات في خرقة، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه، ومات الرجل مكانه، واستتر دعبل وصاحبه وجد أولياء الرجل في طلبهما وجد السلطان في ذلك، فطال على دعبل الاستتار فاضطر إلى أن هرب من الكوفة، فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد.

قال أحمد بن خالد: كنا يومًا بدار صالح بن علي من عبد القيس ببغداد ومعنا جماعة من أصحابنا، فسقط على سطح البيت ديك طار من دار دعبل، فلما رأيناه قلنا: هذا صيدنا، فأخذناه، فقال صالح: ما نصنع به؟ قلنا: نذبحه، فذبحناه وشويناه. وخرج دعبل فسأل عن الديك فعرف أنه سقط في دار صالح، فطلبه منا فجحدناه وشربنا يومنا، فلما كان من الغد خرج دعبل فصلى الغداة ثم جلس على باب المسجد — وكان ذلك المسجد مجمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء وينتابهم الناس — فجلس دعبل على باب المسجد وقال:

أَسَرَ المؤذِّنَ صالحٌ وضيوفُه أسْرَ الكَمِيّ هَفَا خِلال المأقِط
بَعثوا عليه بَنِيهمُ وبَناتهم من بين ناتِفةٍ وآخَر سامِط
يتنازعون كأنهم قد أوثَقوا خَاقان أو هَزموا قبائلَ ناعط[٨٨]
نَهَشوه فانتُزعت له أسنانُهم وتهشّمت أقفاؤُهم بالحائط

فكتبها الناس عنه ومضوا؛ فقال لي أبي، وقد رجع إلى البيت: ويحكم! ضاقت عليكم المآكل فلم تجدوا شيئًا تأكلونه سوى ديك دعبل! ثم أنشدنا الشعر، وقال: لا تدع ديكا ولا دجاجة تقدر عليه إلا اشتريته وبعثت به إلى دعبل وإلا وقعنا في لسانه؛ ففعلت ذلك.

قال أحمد بن أبي كامل: كان دعبل ينشدني كثيرًا هجاء له، فأقول له فيمن هذا؟ فيقول ما استحقه أحد بعينه بعد، وليس له صاحب، فإذا وجد على رجل جعل ذلك الشعر فيه وذكر اسمه في الشعر.

كان دعبل يختلف إلى الفضل بن العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، وهو خرجه وفهمه وأدبه، فظهر له منه جفاء وبلغه أنه يعيبه ويذكره وينال منه، فقال يهجوه:

يا بُؤْس للفضل لو لم يأت ما عَابَهْ يستفرغ السّمَّ من صَماء قِرضَابَهْ
ما إن يزال وفيه العيبُ يجمعه جهلا لأعراض أهلِ المجد عيّابهْ
إن عابني لم يَعِبْ إلا مؤدِّبه ونفسَه عاب لما عاب أدّابهْ
فكان كالكلب ضَرّاه مكلِّبه لغيره فعدا فاصطاد كلّابهْ

كان دعبل يقول: ما كانت لأحد قط عندي منة إلا تمنيت موته.

كتب دعبل إلى أبي نهشل بن حميد الطوسي قوله:

إنما العيشُ في مُنادمة الإخوا ن لا في الجلوس عند الكَعاب
وبصِرفٍ كأنها ألْسُن البر قِ إذا استعرضَتْ رقيقَ السّحاب
إن تكونوا تركتُمُ لذّةَ العيـ ـش حِذارَ العِقاب يومَ العقاب

فـدعـونـي ومـا ألـذّ وأهـوى وادفعوا بي في صدر يوم الحساب

قال محمد بن زكريا الفرغاني: سمعت دعبلا يقول في كلام جرى «لَيْسَك» فأنكرته عليه؛ فقال: دخل زيد الخيل على النبي ﷺ فقال له: «يا زيد ما وصف لي رجل إلا رأيته دون وصفه لَيْسَك» يريد غيرك.

قال عمرو بن مسعدة: حضرت أبا دلف عند المأمون وقد قال له المأمون: أي شيء تروي لأخي خزاعة يا قاسم؟ فقال: وأي أخي خزاعة يا أمير المؤمنين؟ قال: ومن تعرف فيهم شاعرا؟ فقال: أما من أنفسهم فأبو الشيص ودعبل وابن أبي الشيص وداود بن أبي رزين، وأما من مواليهم فطاهر وابنه عبد الله، فقال: ومن عسى من هؤلاء أن يسأل عن شعره سوى دعبل! هات أي شيء عندك فيه؛ فقال: وأي شيء أقول في رجل لم يسلم عليه أهل بيته حتى هجاهم، فقرن إحسانهم بالإساءة وبذلهم بالمنع وجودهم بالبخل، حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة منه؛ قال: حين يقول ماذا؟ قال: حين يقول في المطلب بن عبد الله ابن مالك، وهو أصدق الناس له وأقربهم منه، وقد وفد إليه إلى مصر فأعطاه الجزيل وولاه، ولم يمنعه ذلك أن قال فيه:

اِضرِبْ نَدَى طَلْحَةِ الطَّلْحات متئِدا بلـؤم مطَّلِبٍ فينا وكن حَكَما
تُخْرِج خُزَاعةَ من لؤم ومن كَرَم فلا تحِسّ لها لؤما ولا كرما

فقال المأمون: قاتله الله! ما أغوصه وألطفه وأدهاه، وجعل يضحك. ثم دخل عبد الله ابن طاهر فقال: أي شيء تحفظ يا عبد الله لدعبل؟ فقال: أحفظ أبياتا له في أهل بيت أمير المؤمنين؛ قال: هاتها ويحك! فأنشده:

سَقْيًا ورَعيًا لأيام الصَّبَابات أيام أرفُل في أثواب لذّاتي
أيام غصني رطيبٌ من ليَانته أصبو إلى غير جاراتٍ وكُنّات
دع عنك ذكر زمان فات مَطلبُه واقذِف برحلك عن مَتْن الجَهَالات
واقصِد بكل مديح أنت قائلُه نحو الهُداة بَنى بيت الكَرَامات

فقال المأمون: إنه قد وجد والله مقالا فقال، ونال ببعيد ذكرهم ما لا يناله في وصف غيرهم.

ومن قول دعبل وفيه غناء:

أيْنَ الشباب وأَيّةً سلَكا ... لا أين يُطلب ضَلّ من هَلَكا
لا تعجبي يا سَلْمَ من رجل ... ضحِك المشيبُ برأسه فَبَكى
يا ليت شعري كيف يومُكما ... يا صاحبيّ إذا دَمي سُفِكا
لا تأخذوا بظُلامتي أحدًا ... قلبي وطَرْفي في دمي اشتركا

قال إبراهيم بن المدبر: لقيت دعبل بن علي فقلت له: أنت أجسر الناس عندي وأقدمهم حيث تقول:

إني من القوم الذين سيوفُهم ... قتلَتْ أخاك وشرّفتك بمَقْعَد
رفعوا محلِّك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوْهَد

وأولها:

أخذ المشيبُ من الشباب الأغيدِ ... والنائباتُ من الأنام بمَرْصد

فقال: يا أبا اسحاق، أنا أحمل خشبتي منذ أربعين سنة، فلا أجد من يصلبني عليها.

كان دعبل يخرج فيغيب سنين يدور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى، وكانت الشراة والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرون به، وكان إذا لقيهم وضع طعامه وشرابه ودعاهم إليه ودعا بغلاميه: نفنف وشعف، وكانا مغنيين، فأقعدهما يغنيان وسقاهم وشرب معهم وأنشدهم، فكانوا قد عرفوه وألفوه لكثرة أسفاره، وكانوا يواصلونه ويصلونه. وأنشد دعبل لنفسه في بعد أسفاره:

حلّلتُ مَحَلّا يقصرُ البرقُ دونه ... ويعجز عنه الطيفُ أن يَتجشَّما

قال البحتري: دعبل بن علي أشعر عندي من مسلم بن الوليد، لأن كلام دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم، ومذهبه أشبه بمذاهبهم؛ وكان يتعصب له.

كان المعتصم يبغض دعبلا لطول لسانه. وبلغ دعبلا أنه يريد اغتياله وقتله، فهرب إلى الجبل؛ وقال يهجوه:

بَكى لِشَتات الدين مكتئِبٌ صبُّ ... وفاض بفَرْط الدمع من عينه غَرْبُ
وقام إمام لم يكن ذا هِدَاية ... فليس له دين وليس له لُب
وما كانت الأنباءُ تأتي بمثله ... يُمَلَّك يومًا أو تدين له العُرْب
ولكن كما قال الذين تتابعوا ... من السّلَف الماضِين إذ عظَم الخطب
ملوك بني العباس في الكُتْبِ سبعةٌ ... ولم تأتنا عن ثامن لهمُ كُتْب
كذلك أهلُ الكهف في الكهف سبعةٌ ... خِيارٌ إذا عُدّوا وثامِنهم كَلْب
وإني لأُعلي كلبَهم عنك رفعةً ... لأنك ذو ذَنْب وليس له ذنب
لقد ضاع مُلك الناس إذ ساس مُلكَهم ... وَصِيفٌ وأَشنَاس وقد عَظُم الكرب
وفَضْل بن مروان يُثَلّم ثُلمةً ... يظل لها الإسلام ليس له شَعْب

لما مات المعتصم قال محمد بن عبد الملك الزيات يرثيه:

قد قلتُ إذ غَيّبوه وانصرفوا ... في خير قبر لخيرِ مدفون
لن يجبر اللهُ أمّةً فقدتْ ... مثلَك إلا بمثل هارون

فقال دعبل يعارضه:

قد قلتُ إذ غيبوه وانصرفوا ... في شرّ قبر لشر مدفون
اِذهب إلى النار والعذاب فما ... خَلْقُك إلا من الشياطين
ما زلت حتى عقدتَ بَيْعةَ مَنْ ... أضرّ بالمسلمين والدين

وقال في ذلك وفي قيام الواثق:

الحمدُ لله لا صَبْرٌ ولا جَلَدُ ... ولا عزاءٌ إذا أهلُ البَلَا رقدوا
خليفةٌ مات لم يحزَن له أحد ... وآخرٌ قام لم يفرح به أحد

ولقد أحسن في وصف سفر سافره، فطال ذلك السفر عليه، فقال فيه:

ألم يَأنِ للسَّفْر الذين تحمّلوا إلى وطنٍ قبل الممات رجوع
فقلت ولم أملِك سوابِقَ عَبْرة نَطَقْن بما ضُمّت عليه ضلوع
تبيّنْ فكم دارٍ تفرّق شملُها وشَمْلٍ شتِيتٍ عاد وهو جَميع
كذاك الليالي صَرْفُهنّ كما ترى لـكـل أنـاس جَـدْبـةٌ ورَبـيـع

ثم قال: ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفري وهجيراي ومسليتي حتى أعود.

ومن قول دعبل وفيه غناء:

سَرَى طيفُ ليلى حين آن هُبُوبُ وقضّيت شوقا حين كاد يذوب
فلم أرَ مطروقًا يحلّ برِحلة ولا طارقًا يَقرِى المُنى ويُثيب

ومن قوله:

لقد عجبتْ سَلْمى وذاك عجيبُ رأت بي شيبا عجّلته خُطوبُ
وما شيّبتني كَبْرةٌ غير أنني بدهرٍ به رأسُ الفطيم يَشيب

وقال في صالح بن عطية الأضجم وكان من أقبح الناس وجها، وخاطب فيها المعتصم:

قل للإمام إمامِ آل محمد قول امرئ حدِبٍ عليك مُحَام
أنكرت أن تفترَّ عنك صنيعةٌ في صالح بن عَطيّة الحَجّام
ليس الصنائع عنده بصنائع لـكـنـهـن طَـوائـلُ الإسـلام
اِضربْ به جيشَ العدوّ فإنه جيشٌ من الطاعون والبِرْسام

قال أبو تمام: ما زال دعبل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقرا بأستاذيته، حتى ورد عليه بجرجان فجفاه مسلم، وكان فيه بخل، فهجره دعبل وكتب إليه:

أبا مَخْلَدٍ كنا عَقِيدَى مودّة ... هوَانا وقَلْبانا جميعا مَعًا معا
أحوطك بالغيب الذي أنتَ حائطي ... وأجزع إشفاقا مِن أنْ تتوجّعا
فصيّرتني بعد انتكاثك مُتْهِما ... لنفسي عليها أرْهَبُ الخلق أجمعا
غششتَ الهوى حتى تداعت أصولُه ... بنا وابتذلتَ الوصلَ حتى تقطّعا
وأنزلتَ من بين الجوانح والحَشى ... ذخيرةَ وُدٍّ طالما قد تمنّعا
فلا تَلْحَيَنيِّ ليس لي فيك مطَمعٌ ... تخرّقتَ حتى لم أجد لك مرقعا
فَهَبْك يميني استأكلتْ فقطعتُها ... وجشَمتُ قلبي صبرَه فتشجّعا

ثم تهاجرا فما التقيا بعد ذلك.

أجرى الرشيد على دعبل رزقًا سنيًا، فكان أول من حرضه على قول الشعر. فوالله ما بلغه أن الرشيد مات حتى كافأه على فعله من العطاء السني والغنى بعد الفقر والرفعة بعد الخمول بأقبح مكافأة، وقال فيه يهجوه من قصيدة مدح بها أهل البيت عليهم السلام:

وليس حَيٌّ من الأحياء نعلمه ... من ذي يَمانٍ ومن بَكْر ومن مُضَرِ
إلا وهم شركاءٌ في دمائهمُ ... كما تَشَارك أيْسَارٌ على جُزُر
قتلٌ وأسْرٌ وتحريقٌ ومَنْهَبةٌ ... فِعلَ الغُزاةِ بأرض الروم والخزَر
أرى أميَّة معذورين إن قتلوا ... ولا أرى لبني العباس من عُذُر
اِرْبَعْ بِطُوس على القبر الزكيّ إذا ... ما كنت تَرْبَع من دِين على وطر
قَبْران في طوسَ خيرُ الناس كلهم ... وقبرُ شرّهمُ هذا من العِبرَ
ما ينفع الرّجسَ من قرب الزكيّ ولا ... على الزكيّ بقرب الرّجس من ضرر
هيهات، كلّ امرئ رَهْنٌ بما كسبتْ ... له يداه فخُذ ما شئتَ أو فَذَر

استدعى بعض بني هاشم دعبلا وهو يتولى للمعتصم ناحية من نواحي الشام، فقصده إليها فلم يقع منه بحسن ظن وجفاه، فكتب إليه دعبل:

دَلّيتني بغرورِ وعدك في ... مُتَلاطم من حَوْمة الغَرَق
حتى إذا شمت العدوّ وقد ... شُهِرَ انتقاصك شُهْرة البَلَق
أنشأت تحلف أن ودّك لي ... صافٍ وحبلك غير منحذِق
وحسبتني فَقْعًا بقَرْقَرة ... فوطِئتَني وَطْئًا على حَنَق
ونصبتَني عَلَما على غَرَض ... ترمِيننني الأعداءُ بالحَدَق
وظننتَ أرضَ الله ضَيّقةً ... عنّي وأرضُ الله لم تَضِق
من غير ما جُرمٍ سوى ثِقةٍ ... منّي بوعدك حين قلتَ ثِق
ومودّةٍ تحنو عليك بها ... نفسي بلا مَنٍّ ولا مَلَق
فمتى سألتُك حاجةً أبدًا ... فاشددْ بها قُفْلا على غَلَق
وقَفَ الإخاءُ على شَفَا جُرُف ... هارٍ فبِعْه بَيْعة الخَلَق
وأعِدّ لي قُفْلا وجَامعةً ... فاشدد يديّ بها إلى عنقي
أعفيك مما لا تحبّ بها ... واسدُدْ على مذاهب الأُفُق
ما أطولَ الدنيا وأعرضَها ... وأَدَلّني بمسالك الطُرُق

دخل دعبل على عبد الله بن طاهر فأنشده وهو ببغداد:

جئتُ بلا حُرْمة ولا سببِ ... إليك إلَّا بحرمة الأَدَبِ
فاقضِ ذِمامي فإنني رجلٌ ... غير مُلحٍّ عليك في الطَّلب

فانتقل عبد الله ودخل الحرم ووجه إليه بصرة فيها ألف درهم، وكتب إليه:

أعجلتنا فأتاك عاجلُ بِرِّنا ... ولو انتظرت كثيرَه لم يقلل
فخذ القليلَ وكن كأنك لم تَقُل ... ونكون نحن كأننا لم نفعل

مات دعبل بقرية من قرى السوس، بعث إليه مالك بن طوق من ضرب ظهره بعكاز لها زج مسموم فمات من غد.

(٤) حسين بن الضحاك[٨٩]

شاعر[٩٠] ظريف شديد الظرف، ربما انقطع نظيره في شعراء العصر العباسي كله، وهو مع ظرفه وإسرافه في المجون، قليل الفحش في اللفظ. غير متهالك على القول الآثم والألفاظ المنكرة، لا يتخيرها ولا يقصد إليها، وإنما يعرض لها إذا اضطر إليها اضطرارا وهو على ظرفه ورقة حاشيته وحرصه على نقاء اللفظ وطهره شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، مجود إذا فكر، مظفر إذا بحث، موفق إلى اللفظ المتين، والأسلوب الرصين في غير جفوة ولا غلظة، لا يعرف التكلف في لفظ ولا معنى، وإنما ينطلق لسانه مع سجيته، وسجيته سهلة مرسلة غنية غزيرة المادة، لا تكاد تنضب، ولا ينالها إعياء أو كلال، وحياته كلها عبر وعظات ولكنها عبر وعظات مبتسمة ليست بالمظلمة ولا العابسة ولا بالتي تردك وتنفرك، وتجعل للحزن والأسى إلى قلبك سبيلا، ولعلك لا تجد من شعراء هذا العصر رجلا مثله، تقرأ أخباره فتظل مبتسمًا منذ تبتدئ إلى أن تنتهي دون أن تعبس أو تقطب. وربما تجاوزت الابتسام إلى الإغراق في الضحك من حين إلى حين، ولكنك لن تترك الابتسام إلى الحزن الشديد. وربما اعترضتك في طريقك سحابة محزنة ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هينة، فهي أضعف من أن تزيل ابتسامتك. وكان هذا الشاعر من المعمرين، بلغ المائة أو كاد، وعاصر طبقات من الشعراء، وألوانًا من حاشية الخلفاء، ولكنه ظل محتفظًا بشخصيته الوادعة المبتسمة، تغير الناس واختلفت الظروف، وظل هو واحدًا لم يتغير. كان خليعًا، بل كان يعرف بالخليع، وكان كثير المجون مسرفا فيه، وما أحسب أن أبا نواس سبقه إلى لذة أو برز عليه في مأثم، ولكنه على خلاعته وإسرافه في المجون وتهالكه على اللذات، احتفظ طول حياته بشيء من كرم الخلق وطهارة العنصر وجودة الأصل، كأنما كانت هذه اللذات والآثام تنزلق على نفسه وأخلاقه انزلاقا دون أن تترك فيها أثرًا باقيًا، وإنما كانت الآثار التي تتركها لياليه الساهرة، وأيامه المملوءة بالعبث، هذه الأشعار الجميلة الحلوة التي سأظهرك على طرف منها.

فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء الذين إنما كانوا يصلون إلى الخلفاء بعد الجهد والكد، وبعد التلطف وحسن الحيلة؛ وإنما كان متصلا بالخلفاء اتصالا شديدًا، يعاشرهم ويرافقهم ويتدخل في حياتهم الخاصة، وربما تدخل إلى أكثر مما ينبغي. وكان الخلفاء يبحثون عنه، ويحرصون على عشرته ويبذلون في ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر في أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء.

فترى من هذا الوصف أنه شاعر أديب ظريف مطبوع، حسن التصرف في الشعر حلو المذهب، لشعره قبول ورونق صاف، وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها، وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسبه الناس إلى أبي نواس، وله معان في صفتها أبدع فيها، وهاجى مسلم بن الوليد فانتصف منه، وله غزل كثير جيد، وهو من المطبوعين الذين تخلو أشعارهم ومذاهبهم جملة من التكلف.

قال: أنشدت أبا نواس قصيدتي التي قلتها في الخمر وهي:

بُدّلتَ من نَفَحات الورد بالآء[٩١] ومن صَبُوحك درَّ الإبْلِ والشَّاء

فلما انتهيت منها إلى قولي:

حتى إذا أسْنِدت في البيت واحْتُضِرت عند الصّبوح ببَسَّامِين أكْفاء
فُضَّت خواتمها في نَعْت واصفها عن مثل رَقراقة في جفن مَرْهاء[٩٢]

فصعق صعقة أفزعتني وقال: أحسنت والله يا أشقر، فقلت: ويلك يا حسن، إنك أفزعتني والله، فقال: بلى والله أنت أفزعتني ورعتني، هذا معنى من المعاني التي كان فكري لابد أن ينتهي إليها أو أغوض عليها وأقولها، فسبقتني إليه واختلسته مني، وستعلم لمن يروى ألي أم لك؟ فكان والله كما قال، سمعت من لا يعلم يرويها له:

لما قدم المأمون من خراسان أمر بأن يسمى له قوم من أهل الأدب ليجالسوه ويسامروه، فذكر له جماعة فيهم الحسين بن الضحاك، وكان من جلساء محمد المخلوع، فلما رأى اسمه قال: أليس هو الذي يقول في محمد:

هلا بقيتَ لسَدّ فاقتنا أبدا وكان لغيرك التَّلَفُ
فلقد خَلَفْتَ خلائفا سَلَفوا ولسوف يُعْوِز بعدك الخَلَف

لا حاجة لي فيه، والله ولا يراني أبدًا إلا في الطريق، ولم يعاقب الحسين على ما كان من هجائه له وتعريضه به، وانحدر حسين إلى البصرة فأقام بها طول أيام المأمون.

قال أبو صالح بن الرشيد: دخلت يومًا على المأمون ومعي بيتان للحسين بن الضحاك، فقلت: يا أمير المؤمنين، أحب أن تسمع مني بيتين، فقال: أنشدهما، فأنشدتهما:

حمدنا الله شكرًا إذ حَبَانا بنصرك يا أمير المؤمنينا
فأنت خليفة الرحمن حقّا جمعت سماحة وجمَعتَ دينا

فقال: لمن هذان البيتان؟ فقلت: لعبدك يا أمير المؤمنين حسين بن الضحاك، قال: قد أحسن، فقلت: وله يا أمير المؤمنين أجود من هذا، فقال: وما هو؟ فأنشدته قوله:

أَجِزْني فإني قد ظَمِئتُ إلى الوعد متى تُنجِز الوعدَ المؤكد بالعَهْد
أَعِيذُك من خُلف الملوك وقد بدا تَقطّع أنفاسٌ عليك من الوَجْد
أيبخل فَرْدُ الحسن عني بنائل قليلٍ وقد أفردتُه بهوًى فَرْد
رأى اللهُ عبدَ الله خيرَ عباده فملّكه والله أعلم بالعبد
ألا إنما المأمون للناس عصمة مميِّزة بين الضّلالة والرشد

فأطرق ساعة ثم قال: ما تَطيب نفسي له بخير بعد ما قال في أخي محمد ما قال. ومن قوله يرثي محمدًا الأمين:

أَطِلْ حَزَنا وابكِ الإمام محمدا بحزن وإن خِفتَ الحسام المهندا
فلا تَمّتِ الأشياءُ بعد محمد ولا زال شَمْل الملك منها مُبَدّدا
ولا فرِح المأمونُ بالملك بعده ولا زال في الدنيا طريدًا مشرَّدا

ولحسين في محمد الأمين مراث كثيرة جياد، وكان كثير التحقق به والموالاة له لكثرة إفضاله عليه، وميله إليه، وتقديمه إياه، وبلغ من جزعه عليه أنه خولط فكان ينكر قتله لما بلغه ويدفعه ويقول: إنه مستتر وأنه قد وقف على دعاته في الأمصار يدعون إلى مراجعة أمره والوفاء ببيعته ضنا به وشفقة عليه.

ومن جيد مراثيه إياه قوله:

سألونا أَنْ كيف نحن؟ فقلنا من هَوَى نجمُه فكيف يكون؟

نحن قوم أصابنا حَدَثُ الدهـ ـر فظَلْنا لريْبه نستكِين
نـتـمـنـى مـن الأمـيـن إيـابـا لَهْفَ نفسي وأين منّي الأمين

ومن جيد قوله في مراثيه إياه:

أعَزّي يا محمدُ عنك نفسي معاذ الله والأيدي الجِسامِ
فهلّا مات قومٌ لم يموتوا ودُوفع عنك لي يومَ الحِمام
كأن الموت صادَف منك غُنْما أو استشفى بقربك من سَقَام

وقال أيضًا يرثيه:

يا خير اسْرته وإن زَعموا إنّي عليك لمُثْبَتٌ أَسِفُ
الله يعلم أن لي كبدا حَرّي عليك ومقلةً تَكِف
ولئن شَجِيتُ بما رُزئتُ به إني لأَضْمر فوق ما أَصِف
هلّا بَقِيتَ لسَدّ فاقتنا أبدا وكان لغيرك التَّلَف
فلقد خَلَفتَ خلائفا سَلفوا ولسوف يُعْوِز بعدك الخلف
لا بات رَهْطُك بعد هفوتهم إني لرهطك بعدها شَنِف[٩٣]
هَتكوا بحرمتك التي هُتِكت حُرَم الرسول ودونها السُّجُف
وثَبَتْ أقاربُك التي خَذَلتْ وجميعُها بالذل معترِف
لم يفعلوا بالشَّطّ إذ حضروا ما تفعل الغَيْرانَةُ الأنفُ
تركوا حريمَ أبيهم نَفَلا والمُحْصَناتُ صوارِخٌ هُتُفُ
أبدت مُخَلْخَلَها على دَهَش أبكارُهنّ ورَنّت النَّصَفُ
سُلِبَت مَعاجِرُهنّ[٩٤] واجْتُلِيت ذاتُ النِّقاب ونُوزع الشَّنَف
فكأنهنّ خِلالَ مُنْتَهَبٍ دُرٌّ تكشَّف دونَه الصَّدَف
مَلكٌ تخوّن مُلْكَه قدَرٌ فَوَهَى وصرفُ الدهر مختلفِ
هيهاتَ بعدك أن يدوم لنا عِزّ وأن يبقى لنا شَرَف
لا هَيَّبُوا صُحُفًا مشرَّفة للغادرين تحتها الجَدَف
أفَبَعْد عهد الله تقتُلُه والقتل بعد أمانةٍ سَرَف

فستعرفون غدا بعاقبةٍ عزَّ الإله فأوردُوا وقِفُوا
يا من يُخَوِّن نومَه أرَقٌ هَدَتِ الشجونُ وقلبهُ لَهِف
قد كنتَ لي أملا غَنِيتُ به فمضى وحلّ محلَّه الأَسَف
مَرِجَ النّظام وعاد مُنْكُرنا عُرْفا وأنْكِر بعدك العُرُف
فالشملُ منتشر لفقدك والـ ـدُّنيا سُدًى والبال منكسف

وقال أيضًا يرثيه:

إذا ذُكِر الأمينُ نَعَى الأمينا وإن رقَد الخَلِيّ حَمَى الجُفُونا
وما بَرِحتْ منازلُ بين بُصرى وكَلْوَاذَى تُهَيِّج لي شجونا
عِراصُ الملك خاويةٌ تَهادى بها الأرواح تَنْسجها فنونا
تخوّن عزَّ ساكنها زمانٌ تلّعب بالقرون الأَوَّلينا
فَشَتّتَ شملَهم بعد اجتماع وكنتُ بحسن أُلْفَتهم ضنينا
فلم أر بعدهم حُسْنا سِواهم ولم تَرَهُم عيونُ الناظرينا
فوا أَسَفَا وإن شَمَت الأعادي وَآهِ على أمير المؤمنينا
أضَلّ العُرفَ بعدك مُتْبِعوه ورُفّه عن مطايا الراغبينا
وكنّ إلى جنابك كلّ يوم يَرُحْنَ على السّعود ويغْتدينا
هو الجبلُ الذي هوت المعالي لِهَدّته وريع الصّالحونا
سَتندُب بعدك الدنيا جِوارا وتندب بعدك الدِينَ المصونا
فقد ذهبت بشاشةُ كلِّ شيء وعاد الدين مطروحًا مَهِينا
تعقّد[٩٥] عزُّ مُتَّصِلٍ بكسرى ومِلّته وذَلّ المسلمونا

وقال أيضًا يرثيه:

أَسَفًا عليك سَلاك أقربُ قُرْبَةً منّي وأحزاني عليك تزيد

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي: حسين بن الضحاك أشعر المحدثين حيث يقول:

أيُّ ديباجةِ حُسْنٍ هيّجتْ لوعةَ حزني
إذ رماني القمرُ الزا هر عن فَتْرة جفن
بأبي شمسُ نهار برزتْ في يوم دَجْن
قرّبتني بالمنى حتـ ـى إذا ما أخلفتني
تركتني بين ميعا د وخُلْفٍ وتَجَنٍّ
ما أرى فيَّ من الصَّبْـ ـوة إلّا حسنَ ظني
إنما دامت على الغد ر لما تَعرِف مِنّي
أستعيذ الله من إعرا ض من أعرضَ عنّي

لما ولي المعتصم أمر بمكاتبته بالقدوم عليه، فلما دخل وسلم استأذنه في الإنشاد، فأذن له، فأنشده قوله:

هلّا سألتَ تلذّذ المشتاق ومَنَنْتَ قبلَ فراقه بِتَلَاق
إن الرقيب ليَستريب تنفُّسًا صُعُدا إليك وظاهر الإقلاق
ولئن أَرِبْتُ لقد نظرتُ بمقلَة عَبْرى عليك سَخينة الآماق
نفسي الفداءُ لخائفٍ مترقِّبٍ جَعَل الوداع إشارةً بِعِناق
إذ لا جوابَ لُمْفحَم متحيِّر إلا الدموع تُصان بالإطراق

حتى انتهى إلى قوله:

خيرُ الوفود مبَشِّر بخلافة خَصّتْ ببهجتها أبا إسحاق
وافته في الشهر الحرام سليمةً من كل مشكلة وكل شِقاق
أعطته صفْقتَها الضمائرُ طاعةً قبل الأَكُف بأوكَد المِيثاق
سكنَ الأنامُ إلى إمام سَلامةٍ عَفٍّ الضمير مهذَّب الأخلاق

فحمى رعيَّتَه ودافع دونَها وأجار مُمْلِقَها من الإملاق

حتى أتمها، فقال له المعتصم: ادن مني، فدنا منه، فملأ فمه جوهرًا من جوهر كان بين يديه، ثم أمره بأن يخرجه من فمه، فأخرجه وأمر بأن ينظم ويدفع إليه ويخرج إلى الناس وهو في يده، ليعلموا موقعه من رأيه، ويعرفوا فضله، فكان أحسن ما مدح به يومئذ.

ومن شعره قوله:

أمينَ الله ثِقْ بالله ـه تُعْطَ الصبر والنُّصْرَهْ
كِلِ الأمرَ إلى الله كَلاك الله ذو القُدره
لنا النصر بعون الله والكَرّة لا الفَرّه
وللمُرّاق أعدا ئك يومُ السوء والدَّبْره
وكأس تلفِظ الموت كريهٍ طعمُها مُرّه
سَقوْنا وسقيناهم ولكن بهم الجِرَّه
كذاك الحرب أحيانًا علينا ولنا مَرّه

ومن قوله في غضب حظية للواثق من زيارته أخرى في نوبتها:

غَضِبتْ أَنْ زرتُ أخرى خِلْسةً فلها العُتبى لَدَيْنا والرِّضا
يا فَدَتْكِ النفس كانت هَفْوةً فاغفريها واصفحي عما مضى
واتركي العَدْل على من قاله وانسُبي جَوْري إلى حكم القضا
فلقد نبهتِني من رَقْدتي وعلى قلبي كنِيران الغَضا

كان الواثق يتحظى جارية له فماتت، فجزع عليها وترك الشراب أيامًا، ثم سلاها وعاد إلى حاله، فدعا الحسين ليلة وقال له: رأيت فلانة في النوم فليت نومي كان طال قليلا لأتمتع بلقائها، فقل في هذا شيئًا، فقال:

ليت عينَ الدهر عنا غَفَلت ورقيبَ الليل عنا رَقَدا
وأقام النوم في مدّته كالذي كان وكنّا أبدا

بـأبـي زَوْرٌ تـلـفّـتُّ لـه فتنفّستُ إليه الصُّعَدا
بينما أضحك مسرورا به إذ تقطّعتُ عليه كَبِدا

لما أعيته الحيلة في رضا المأمون عنه رمى بأمره إلى عمرو بن مسعدة وكتب إليه:

أنت طَوْدى من بين هذي الهِضاب وشِـهـابـي مـن دون كل شـهـاب
أنت يـا عـمـرو قُـوّتـي وحـيـاتـي ولـسـانـي وأنـت ظُـفْـري ونـابـي
أَتُـرانـي أنـسـى أيـاديَـك الـبِـيـــ ـض إذا اسـودّ نـائـل الأصـحـاب
أيـن أخـلاقـك الـرضـيّـة حـالـت فـيّ أم أيـن رِقّـة الـكـتّـاب؟
أنـا فـي ذِمَـة الـسـحـاب وأطْـمَـا؟ إن هـذا لـوَصـمـةٌ فـي الـسـحـاب
قـم إلـى سـيّـد الـبـريّـة عـنـي قـومَـةً تَسْتَجِرّ حُسْنَ الخطاب
فـلـعـل الالـه يُـطـفـئ عـنّـي بـك نـارا عـلـيّ ذات الـتـهـاب

فلم يزل عمرو يلطف للمأمون حتى أوصله إليه وأدر أرزاقه.

ولما عفا المأمون عنه أمر بإحضاره، فلما حضر سلم، فرد عليه السلام ردا جافيًا، ثم أقبل عليه فقال: أخبرني عنك، هل عرفت يوم قتل أخي محمد هاشمية قتلت أو هتكت؟ قال: لا؛ قال: فما معنى قولك:

وسِرْب ظِباء من ذؤابة هاشم هَتَفْن بدعوى خيرِ حي وميِّت
أَرُدّ يَدًا منّي إذا ما ذكرتُه على كبد حَرّى وقلبٍ مُفَتّت
فلا بات ليلُ الشامتين بغِبطةٍ ولا بَلَغت آمالُهم ما تمنّت

فقال: يا أمير المؤمنين، لوعة غلبتني، وروعة فاجأتني، ونعمة فقدتها بعد أن غمرتني، وإحسان شكرته فأنطقني، وسيد فقدته فأقلقني، فإن عاقبت فبحقك، وإن عطفت فبفضلك؛ فدمعت عينا المأمون وقال: قد عفوت عنك، وأمرت بإدرار رزقك، وإعطائك ما فات منه، وجعلت عقوبتك امتناعي من استخدامك.

ومن قوله:

وكالوردة الحمراء حَيا بأَحْمَر ... من الورد يمشي في قَراطِق كالورد
له عَبَثاتٌ عند كل تحيّة ... بعينيه تَستدعي الحليمَ إلى الوجد
تمنّيت أن أُسقَى بكّفيه شَرْبة ... تذكّرني ما قد نَسيتُ من العهد
سقى الله دهرا لم أبِتْ فيه ليلةً ... خَليّا ولكن من حبيبٍ على وعد

ومن قوله:

وا بِأبي مُفْحَم لعزّته ... قلتُ له إذ خلوتُ مكتَتما
تُحِبّ بالله من يخصّك بالـ ... ـود فما قال لا ولا نَعَما
ثم تولّى بمُقْلَتَيْ خَجِل ... أراد رَجْع الجواب فاحتشما
فكنت كالمُبتغى بحيلته ... بُرءًا من السُّقْم فابتدا سَقَما

وقال في هوى له:

عالِمٌ بحِّبيه ... مطرِق من التِّيه
يوسفُ الجمالِ وفِر ... عون في تَعَدّيه
لا وحقِّ ما أنا فيـ ... ـه من عطفٍ أرَجّيه
ما الحياةُ نافعة ... لي على تأَبِّيه
النعيم يَشغَلُه ... والجمال يُطغِيه
فهو غيرُ مكترث ... للذي ألاقِيه
تَائِهٌ تُزَهِّده ... في رغبتي فيه

ومن قوله في هوى له:

إن من لا أرى وليس يَراني ... نُصْب عيني مُمَثَّل بالأماني
بأبي مَنْ ضميره وضميري ... أبدا بالمَغِيب ينتجِيان
نحن شخصان إن نظرت ورو ... حان إذا ما اختبرت يمتزجان

فإذا ما همَمتُ بالأمر أو هَمَّ بشيء بدأتُه وبداني
كان وفْقًا ما كان منه ومنّي فكأني حَكَيتهُ وحَكاني
خَطَرات الجفون منّا سواءٌ وسواء تحرّكُ الأبدان

ومن قوله:

فَدّيتُ من قال لي على خَفَره وغَضّ من جفنه على حَورَه
سمّع بأشعارك المليحَ فما يَنْفَكَّ شَاد بها على وَتَره
حسبك بعضُ الذي أذعتَ ولا حَسْبٌ لِصَبٍّ لم يَقْضِ من وَطَره
وقلتُ يا مستعيرَ سالفة الـ ـخِشْفِ وحُسْنِ الفُتور من نَظَره
لا تنكِرنّ الحبيبَ من طَرَب عَاوَد فيك الصِّبا على كِبره

ومن قوله:

سائل بطيفك عن لَيْلي وعن سهري وعن تتابع أنفاسي وعن فِكَري
لم يَخْلُ قلبيَ من ذكراك إذ نظرت عيني إليك على صَحْوي ولا سكري
سَقْيًا ليومٍ سروري إذ تُنَازِعني صفوَ المُدامة بين الأنس والخَفَر
وفضلُ كأسك يأتيني فأشربه جَهْرا وتشرب كأسي غير مُستتر
وكيف أشمِله لثمي وألزمه نحري وترفعه كفّي إلى بصري
فليت مُدّة يومي إذ مضى سلَفا كانت ومدّة أيامي على قَدَر
حتى إذا ما انطوت عنّا بشاشته صِرنا جميعًا كذا جارَيْن في الحُفَر

ومن قوله لهوى كان له:

تَعَزَّ بيأسٍ عن هوايَ فإنني إذا انصرفت نفسي فهيهات عن رَدّي
إذا خُنتُم بالغيب ودّي فمالكم تُدِلّون إدلال المقيم على العهد
ولي منك بد فاجتنبني مَذَمَّما وإن خِلتَ أنى ليس لي منك مِنْ بدِّ

لما ولى الواثق الخلافة أنشده حسين:

أُكلتم وجدى فما يَنكتمْ ... بمن لو شكوتُ إليه رَحِمْ
وإني على حسن ظنّي به ... لأَحْذَر إن بُحتُ أن يحتشم
ولي عند لحظته رَوْعة ... تحقّق ما ظَنّه المتّهم
وقد علم الناس أنَّى له ... محبّ وأحسبه قد علِم
وإني لمُغْضٍ على لوعة ... من الشوق في كبدي تَضْطَرم
عَشيّة ودّعت عن مقلة ... سَفُوحٍ وزفرةِ قلبٍ سَدِم
فما كان عند النَّوى مُسْعِد ... سوى العين تمزج دمْعًا بِدَم
سيذكر من بان أوطانَه ... ويبكي المقيمين من لم يُقِم

كتب إلى الحسن بن رجاء في يوم شك، وقد أمر الواثق بالإفطار، فقال:

هَزَزْتُك للصَّبوح وقد نهاني ... أميرُ المؤمنين عن الصِّيام
وعندي من قِيان المِصر عَشْرٌ ... تَطِيب بهنّ عاتِقة المدام
ومن أمثالهن إذا انتشينا ... ترانا نجتني ثَمَر الغرام
فكن أنتَ الجواب فليس شيء ... أحبّ إليّ من حَذْف الكلام

فوردت رقعته، وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بسخنر ووجه إليه بغلام نظيف الوجه ومعه ثلاثة غلمة أقران حسان الوجه، ومعهم رقعة كتبها كما تكتب المناشير، وختمها في أسفلها وكتب فيها يقول:

سِرْ على اسم الله يا أشـ ... ـكل من غصنِ لُجَيْنِ
في ثلاثٍ من بَني الرو ... م إلى دار حسينِ
أَشْخِص الكهل إلى مو ... لاك يا قُرّة عيني
أَرِه العُنْف إذا استعـ ... ـصى وطالِبه بدَيْنِ
ودَعِ اللفظ وخاطبـ ... ـه بغمز الحاجبَيْنِ
واحذر الرَّجعة من وجـ ... ـهك في خُفَّىْ حُنَيْنِ

فمضى معهم.

ومن قوله لمن أعرض عنه:

تَتِيه علينا أَنْ رُزِقْتَ ملاحةً فمهلًا علينا بعضَ تيهك يا بَدرُ
لقد طال ما كنّا مِلاحا وربما صدَدنا وتهنا ثم غيّرنا الدهرُ

وله في هوى حجب عنه:

ظَنّ من لا كان ظنـ ـا بحبيبي فحَمَاه
أَرْصَد البابَ رقيبـ ـن له فاكْتَنَفاه
فإذا ما اشتاق قربي ولقائي مَنَعَاه
جعل اللهُ رقيبـ ـه من السُّوء فِداه
والذي أَقْرح في الشا دن قلبي ولوَاه
كلُّ مشتاق إليه فمن السُّوء فِداه
سِيّما من حالت الأحـ ـراس من دون مُناه

أمره المتوكل بأن ينادمه ويلازمه، فلم يطق ذلك لكبر سنه، فقال للمتوكل بعض من حضر عنده: هو يطيق الذهاب إلى القرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك؛ فبلغه ذلك، فدفع إلى أحمد بن حمدون أبياتًا قالها وسأله إيصالها، فأوصلها إلى المتوكل، وهي:

أما في ثمانين وُفِّيتَها عذيرٌ وإن أنا لم أعْتَذِرْ
فكيف وقد جزتُها صاعدًا مع الصاعدين بِتْسع أُخَرْ
وقد رفع الله أقلامه عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصَرّ على فتنة وألْحَد في دينه أو كفر
وإني لمن أُسَراء الإلـ ـه في الأرض نصْبَ صُروف القَدَر
فإن يَقْضِ لي عملا صالحًا أثاب وإن يقضِ شرًّا غفر
فلا تَلْحَ في كبرٍ هَدّني فلا ذنب لي أن بلغت الكبر
هو الشيب حَلّ بعَقْب الشباب فمن ذا يلوم إذا ما عذر
وإني لَفي كَنَفٍ مُغْدِق وعزٍّ بنصرِ أبي المُنْتَصِر

يُباري الرياح بفضل السما ... حِ حتى تَبلّد أو تَنْحَسِر
له أكّد الوحيُ ميراثَه ... ومن ذا يخالف وحي السُّوَر
وما للحسود وأشباهه ... ومن كذَّب الحقَّ إلا الحجر

فلما أوصلها شيعها بكلام يعذره وقال: لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها؛ فقال المتوكل: صدقت، وأمر له بعشرين ألف درهم.

(٥) محمد بن عبد الملك الزيات[٩٦]

كان محمد شاعرًا مجيدًا لا يقاس به أحد من الكتاب، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله في ذلك، فإن إبراهيم مقل وصاحب قصار ومقطعات. وكان محمد شاعرًا يطيل فيجيد، ويأتي بالقصار فيجيد؛ وكان بليغًا حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب.

ولما تولى محمد الوزارة اشترط ألا يلبس القباء، وأن يلبس الدراعة ويتقلد عليها سيفًا بحمائل، فأجيب إلى ذلك.

وكان يقول: الرحمة خور في الطبيعة، وضعف في المنة، ما رحمت شيئًا قط؛ فكانوا يطعنون عليه في دينه بهذا القول، فلما وضع في الثقل والحديد قال: ارحموني، فقالوا له: وهل رحمت شيئًا قط فترحم؟ هذه شهادتك على نفسك وحكمك عليها.

لما ماتت أم ابنه عمرو رثاها بقصيدة منها:

يقول لي الخِلّان لو زُرْتَ قبرَها ... فقلتُ وهل غير الفؤاد لها قبرُ
على حين لم أحدُث فأجهل قبرها ... ولم أبلُغ السِّنّ التي معها الصبر

ومن شعره قوله:

ما أعجب الشيءَ ترجوه فَتُحرَمَه ... قد كنتُ أحسب أني قد ملات يدي
ما لي إذا غِبتُ لم أُذْكَر بصالحة ... وإن مَرِضتُ فطال السَّقمُ لم أُعَد

ومن شعره قوله:

ألم تعجَب لمكتئبٍ حزينٍ خدين صبابةٍ وحليف صبرِ
يقول إذا سألت به بخير وكيف يكون مهجورٌ بخيرِ

وكان لمحمد برذون أشهب لم ير مثله فراهة وحسنا، فسعى به محمد بن خالد إلى المعتصم ووصف له فراهته، فبعث إليه المعتصم فأخذه منه، فقال محمد بن عبد الملك يرثيه:

كيف العزاءُ وقد مضى لسبيله عنا فودّعنا الأَحَمّ الأَشهبُ
دَبَّ الوُشاةُ فأبعدوك وربما بَعُد الفتى وهو الأَحَبّ الأقرب
لله يومَ نأيت عنّيَ ظاعِنا وسُلِبتُ قربك أيّ عِلْق أَسْلَب
نَفسٌ مفرَّقَةٌ أقام فريقُها ومضى لِطيّته فريقٌ يُجْنَب
فالآن إذ كمُلت أداتك كلّها ودعا العيونَ إليك لونٌ مُعْجِب
واخْتِير من سِرّ الحدائد خيرُها لك خالصا ومن الحليّ الأغرب
وغدوتَ طَنّان اللجام كأنما في كل عُضو منك صَنْج يضرِب
وكأن سَرْجك إذ علاك غمامةٌ وكأنما تحت الغمامة كوكب
ورأى عَلَيَّ بك الصديقُ جَلالةً وغدا العدوّ وصدرُه يَتلهّب
أنساك لا زالت إذا منيته نفسي ولا زالت يميني تنكب
أضمرتُ منك اليأس حين رأيتَني وقُوى حبالي من قُواك تُقَضّب
ورَجَعتُ حين رجَعت منك بحسرة لله ما فعل الأَحَمّ الأشهب

ولما وثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة اقترض من مياسير التجار مالا، فأخذ من عبد الملك أبي محمد عشرة آلاف درهم وقال له: أنا أردها إذا جاءني مال، ولم يتم أمره، فاستخفى ثم ظهر ورضى عنه المأمون، فطالبه الناس بأموالهم، فقال: إنما أخذتها للمسلمين وأردت قضاءها من فيئهم، والأمر الآن إلى غيري، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة خاطب فيها المأمون ومضى إلى إبراهيم بن المهدي فأقرأه إياها وقال: والله لئن لم تعطني المال الذي اقترضته من أبي لأوصلن هذه القصيدة إلى المأمون، فخاف أن يقرأها المأمون فيتدبر ما قاله، فيوقع به، فقال له: خذ مني بعض المال ونجم على بعضه، ففعل؛ والقصيدة قوله:

ألم تَرَ أنّ الشيءَ للشيءِ عِلّةٌ ... تكون له كالنار تُقدَح بالزَّنْدِ
كذلك جَرَّبت الأمور وإنما ... يدُلُّك ما قد كان قَبْلُ على البَعْدِ
وظَنّي بإبراهيم أنّ مكانه ... سَيبْعَث يوما مِثْلَ أيامه النُّكْدِ
رأيت حُسَينا حين صارَ محمدٌ ... بغير أمان في يَدَيْهِ ولا عَقْدِ
فلو كان أمضى السيفَ فيه بضربة ... فصيّره بالقاع مُنْعفِرَ الخَدِّ
إذا لم تكن للجُنْد فيه بقيّةٌ ... فقد كان ما بُلِّغْتُ من خبر الجندِ
هُمُ قتلوه بعد أن قتلوا له ... ثلاثين ألفا من كُهُول ومن مُرْدِ
وما نصروه عن يدٍ سَلفت له ... ولا قتلوه يوم ذلك عن حِقدِ
ولكنّه الغَدْر الصُّراحُ وخِفّة الـ ... ـحلوم وبُعد الرأي عن سُنَن القَصْدِ
فذلك يومٌ كان للناس عِبرةً ... سيبقى بقاءَ الوَحْى في الحجر الصَّلدِ
وما يوم إبراهيم إن طال عمرُه ... بأبْعَد في المكروه من يومه عندي
تذكّر أميرَ المؤمنين مَقامَه ... وأَيْمانه في الهزل منه وفي الجِدِّ
أما والذي أمسيتَ عبدًا خليفةً ... له شر إيمَان الخليفة والعبدِ
إذا هزّ أعوادَ المنابر باسْتِه ... تَغَنَّى بليلَى أو بِمَيّة أو هِندِ
فوالله ما من تَوْبةٍ نَزعتْ به ... إليك ولا مَيْلٍ إليك ولا وُدِّ
ولكنّ إخلاصَ الضمير مقرِّبٌ ... إلى الله زُلْفى لا تَبِيدُ ولا تُكْدِي
أتاك بها كَرْها إليك بأنْفِه ... على رَغْمه واستأثر الله بالحمدِ
فلا تَتْركَنْ للناس موضِع شُبهْة ... فإنك مَجْزِي بِحَسْب الذي تُسْدي
فقد غلطوا للناس في نَصْب مِثْله ... ومن ليس للمنصور بابن ولا المهدي
فكيف بمن قد بايع الناسُ والتقت ... ببيعته الرُّكبان غَوْرا إلى نَجدِ
ومن سَكّ تسليمُ الخلافة سمعه ... يُنادَى به بين السِّماطين من بُعْدِ
وايّ امرئ سَمَّى بها قط نفسَه ... ففارقها حتى يُغيَّب في اللّحدِ
وتزعُم هَذي النّابِتِيّة أنه ... إمام لها فيما تُسِرّ وما تُبدي
يقولون سُنّى وأيّةُ سُنّة ... تَنِمُّ بصَعْل الرأس جَوْنِ القَفا جَعْدِ
وقد جعلوا رُخْص الطعام بعهده ... زعيمًا له باليُمن والكوكب السَّعدِ
إذا ما رأوْا يومًا غَلاءً رأيتَهم ... يَحِنّون تَحْنانا إلى ذلك العهدِ
وإقبالُه في العيد يُوجِفُ حَوْله ... وَجِيفَ الجِياد واصطكاك القَنَا الجُرْدِ

ورَجّالةٌ يمشون بالبِيض قَبْلَه ... وقد تَبِعوه بالقضيب وبالبُرْدِ
فإن قلتَ قد رام الخلافةَ قَبْلَه ... فلم يُؤْتَ فيما كان حاول مِن جِدِّ
فلم أَجْزِه إذ خيّبَ الله سَعْيه ... على خطأ إذ كان منه على عَمْد
ولم أَرْضَ بعد العفو حتى رفعتُه ... ولَلْعَمّ أولى بالتَّغَمُّد والرِّفدِ
فليس سَواءً خارِجِيٌ رَمَى به ... إليك سَفَاه الراى والرأي قد يُرْدى
تَعَادَتْ له من كل أَوْب عصابة ... متى يُورِدوا لا يُصدِروه عن الوِرْدِ
ومن هو في بيتِ الخلافة تَلْتَقي ... به وبك الآباء في ذِرْوة المجدِ
فمولاك مولاهُ وجُنْدُكَ جُنْدُه ... وهل يَجْمع القَيْنُ الحُسَاميْن في غِمْدِ
وقد رابَني من أهل بيتك أنني ... رأيتُ لهم وَجْدا به أيَّما وَجْدِ
يقولون لا تَبْعَد من ابنِ مُلِّمةٍ ... صبورٍ على اللأواء ذي مِرّة جَلْدِ
فَدانا وهانت نفسُه دون مُلْكنا ... عليه لدى الحال التي قلّ مَنْ يَفْدى
على حينِ أعطَى الناسُ صَفْقَ أكفّهم ... عليَّ بن موسى بالولاية والعَهْدِ
فما كان فينا من أبَى الضيمَ غيرُه ... كريمٌ كَفَى ما في القَبول وفي الرَّدِّ
وجّرد إبراهيم للموت نفسَه ... وأبدى سلاحًا فوق ذي مَيْعة نَهْدِ
وأبلى ومن يبلُغ من الأمر جَهْدَه ... فليس بمذموم وإن كان لم يُجْدِ
فهذي أمور قد يَخاف ذوو النُّهى ... مَغَبّتها والله يَهديك للرّشدِ

وكانت الخلافة في أيام الواثق تدور على إيتاخ وكاتبه سليمان بن وهب، وعلى أشناس وكاتبه أحمد بن الخصيب، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة وأوصلها إلى الواثق على أنها لبعض أهل العسكر، وهي:

يابن الخلائف والأملاك إن نُسِبوا ... حُزْت الخلافةَ عن آبائك الأُوَل
أَجُرْت أم رقدت عيناك عن عَجَب ... فيه البريّة من خوف ومن وَهَل
ولّيتَ أربعةً أمرَ العباد معا ... وكلُّهم حاطِبٌ في حبل مُحْتبِل
هذا سليمانُ قد ملّكت راحتَه ... مشارقَ الأرض من سَهْل ومن جبل
ملّكته السِّند فالشِّحْريْن من عَدَن ... إلى الجزيرة فالأطراف من مَلَل
خلافةٌ قد حواها وحده فَمضَتْ ... أحكامُه في دماء القوم والنُّفَل
وابن الخصيب الذي ملّكت راحته ... خلافةَ الشأم والغازين والقفل

فنِيلُ مِصرَ فبحرُ الشأم قد جَرَيَا ... بما أراد من الأموال والحُلَل
كأنهم في الذي قَسَّمتَ بينهم ... بَنُو الرشيد زمانَ القَسْم للدُّوَل
حَوَى سليمانُ ما كان الأمينُ حوى ... من الخلافة والتبليغِ للأمل
وأحمدُ بن خصيب في إمارته ... كالقاسم بن الرشيد الجَامع السُّبل
أصبحتَ لا ناصحٌ يأتيك مستَتِرًا ... ولا علانِيةً خوفًا من الحِيَل
سل بيتَ مالك أين المال تعرفه ... وسل خَراجك عن أموالك الجُمَلَ
كم في حُبُوسك ممن لا ذنوب لهم ... أسْرَى التَّكَذّب في الأقياد والكُبَلَ
سمِّيت باسم الرشيد المُرتضى فَبِه ... تُسْمى الأمور التي تُنْجي من الزلَّل
عِثْ فيهم مثل ما عاثت يداه معا ... على البرامك بالتهديم للقُلَل

فلما قرأ الواثق هذا الشعر غاظه، ونكب سليمان بن وهب وأحمد بن الخصيب، وأخذ منهما ومن أسبابهما ألفي ألف دينار فجعلها في بيت المال.

(٦) ابن البواب[٩٧]

لما أتى المأمون بشعر ابن البواب الذي يقول فيه:

أيبخَل فَرْدُ الحسنِ فَرْدُ صِفَاته ... عليّ وقد أفردتُه بهوًى فَرْدِ
رأى اللهُ عبدَ الله خيرَ عباده ... فملَّكه واللهُ أعلم بالعبد
ألا إنما المأمون للناس عِصمة ... مميِّزة بين الضّلالة والرّشد

فقال المأمون: أليس هو القائل:

أعَيْنيّ جُودَا وابْكِيا لي محمدا ... ولا تَذْخَرا دمعا عليه وأَسْعِدا
فلا فرِح المأمون بالمُلك بعده ... ولا زال في الدنيا شريدًا مُطَرَّدا

واحدة بواحدة، ولم يصله بشيء. ولما سخط عليه قال قصيدة يمدحه بها، ودس من غناه في بعضها لما وجد منه نشاطا، فسأل: من قائلها، فأخبر به، فرضي عنه ورده إلى رسمه من الخدمة، وهي:

هل للمحبِّ مُعِينُ ... إذ شَطّ عنه القرينُ
فليس يبكي لشجو الـ ... ـحزينِ إلا الحزينُ
يا ظاعِنا غاب عنا ... غداةَ بانَ القَطِينُ
أَبْكَى العيونَ وكانت ... به تَقَرّ العيون
يا أيها المأمون الـ ... ـمباركُ الميمونُ
لقد صَفَتْ بك دنيا ... للمسلمين ودين
عليك نورُ جلال ... ونور مُلْك مُبِين
القولُ منك فَعال ... والظن منك يقين
ما من يديكَ شِمال ... كلتا يديك يمين
كأنما أنت في الجو ... د والتّقى هارون
مَنْ نال من كل فضل ... ما نالَه المأمون
تألَّف الناسَ منه ... فضلٌ وجود ولين
كالبدر يبدو عليه ... سكينةٌ وسكون
فالرزق من راحتيه ... مقسَّم مضمون
وكل خَصْلة فضل ... كانت فمنه تكون

ومما يغنى فيه قوله:

أَفِقْ أيها القلب المعذّب كم تَصْبو؟ ... فلا النَّأْى عن سَلْماك يُسلى ولا القربُ
أقول غَدَاةَ استخبرتْ مِمَّ علَّتي؟ ... من الحب كربٌ ليس يُشبهه كرب
إذا أبصرتْكِ العينُ من بُعْد غاية ... فأدخلت شكا فيك أثْبَتَك القلب
ولو أن رَكْبا يَمَّمُوك لَقَادهم ... نسيمُك حتى يَستدلَّ بِك الركب

أملق ابن البواب حين جفاه الخليفة وعلت سنه عن الخدمة، فرحل إلى أبي دلف القاسم بن عيسى ومدحه بقصيدة، فوهب له ثلاثين ألف درهم وعاد بها إلى بغداد، فما نفدت حتى مات؛ وهي قوله:

طرَقَتْك صائدةُ القلوب رَبابُ ... ونَأَتْ فليس لها إليك مآب

وتصرّمتْ منها العهود وغُلّقتْ ... من دون نَيل طِلابها الأبواب
فلا صْدِفنّ عن الهوى وطِلابه ... فالحبّ فيه بَليّة وعذاب
وأخصُّ بالمدح المهذّب سيّدا ... نَفَحاتُه للمُجْتدِين رِغاب
وإلى أبى دُلَفٍ رحلتُ مطّيتي ... قد شَفّها الإرقال[٩٨] والإتعاب
تعلو بنا قُلَلَ الجبال ودونها ... مما هَوَتْ أهْويّة وشِعَاب
فإذا حللتُ لدى الأمير بأرضه ... نلتُ المنى وتقضّتِ الآرابُ
مَلِك تأثّل عن أبيه وجده ... مَجْدًا يقصِّر دونه الطُّلَّاب
وإذا وزَنْت قديمَ ذي حَسَبٍ به ... خَضَعتْ لفضل قديمه الأحساب
قوم عَلوْا أملاكَ كلّ قبيلة ... فالناسُ كلّهم له أذناب
ضَربتْ عليه المكرماتُ قِبابها ... فعلا العمودُ وطالت الأطناب
عَقِم النساءُ بمثله وتعطّلت ... من أن تُضَمَّن مثلَه الأصلابُ

(٧) الخريمي[١]

[٩٩]كان متصلا بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة، وله فيه مدائح جياد، ثم رثاه بعد موته، فقيل له: يا أبا يعقوب، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مراثيك وأجود؛ فقال: كنا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد.

وهو القائل في عينيه:

أُصْغى إلى قائدي ليُخبرني ... إذا التقينا عمّن يُحيّيني
أريد أن أعْدِل السلام وأن ... أَفْصِل بين الشريف والدُّون
أسمع ما لا أرى فأَكْرَهُ أن ... أخْطئ والسمعُ غير مأمون
لله عيني التي فُجِعْت بها ... لو أن دهرًا بها يُواتيني
لو كنتُ خُيّرت ما أخذتُ بها ... تَعْميرَ نوح في مُلك قارون
حقّ أخِلائي أن يَعودوني ... وأن يُعَزّوا عنّي ويبكوني

وهو القائل:

إذا ما مات بعضُك فابكِ بعضا ... فإن البعض عن بعض قريبُ
يُمنّيني الطبيبُ شفاء عيني ... وهل غير الإله لها طبيب

وقال يذكر بغداد والفتنة التي كانت بها:

قالوا ولم يَلْعبِ الزمانُ ببغـ ... ـداد وتَعْثُرْ بها عواثِرُها
إذ هي مثلُ العروس بادِئُها ... مُهَوَّل للفتى وحاضِرها
جَنّةُ دنيا ودارُ مَغْبَطَة ... قَلّ من النائبات وائِرُها[١٠٠]
دَرّت خُلوفُ الدنيا لساكنها ... وقَلّ معسورُها وعاسِرُها
وانفرجَتْ بالنعيم وانْتَجعت ... فيها بلذّاتها حواضِرها
فالقومُ منها في روضة أنُفٍ ... أشرق غِبّ القِطار زاهرها
من غَرّه العيش في بُلَهْنِية ... لو أن دنيا يدوم عامِرها
دارُ ملوك رَسَت قواعدها ... فيها وقرتّ بها منابِرها
أهلُ العلا والثّرى وأنديةَ الـ ... ـفخر إذا عُدّدَتْ مفاخرها
أفراخُ نُعْمَى في إرث مملكة ... شَدّ عُراها لها أكابرها
فلم يزل والزمانُ ذو غِير ... يَقدَح في مُلكها أصاغرها
حتى تَساقتْ كأسا مُثَمِّلة ... من فتنة لا يُقال عاثرها
وافترقت بعد أُلفَة شِيَعًا ... مقطوعةً بينَها أواصِرها
ياهَلْ رأيتَ الأملاكَ ما صَنَعَت ... إذ لم يَزَعها بالنّصح زاجرها
أورد أملاكُنا نفوسَهمُ ... هُوّةَ غَيّ أعْيَت مصادِرها
ما ضَرّها لو وَفَتْ بمَوْثِقها ... واستحكمتْ في التُّقى بصائرها
ولَم تُسَافِك دماءَ شِيعتها ... وتَبْتعِل فتيةً تُكابرها
وأقنَعتْها الدنيا التي جُمِعت ... لها ورَغْبُ النفوس ضائِرها
ما زال حَوْضُ الأملاك [...] ... مسجورها بالهوى وساجِرُها
تُبْقى فُضولَ الدنيا مُكاثَرةً ... حتى أُبِيحت كَرْها ذخائرها
تبِيع ما جَمَّع الأَبوة للـ ... ـأبناء لا أَرْبَحت مَتاجرها

يا هل رأيتَ الجِنان زاهرةً ... يروق عينَ البصير زاهرها
وهل رأيت القصورَ شارعة ... تُكِنّ مثل الدُّمَى مَقاصرها
وهل رأيتَ القُرى التي غَرَس الـ ... أملاكُ مُخْضرّةً دَساكرُها
محفوفةً بالكروم والنّخلِ والـ ... ـرّيْحان قد دَمِيت محاجرها[١٠١]
فإنها أصبَحت خلايا من الـ ... ـإنسان قد دَمِيت مَحاجرها[١١]
قَفْرًا خلاء تَعْوي الكلابُ بها ... يُنكر منها الرسومَ داثِرها
وأصبح البؤسُ ما يفارقها ... إلْفًا لها والسرورُ هاجرها
بزَنْد وَرْد والياسِرّية والـ ... ـشَّطّيْن حيث انتهت معابرها
وبالرحى والخَيْزُرانية الـ ... ـعُليا التي أشرفت قناطرها
وقَصْر عَبْدويه عِبرةٌ وهُدًى ... لكل نفس زكَت سرائرها
فأين حرّاسها وحارسُها ... وأين مَجبورها وجابرها
وأين خِصيانُها وحِشوتها ... وأين سكّانها وعامرها
أين الجَراديّة الصَّقالبُ والـ ... أحْبُش تعدو هُدْلا مَشافرها
يَنصدِع الجندُ عن مواكبها ... تعدو بها سُرّبًا ضوامرها
بالسّند والهند والصّقالب والـ ... ـنوبةِ شِيبت بها بَرابرها
طيرًا أبابيل أُرسلَت عبثا ... يقدُم سُودانَها أحامرها
أين الظباء الأبكار في روضة الـ ... ـمُلك تَهادى بها غَرائرها
أين غَضاراتها ولذّتها ... وأين مَحبورُها وحابرها
بالمسك والعنبر اليمانيّ والـ ... ـيلنجوج مشبوبَةٌ مجامِرها
يرفُلن في الخَزّ والمجاسد والـ ... ـمَوْشِيّ مخطومةً مَزامرها
فأين رقّاصها وزَامرها ... يُجبِن حيث انتهت حناجِرها
تكاد أسماعُهم تُسَلّ إذا ... عارض عيدانَها مَزاهرها
أمست كجوف الحمار خاليةً ... يسعَرها بالجحيم ساعرها
كأنما أصبحتْ بساحتهم ... عادٌ ومسّتهم صَراصرها
لا تعلم النفسُ ما يُبايتها ... من حادث الدهر أو يُباكِرها
تُضحي وتمسي دَرِيّةً غرَضا ... حيث استقرّت بها شَراشرها
لأسهم الدهر وهو يرشُقها ... مُخْنِطُها مرة وباقِرها

يـابـؤسَ بـغـداد دارِ مـمـلـكـةٍ ... دارت عـلـى أهـلـهـا دوائـرهـا
أمـهـلـهـا الـلـهُ ثـم عـاقـبَـهـا ... لـمـا أحـاطـتْ بـهـا كـبـائـرهـا
بالخسفِ والقذف والحريق وبالـ ... ـحرب التي أصبحت تُسَاورها
كم قد رأينا من المعاصي بها ... كـالـعـاهـر الـسـوء ...
حـلّـت بـبـغـداد وهـي آمِـنـة ... داهـيـةٌ لـم تـكـن تُـحـاذِرهـا
طـالَـعـهـا الـسـوءُ مـن مـطـالـعـه ... وأدركـت أهـلَـهـا جـرائـرهـا
رقّ بها الدين واستُخِفّ بذي الـ ... ـفضل وعزّ النُّسَّاك فاجِرها
وخَـطـم الـعـبـدُ أنـفَ سـيّـده ... بـالـرّغـم واسـتـعـبـدتْ مـخـادرها
وصـار ربّ الـجـيـران فـاسـقُـهـم ... وابـتـزّ أمـر الـدروب ذاعِـرهـا
مـن يـر بـغـدادَ والـجـنـودُ بـهـا ... قـد رَبَّـقـتْ حـولـهـا عـسـاكـرهـا
كلّ طَـحُـونٍ شـهـبـاء بـاسـلـةٍ ... تُـسـقِـط أحـبـالـهـا زَمـاجِـرهـا
تُـلـقـى بَـغـيّ الـردى أوانِـسَـهـا ... يُـرهـقـهـا لّـلـقـاء طـاهـرهـا
والـشـيـخُ يـعـدو حَـزْمـا كـتـائـبُـه ... يُـقـدِم أعـجـازَهـا يـعـاورهـا
ولـزُهَـيـرْ بـالـقـول مـأسَـدة ... مـرقـومـة صُـلـبـةٌ مـكـاسـرهـا
كـتـائـبُ الـمـوت تـحـت ألـويَـة ... أبـرَحَ مـنـصـورُهـا ونـاصـرهـا
يـعـلـم أن الأقـدارَ واقـعـةٌ ... وقـعـا عـلـى مـا أحَـبّ قـادرهـا
فـتـلـك بـغـدادُ مـا يَـبـن مـن الـ ... ـدَّلَـه فـي دُورهـا عـصـافـرهـا
مـحـفـوفـةً بـالـردى مـنـطَّـقـةً ... بـالـصُّـقْـر مـحـصـورةً جـبـابـرهـا
وبـيـن شَـطّ الـفُـرات مـنـه إلـى ... دِجـلـة حـيـث انـتـهـت مَـعـابـرهـا
كـهـادِي الـسُّـفـراء نـافِـرُه ... تـركُـض مـن حـولـهـا أشـاقِـرهـا
يُـحـرقـهـا ذا وذاك يَـهـدِمـهـا ... ويَـشـتـفـي بـالـنِّـهـاب شـاطـرهـا
والـكَـرْخُ أسـواقُـهـا مـعـطّـلـة ... يَـسـتَـنّ عَـيّـارهـا وعـائِـرهـا
أخرجتِ الحربُ من سواقِطِها ... آسَـاد غِـيـل غُـلْـبـا تُـسـاورهـا
من البَوارى تِرَاسُـهـا ومـن الـ ... ـخُـوص إذا استلأَمتْ مَغافرها
تغدو إلى الحربِ في جواشِنها الـ ... ـصّـوف إذا مـا عَـدَت أسـاوِرهـا
كـتـائِـب الـهِـرْش تـحـت رايـتـه ... سَـاعَـد طَـرّارَهـا مُـقـامـرهـا
لا الرّزق تبغي ولا العطاءَ ولا ... يـحـشُـرهـا لـلـقـاء حـاشـرهـا

فـي كـل دَرْب وكـل نـاحِـيـة ... خَـطّـارة يَـسـتـهِـلّ خـاطـرهـا
بمثل هام الرجال من فِلَق الـ ... ـصخر يَزود المقلاعَ بائرها
كـأنـمـا فـوق هـامـهـا عِـدَف ... من القطا الكُدْر هاج نافِرها
والقومُ من تحتها لهم زَجَل ... وهـي تَـرامَـى بـهـا خـواطـرهـا
بل هل رأيتَ السيوفَ مصْلتة ... أشهَرَها في الأسواق شاهرها
والـخـيـلَ تـسـتَـنّ فـي أزِقّـتـهـا ... بـالـتُـرك مـسـنـونـة خـنـاجـرهـا
والنَّفط والنار في طرائقها ... وهـابِـيًـا لـلـدخـان عـامـرهـا
والنّهب تعدو به الرجالُ وقد ... أبدت خلاخيلَها حَرائرها
مُعْصَوْصِبات وسط الأزِقّة قد ... أبـرزهـا لـلـعـيـون سـاتِـرهـا
كلٌّ رَقُود الضّحى مَخبَأةٌ ... لم تَبْدُ في أهلها محاجرها
بَيْضَة خِدْر مكنونة بَرَزتْ ... لـلـنـاس مـنـشـورةً غـدائـرهـا
تعثُر في ثوبها وتُعْجِلها ... كَبّةُ خيل زِيعَت حوافرها
تسأل أين الطّريق والهةً ... والنارُ من خلفها تبادرها
لم تَجْتَل الشمسُ حسنَ بهجتها ... حتى آجتلتها حَرْب تُباشرها
يا هْل رأيت الثكلى مُوَلوِلَةً ... في الطُّرق تسعى والجَهْد باهرها
في إثْر نعش عليه واحدها ... في صدره طعنة يُساوِرها
فرغاء تُلْقي النِّثَار من يدها[١٠٢] ... يَهزّها بالسّنان شاجرها
تنظُر في وجهه وتهتِف بالـ ... ـثّكل وعِزّ الدموع خامرها
غَرْغر بالنّفس ثم أسلَمَها ... مَطلولةً لا يُخاف ثائرها
وقد رأيتُ الفِتيان في عَرْصَة الـ ... ـمَعْرك معفورةً مَناخِرها
كلّ فتى منّاعٌ حقيقتَه ... تَشقَى به في الوغى مساعرها
باتت عليه الكلاب تنهشُه ... مخضوبةً من دم أظافرها
أما رأيتَ الخيولَ جائلةً ... بالقوم منكوبةً دوائرها
تعثُر بالأوجهِ الحسان من الـ ... ـقَتْلَى وغُلّتْ دمًا أشاعرها
يَطأْنَ أكبادَ فتيةٍ نُجُدٍ ... يَفْلِق هَاماتهم حوافرها
أما رأيتَ النّساء تحت المجا ... نيق تَعادَى شُعْثًا ضفائرها
عقائلَ القوم والعجائزَ والـ ... ـعُنّس لم تُختبر مَعاصرها

يحمِلن قوتا من الطّحين على الـ ـأكتاف معصوبةً مَعاجرها
وذات عيشٍ ضَنْك ومُقْعِسة تَشدَخُها صَخْرةٌ تُعاوِرها
تسأل عن أهلها وقد سُلِبت وابتُزّ عن رأسها غَفَائرها
ياليت ما والدهر ذو دُوَلٍ تُرجى وأخرى تُخشى بوادرها
هل ترجعن أرضُنا كما غَنِيَت وقد تناهَتْ بنا مَصايرها
مَنْ مُبلغٌ ذا الرياستِين رِسا لاتٍ تأتَّى للنّصح شاعِرها
بأن خير الوُلاة قد علم النـ ـاسُ إذا عُدّدتْ مآثرها
خليفةُ الله من بريّته الـ ـمأمون سائسُها وجابرها
سمَتْ إليه آمال أمته منقادةً بَرّها وفاجرها
شَامُوا حيا العدل من مَخايِله وأصْحَرت بالتّقى بصائِرها
وأَحْمَدوا منك سِيرةً جَلَتِ الـ ـشّك وأخرى صَحّت معاذرها
واستجمعتْ طاعة برفقك للـ ـمأمون نَجْدِيّها وغائرها
وأنت سَمْع في العالمين له ومقلَةٌ ما يَكِلّ ناظرها
فاشكر لذي العرش فضلَ نعمته أوجَبَ فضلَ المزيد شاكِرها
واحذر فِداء لك الرعيّةُ والـ أجنادُ مأمورُها وآمرها
لا تَرِدَنْ غَمرةً بنفسك لا يصدر عنها بالرأي صادِرَها
عليك ضَحْضاحَها فلا تَلِج الـ ـغَمْرَ مُلْتَجّةً زواخرها
والقصدَ إن الطريق ذو شُعَبٍ أشأمُها وَعْثُها وجَائرها
أصبحتَ في أمّة أوائلُها قد فارقت هَدْيَها أواخرها
وأنت سُرْسُورُها وسائسها فهل على الحقّ أنت قاسرها
أدِّبْ رجالا رأيتَ سِيرتهم خالف حكمَ الكتاب سائرها
وامدُد إلى الناس كف مرحمة تُسَدّ منهم بها مفَاقرها
أمكنك العدلُ إذ هممتَ به ووافقت مدَّه مقادرها
وأبصر الناسُ قصدَ وَجْههمُ ومَلَكت أمةً أخايرها
تُشْرَع أعناقنا إليك إذا السّـ ـادات يومًا جَمّت عشائرها
كم عندنا من نصيحةٍ لك في اللـ ـه وقُربى عزّت زوافرها
وحرمةٍ قرُبت أواصِرُها منك وأخرى هل أنتَ ذاكرها

سَعْيُ رجالٍ في العلم مطلبُهم ... رائحُها باكر وباكرها
دونك غراءَ كالوَذيلة لا ... تفقد في بلدة سوائرها
لا طَمَعًا قلتُها ولا بَطَرا ... لكل نفس نفسٌ تُؤَامرها
سيّرها الله بالنصيحة والـ ... ـخَشية فاستدمجتْ مرائرها
جاءتك تحكي لك الأمور كما ... ينشُر بَزّ التِّجار ناشرها
حمّلتُها صاحِبا أخا ثِقَةٍ ... يظل عُجْبًا بها يُحاضِرها

ومن جيد شعره قوله:

الناسُ أخلاقُهم شتّى وإن جُبِلوا ... على تَشَابُه أرواحٍ وأجساد
للخير والشرّ أهلٌ وُكّلوا بهما ... كلٌّ له من دواعي نفسه هاد
منهم خليلُ صَفاء ذو محافظةٍ ... أرسى الوفاءُ أواخِيه بأوتاد
ومُشْعَر الغدر مَحنيٌّ أضالعُه ... على سريرة غَمْر غِلّها باد
مُشَاكِسٌ خَدِع جَمّ غوائلُه ... يُبدي الصفاءَ ويخفي ضَربة الهادي
يأتيك بالبغى في أهل الصفاء ولا ... ينفَكّ يسعى بإصلاحٍ لإفساد

ومن جيد شعر الخريمي قوله:

أُضاحِك ضيفي قبل إنزال رَحْله ... ويُخصب عندي والمحل جَديب
وما الخِصب للأضياف أن يكثُر القِرى ... ولكنما وجه الكريم خَصِيب

ومن جيد شعره قوله:

زاد معروفَك عندي عِظَما ... أنّه عندك مَحقورٌ صغير
وتناسيه كأن لم تأتِه ... وهو عند الناس مشهور كبير

وهو القائل:

وإن أَشَدّ الناس في الحَشْر حَسْرَةً ... لَمُورِثُ مالٍ غيرَه وهو كاسِبه
كفى سَفَهًا بالكهلِ أن يتبَعَ الصِّبا ... وأن يأتيَ الأمرَ الذي هو عائبه

ويستجاد له قوله:

ودون النّدى في كل قلب ثَنّية ... لها مَصْعَدٌ وعر ومُنْحَدر سَهْل
وَوَدّ الفتى في كل نيل يُنيله ... إذا ما انقضى لو أن نائلَه جَزْل
وأعلم عِلما ليس بالظنّ أنه ... لكل أناس من ضَرائبهم شَكْل
وأنّ أَخِلاءَ الزمان غَناؤهم ... قليل إذا الإنسانُ زَلّت به النّعل
تزوَّدْ من الدنيا متاعًا لغيرها ... فقد شَمّرتْ حَذّاء وانصرم الحبل
وهل أنتَ إلا هامَةُ اليومِ أو غَدِ ... لكل أناس من طوارقها الثّكل

وفي هذا الشعر يقول:

أبا لصُّغْد بأسٌ إذ تعيّرني جُمْلُ ... سَفاهًا ومن أخلاق جَارَتِيَ الجهل
فإن تفخري يا جمل أو تتجمّلي ... فلا فخرَ إلا فوقه الدّين والعقل
أرى الناس شَرْعا في الحياة ولا يُرى ... لقبر على قبر عَلاء ولا فَضْل
وما ضَرّني أن لم تَلِدْني يُحابِر ... ولم تَشتمل جَرْمٌ عليّ ولا عُكْل

وهو القائل:

ما أحسنَ الغَيْرةَ في حينِها ... وأقبحَ الغيرة في كل حِين
من لم يزل متَّهِما عِرْسَه ... مُنَاصِبا فيها لريْب الظنون
أوشك أن يُغْرِيَها بالذي ... يَخاف أن يُبرزها للعيون
حسبك من تحصينها وَضْعُها ... منك إلى عِرضٍ صحيح ودين
لا تطَّلع منك على رِيبةٍ ... فيتبع المقرونُ حبل القرين

(٨) عبد الله بن طاهر[٢]

[١٠٣]كان بمحل من علو المنزلة وعظم القدر ولطف مكان من الخلفاء، يستغنى به عن التقريظ له والدلالة عليه، وأمره في ذلك مشهور عند الخاصة والعامة، وله في الأدب مع ذلك المحل الذي لا يدفع، وفي السماحة والشجاعة ما لا يقاربه فيه أحد.

وكان أديبًا ظريفًا جيد الغناء، نسب إليه صاحب الأغاني أصواتًا كثيرة أحسن فيها ونقلها أهل الصنعة عنه، وله شعر رائع ورسائل ظريفة، فمن شعره قوله:

نحن قومٌ تُلِينُنا الحَدَقُ النُّجْـ ـلُ على أنّنا نُلين الحديدا
طَوْعُ أيدي الظِّباء تقتادنا العِيـ ـن ونقتاد بالطِّعان الأُسودا
نَمْلِك الصِّيد ثم تملكنا البِيـ ـضُ المصوناتُ أَعْيُنًا وخدودا
تَتَّقي سخطنا الأسود ونخشى سَخَط الخِشْف حين يُبدى الصدودا
فترانا يوم الكريهة أحرا را وفي السّلمِ للغواني عبيدا

أعطاه المأمون مال مصر لسنة، خراجها وضياعها، فوهبه كله وفرقه في الناس ورجع صفرا من ذلك، فغاظ المأمون فعله، فدخل إليه يوم مقدمه، فأنشده أبياتًا قالها في هذا المعنى، وهي:

نَفْسي فِداؤُكَ والأعناقُ خاضعةٌ للنائبات أبيّا غيرَ مُهْتَضَم
إليك أقبلتُ من أرضٍ أقمتُ بها حَوْلَين بعدَك في شَوْقٍ وفي أَلَم
أَقْفُو مساعيَك اللائي خُصِصتَ بها حَذْوَ الشِّراك على مِثْلٍ من الأَدَم
فكان فَضْلِيَ فيها أَنّني تَبَعٌ لِمَا سَنَنْتَ من الإنعام والنّعم
ولو وُكِلْتُ إلى نفسي عَنِيت بها لكن بدأتَ فلم أعجزْ ولم أُلَم

فضحك المأمون وقال: والله ما نفست عليك مكرمة نلتها، ولا أحدوثة حسن عندك ذكرها، ولكن هذا شيء إذا عودته نفسك افتقرت، ولم تقدر على لم شعثك وإصلاح حالك. وزال ما كان في نفسه.

لما فتح عبد الله مصر سوغه المأمون خراجها، فصعد المنبر فلم يزل حتى أجاز بها كلها ثلاثة آلاف ألف دينار أو نحوها، فأتاه معلى الطائي وقد أعلموه ما صنع بالناس في الجوائز وكان عليه واجدًا، فوقف بين يديه تحت المنبر فقال: أصلح الله الأمير، أنا معلى الطائي وقد بلغ مني ما كان منك من جفاء وغلظ، فلا يغلظن عليّ قلبك، ولا يستخفنك الذي بلغك، أنا الذي أقول:

يا أعظمَ الناسِ عفوًا عند مَقْدِرَةٍ وأظلَم الناسِ عندَ الجود للمال

لو أصبحَ النيلُ يَجْري ماؤه ذهبًا لَمَا أشرتَ إلى خَزْنٍ بمِثقال
تُغْلي بما فيه رِقّ الحمد تملكه وليس شيءٌ أعاضَ الحمدَ بالغالي
تَفُك باليُسْر كَفَّ العُسْر من زَمَنٍ إذا استطالَ على قَوْمٍ بإقلال
لم تخلُ كفُّك من جُودٍ لمُخْتَبِطٍ ومُرْهَفٍ قاتلٍ في رأسِ قَتّال
وما بَثَثْتَ رَعِيلَ الخيل في بَلَدٍ إلا عَصَفْنَ بأرزاقٍ وآجال
إن كنتُ منْك على بالٍ مَنَنْتَ به فإن شكرَك من قلبي على بال
ما زلتُ مُقْتَضَبًا لولا مجاهرةٌ من ألسُنٍ خُضْنَ في صَدْري بأقوال

فضحك عبد الله وسر بما كان منه وقال: يا أبا السمراء، أقرضني عشرة آلاف دينار فما أمسيت أملكها، فأقرضه فدفعها إليه.

كان موسى بن خاقان مع عبد الله بن طاهر بمصر، وكان نديمه وجليسه، وكان له مؤثرًا مقدمًا، فأصاب منه معروفًا كثيرًا وأجازه بجوائز سنية هناك وقبل ذلك، ثم إنه وجد عليه في بعض الأمر فجفاه وظهر له منه بعض ما لم يحبه، فرجع حينئذ إلى بغداد وقال:

إنْ كان عبدُ الله خلّانا لا مُبْدئا عُرْفا وإحسانا
فَحَسْبُنا اللهُ رَضِينا به ثم بعبد الله مَولانا

يعني به المأمون، وغنت فيه جاريته وسمعه المأمون، فاستحسنه ووصله وإياها، فبلغ ذلك عبد الله بن طاهر، فغاظه ذلك وقال: أجل! صنعنا المعروف إلى غير أهله فضاع.

ولعبد الله ألحان صاغها، فمنها ومن مختارها وصدورها ومقدمها لحنه في شعر أخت عاصية فإنه صوت نادر جيد صحيح العمل مزدوج النغم، بين لين وشدة على رسم الحذاق من القدماء، وهو:

هلّا سَقَيتُمْ بني سَهْم أَسِيرَكُمُ نَفْسي فداؤك من ذي غُلَّة صادى
الطاعنُ الطعنةَ النجلاءَ يتبعها مُضَرَّجٌ بعد ما جادتْ بإزْبَاد

ومن غنائه أيضًا:

راحَ صَحْبي وعاودَ القلبَ داءُ ... من حبيب طِلَابُه لي عَنَاءُ
حَسَنُ الرأي والمواعيد لا يُلْـ ... ـفى لشيء مما يقول وفاءُ
مَنْ تَعَزَّى عمن يحب فإني ... ليس لي ما حييتُ عنه عَزَاءُ

(٩) ما قيل في هجاء الأمين ورثائه

قيل في هجائه:

لم نُبَكِّيك لماذا للطّرَبْ ... يا أبا موسى وتَرْوِيح اللَّعبْ
ولِتَرْك الخَمْس في أوقاتها ... حَرَصًا منها على ماء العنب
وَشَنِيفٍ أنا لا أبكي له ... وعلى كَوْثَر لا أخشى العَطَب
لم تكن تعرف ما حدّ الرضا ... لا ولا تعرف ما حَدّ الغضب
لم تكن تَصلُح للملك ولم ... تُعْطِك الطاعةَ بالملك العرب
أيها الباكي عليه لا بَكَتْ ... عين من أبكاك إلّا للعَجَب
لم نبكّيك لِما عَرّضتنا ... للمَجَانيق وطَوْرا للسَّلَب
ولقومٍ صيّرونا أعْبُدًا ... لهم يبدو على الرأس الذّنَب
في عذابٍ وحِصارٍ مُجْهِدٍ ... سَدّد الطُّرقَ فلا وَجْهَ طلب
زعموا أنك حيٌّ حاشر ... كلّ من قَدْ قال هذا قد كَذَب
ليت من قد قاله في وَحْدَة ... من جميع ذاهبٍ حيث ذهب
أوجب اللهُ علينا قتلَه ... فإذا ما أوجب الأمرَ وجَب
كان والله علينا فِتنةً ... غَضِبَ الله عليه وكَتَب

وقال عبد الرحمن بن أبي الهداهد يرثيه:

يا غَرْبُ جُودي قد بُتّ من وذَمِه ... فقد فقدنا الغَزير من دِيَمِه
ألوت بدنياك كفٌّ نائبة ... وصِرتَ مُغْضًى لنا على نِقَمه

أصبح للموت عندنا عَلَم ... يضحك سِنّ المنون من عَلَمه
ما استنزلَتْ دَرّةُ المنون على ... أكرم من حَلّ في ثرى رَحِمه
خليفةُ الله في بريّته ... تقصُر أيدي الملوك عن شِيمَه
يفتَرّ عن وجهه سَنا قَمَر ... يَنشَقّ عن نوره دُجَى ظُلَمه
زُلزلت الأرضُ من جوانبها ... إذ أُولغَ السيفُ من نجيع دَمه
مَنْ سكتت نفسُه لِمَصْرعةٍ ... من عُمُمِ الناس أو ذَوي رَحِمه
رأيتُه مثلَ ما رآه به ... حتى تذوّق الأمرَّ من سَقَمه
كم قد رأينا عزيزَ مملكةٍ ... يُنقَل عن أهله وعن خَدَمه
يا مَلِكا ليس بعده مَلِك ... لخاتم الأنبياء في أُمَمه
جادَ وحَيّ الذي أقمتَ به ... سَحّ غزير الوكيف من دِيمه
لو أحجم الموتُ عن أخي ثِقَةٍ ... أُسْوِيَ في العزّ مُسْتَوى قَدَمِه
أو ملكٍ لا ترام سطوتُه ... إلا مَرامَ الشَّتيم في أجَمِه
خَلّدك العزّ ما سَرَى سَدَف ... أو قام طِفل العشيّ في قَدَمِه
أصبح مُلكٌ إذا اتّزرتَ به ... يَقْرع سنَّ الشُّقَاةِ من نَدَمِه
أَثَّر ذُو العرشِ في عِداك كما ... أثّر في عاده وفي إرَمِه
لا يُبعد الله صَيّورةً تَلِيت ... لخيرِ داعٍ دعاه في حَرَمه
ما كنتُ إلا كحُلم ذي حُلُم ... أُولِجَ بابَ السرور في حُلُمه
حتى إذا أطلقتْه رَقْدتُه ... عاد إلى ما اعتراه من عَدَمِه

وقال أيضًا يرثيه:

أقول وقد دنوت من الفِرار ... سُقِيت الغيثَ يا قصر القَرارِ
رمتك يدُ الزمان بسهم عَيْن ... فصِرتَ مُلَوَّحا بدُخان نار
أبِن لي عن جميعك أين حَلّوا ... وأين مزارهم بعد المَزار
وأين محمدٌ وابناه مالي ... أرى أطلالهم سُود الدِّيار
كأن لم يُؤْنَسوا بأنيسِ مُلك ... يطول على الملوك بخير جار
إمامٌ كان في الحَدَثان عونا ... لنا والغيثُ يمنحُ بالقِطَار
لقد ترك الزمانُ بَني أبيه ... وقد غمرتهم سُود البِحار

أضاعوا شمسهم فَجَرتْ بنحسٍ فصاروا في الظّلام بلا نَهار
وأجلَوْا عنهم قمرا منيرا ودَاسَتْهُمْ خيولُ بني الشِّرار
ولو كانوا لهم كفؤا ومِثلا إذا ما تُوّجوا تيجانَ عَار
ألا بَان الأمامُ وَوَارِثاه لقد ضَرِم الحشى منّا بنار
وقالوا الخُلْد بِيع فقلتُ ذُلًّا يصير ببائِعيه إلى صَغَار
كذاك الملك يُتبِع أَوَّلِيه إذا قُطِع القَرار من القَ رار

وقال مقدس بن صيفى يرثيه:

خليلي ما أتَتْك به الخطوبُ فقد أعطاك طاعتَه النَّحيب
تدلّت من شماريخ المنايا مَنَايا ما تقوم لها القلوبُ
خِلالَ مقابِر البستان قبر يُجَاور قبرهَ أَسَدٌ غريب
لقد عَظُمت مُصيبته على من له في كل مَكرُمة نصيب
على أمثاله العَبَراتُ تُذْرى وتُهْتَك في مآتِمه الجُيوب
وما ادّخَرتْ زُبيدة عنه دمعا تُخَصّ به النسيبةُ والنّسيب
دعُوا موسى ابنه لبُكاء دَهرٍ على موسى ابنه دخَل الحَزِيب
رأيتُ مَشَاهدَ الخلفاء منه خَلاءً ما بساحتها مُجِيب
ليَهْنِك أنني كهلٌ عليه أذوبُ وفي الحشى كَبِد تَذوب
أُصِيبَ به البعيد فَخَرّ حزنا وعاين يومهَ فيه المُريب
أُنادي من بطون الأرض شخصًا يحرّكه النِّداء فما يُجيب
لئن نَعَتِ الحروبُ إليه نفسًا لقد فُجِعت بمصرعه الحروب

وقال خزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر:

لخير أمامٍ قام من خير عُنْصُر وأفضلِ سامٍ فوق أعواد مِنبر
لِوارثِ علم الأولين وفهمهم وللمَلك المأمونِ من أم جَعْفر
كتبتُ وعيني مُسْتهِلٌ دموعُها إليك ابن عمي من جفوني ومَحْجَري
وقد مَسّني ضُرٌ وذلٌّ كآبةٍ وأرَّقَ عيني يا ابن عمي تفكّري

وهِمتُ لما لاقيتُ بعد مصابه ... فأمري عظيم مُنْكِرٌ جدّ مُنْكَر
سأشكو الذي لاقيتُه بعد فقده ... إليك شَكَاة المستهام المُقَهَّر
وأرجو لما قد مَرّ بي مذ فقدتُه ... فأنت لبَثّي خير رَبّ مُغَيِّر
أتى طاهِر لا طهّر اللهُ طاهرًا ... فما طاهر فيما أتَى بمُطَهّر
فأخرجني مكشوفةَ الوجه حاسِرًا ... وأنْهَبَ أموالي وأحْرَق آدُرِي
يَعِزّ على هارون ما قد لقِيتُه ... وما مَرّ بي من ناقص الخَلْق أعور
فإن كان ما أسدى بأمر أمرتَه ... صبَرتُ لأمرٍ من قدير مُقَدِّر
تذكّر أميرَ المؤمنين قرابتي ... فديتُك من ذي حرمة مُتَذَكِّر

وقال أيضًا يرثيه:

سبحان ربّك ربّ العِزّة الصَّمَد ... ماذا أُصِبْنا به في صُبْحة الأَحَد
وما أُصيب به الإسلامُ قاطبةً ... من التَّضَعضُع في رُكْنَيه والأَوَد
مَنْ لم يُصَب بأمير المؤمنين ولم ... يُصبح بِمَهْلَكة والهمُّ في صُعُد
فقد أصِبتُ به حتى تبيّن في ... عقلي وديني ودنياي وفي جسدي
يا ليلةً يَشتكي الإسلامُ مُدّتَها ... والعالَمون جميعا آخِرَ الأَبَد
غَدرتِ بالمَلك الميمونِ طائرُه ... وبالإمام والضّرغامة الأسَد
سارتْ إليه المنايا وهي تُرهِبُه ... فواجَهَتْه بأوغادٍ ذوي عَدَد
بشُورَجِينَ وأغْتَامٍ يقودهم ... قُرَيشُ بالبِيض في قُمْصٍ من الزَّرَد
فصادفوه وحِيدًا لا مُعِين له ... عليهُم غائبَ الأنصار بالمَدَد
فجرّعوه المنايا غيرَ مُمْتَنِع ... فَرْدا فيالك من مُسْتسلِم فَردَ
يَلقى الوجوهَ بوجه غير مُبْتَذَل ... أبْهى وأنْقى من القُوهِيّة الجُدُد
واحَسْرَتا وقريشٌ قد أحاط به ... والسيفُ مُرْتَعِد في كَفّ مُرْتَعِد
فما تحرّك بل ما زال منتصِبًا ... منكَّسَ الرأس لم يُبدِئْ ولم يُعد
حتى إذا السيفُ وافى وسْطَ مَفْرِقه ... أذْرَتْه عنه يداه فعلَ مُتَّئِد
وقام فاعتلقتْ كفّاه لَبّته ... كضيغَمٍ شَرس مستبسلٍ لَبِد
فاجترّه ثم أهوى فاستقلّ به ... للأرض من كَفّ ليث مُحْرَج حَرِد
فكاد يقتله لو لم يُكاثِره ... وقام منفَلِتا منه ولم يَكد

هذا حديثُ أمير المؤمنين وما نَقَصتُ من أمره حرفا ولم أَزِد
لا زلت أَنْدُبه حتى الممات وإنْ أخنى عليه الذي أَخْنَى على لُبَد

وذكر عمر بن شبة أن محمد بن أحمد الهاشمي حدثه أن لبابة ابنة علي بن المهدي قالت البيتين الآتيين وقيل أنهما لابنة عيسى بن جعفر وكانت مملكة بمحمد:

أبكيك لا للنّعيم والأُنْس بل للمعالي والرّمح والتُّرْس
أبكى على هالكٍ فُجعتُ به أَرْمَلَني قبل ليلة العُرس

(١٠) هجاء يحيى[١٠٤] بن أكثم

وعدناك في المجلد الأول أن نذكر مثلا من الهجاء قاله بعض الشعراء في يحيى بن أكثم، وها هو ذا:

أرّقَه بَرْحُ الهوى وسَدِمُهْ ومَلّه الحبُّ فبات يألَمُهْ
طورا يُعَانيه وطورا يَشْتُمُه مثل الحريقِ في الحشا يُضَرِّمُه
ففاضتِ العينُ بدمع تَسجُمُه نمّت عليه كلّ شوقٍ يكتُمُه
وباح بالحب الذي يُجَمجِمُه وبات والقلبُ يُسامي هِمَمُه
من لمحبٍ قد تراه يرحمُه أصبح بالبأساء عارٍ أَنْغُمُه
طال تَصابِيه وطال سَقَمه وبَلِيَ الجسم ورَقّت أعظُمُه
يَشهدني الله على من يَظلِمُه يمنعه طعمَ الكرى ويحرِمُه
واهًا له يصرِم من لا يصرِمُه أصبح هذا الدين رَثًّا رِمَمُه
عطّله الجَور وطال قِدَمُه سَحّت من الجوْر عليه دِيَمه
فَبَادَ مغنى رَبْعه وأرسُمُه إلا بقايا قومِه وجُمّمُه
أوطَنَه الجور فأضحى مَعْلَمُه يَرود فيه شَاؤه ونَعَمُه
من يَشْهَد الجور فنحن نَعْلمُه أنْوَك قاضٍ في البلاد نعلمُه
يقول حقا لا تُعَيّث ترحمُه مذ وَلِيَ الحكمَ أُبِيح حَرَمُه
وانتُهِكتْ من القضاء حُرَمُه واضطربت أركانُه ودِعَمُه

والله يَبْنِيه ونحن نهدِمُه يا ليت يحيى لم يَلِده أكْثَمُه
ولم تَطأْ أرضَ العراق قَدَمُه ملعونةٌ أخلاقه وشيمُه[١٠٥]
واللهِ واللهِ لقد حَلّ دَمُه لو أن للدِّين عِمادًا يدعَمُه
يعدِل عنه الميلَ أو يقوِّمُه لكان قد رنّ عليه مأتمُه
أرجو ويقضي اللهُ لا يُسَلِّمه من وجهه هذا ولكن يقَصِمُه
بالسيف إذ حلت عليه نقمه

(١١) وصف ثورة بغداد وحريقها

أما ما أصاب بغداد من سلب ونهب وتحريق وتخريب وفتنة شعواء وقتل ودماء، فانا نترك الكلمة في ذلك لشعراء ذلك العصر.

قال الأعمى يصف دمار الحرب:

تقطّعتِ الأرحامُ بين العشائر وأسْلَمهم أهلُ التّقى والبصائر
فذاك انتقامُ الله من خَلْقه بهم لما اجتَرَموه من ركوبِ الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبَةً ولا نحن أصلحنا فسادَ السرائر
ولم نستمع من واعظٍ ومذَكِّر فَينجَعَ فينا وعْظُ ناهٍ وآمِر
فابكِ على الإسلام لما تقطّعت عراه ورجّى ضرَّه كلّ كافر
فأصبح بعض الناس يقتل بعضهم فمن بين مقهورٍ عزيزٍ وقاهر
وصار رئيسُ القوم يحمَل نفسه وصار رئيسًا فيهم كلُّ شاطر
فلا فاجر للبَرّ يحفظ حرمة ولا يستطيع البَرّ دَفْعًا لفاجرِ
تراهم كأمثال الذئابِ رأتْ دمًا فأمَّتْه لا تَلْوى على زَجْر زاجر
وأصبح فُسّاقُ القبائل بينهم تسلّ على أقرانها بالخناجر
فابك لِقتلي من صديقٍ ومن أخ كريم ومن جار شفيقٍ مُجَاور
ووالدةٍ تبكي بحزنٍ على ابنها فيبكي لها من رحمةٍ كلُّ ظائر
وذاتِ حليلٍ أصبحت وهي أيِّمٌ وتبكي عليه بالدموع البوادر
تقول له قد كنتَ عِزّا وناصرا فَغُيِّب عني اليوم عزّي وناصري

وابـك لإحـراقٍ وهـدمِ مـنـازل ... وقتلٍ وإنهاب اللهى والذخائر
وإبراز ربّات الخدور حواسِرا ... خرجن بلا خُمْرٍ ولا بمآزِر
تَراها حَيَارى ليس تعرف مَذْهَبًا ... نوافرَ أمثالَ الظباء النوافر
كأن لم تكن بغدادُ أحسنَ مَنْظَرًا ... ومَلْهًى رأته عينُ لَاهٍ وناظر
بل هكذا كانت فأَذْهَب حسنَها ... وبدّد منها الشّمْلَ حكُم المَقادر
وحلّ بهم ما حلّ بالناس قبلهم ... فأضحَوْا أحاديثا لبَادٍ وحاضِر
أبغدادُ يا دارَ الملوك ومُحْتَمَى ... صروف المنايا مستقرّ المنابر
ويا جَنّةَ الدنيا ومطَّلَبَ الغنى ... ومستنبطَ الأموال عند الضرائر
أبيني لنا أين الذين عَهِدتُهم ... يحلّون في روضٍ من العيش زاهر
وأين ملوك في المواكب تَغْتَدي ... تُشَبَّه حسنا بالنجوم الزواهر
وأين القضاة الحاكمون برأيهم ... لِوِرْد أمور مشكلاتِ الأوامر
أو القائلون الناطقون بحكمة ... وَرْصفِ كلامٍ من خطيبٍ وشاعر
وأين مراح[١٠٦] للملوك عهِدتُها ... مزخرفةً فيها صنوفُ الجواهر
تُرَشّ بماء المسك والورد أرضُها ... يَفُوحُ بها من بعد رِيح المَجامر
ورَوْح النَّدامى فيه كلّ عَشِيّة ... إلى كل فَيّاض كريم العناصر
وأين قِيان تستجيب لنغمها ... إذا هو لبّاها حَنينُ المزامر
وأين الملوك الغُرُّ من آل هاشم ... وأشياعهم فيها اكتفوا بالمعاذر
يروحون في سلطانهم وكأنهم ... يروحون في سلطان بعضِ العشائر
يجادل عما نالهم كبراؤهم ... فَنَالتهمو بالكُرْه أيدي الأصاغر
فأَقسم لو أن الملوك تناصَروا ... لَزَلّتْ لها خوفًا رِقابُ الجبابر

وقال عمرو بن عبد الملك الوراق يبكي بغداد ويهجو طاهرًا ويعرض به:

من ذا أصابكِ يا بغدادُ بالعيْنِ ... ألم تكوني زمانا قُرّة العينْ
ألم يكن فيكِ أقوامٌ لهم شرف ... بالصَّالحات وبالمعروف يَلْقَوْني
ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنُهم ... وكان قرْبُهُم زينا من الزّيْن
صاح الزمانُ بهم بالبيْن فانقرضوا ... ماذا الذي فجَعَتْني لوعة البيْن
استوِعُ اللهَ قومًا ما ذكرتُهمو ... ألّا تحدّر ماءُ العين من عيني

كانوا ففرَّقَهم دَهرٌ وصدّعهم ... والدّهر يَصْدَع ما بين الفريقيْن
كم كان لي مُسْعِد منهم على زَمَني ... كم كان منهم على المعروف من عَوْن
لله دَرُّ زمان كان يجمعنا ... أَيْن الزمانُ الذي ولّى ومن أينْ
يا من يُخَرّب بغدادًا ليعمرُها ... أهلكتَ نفسك ما بين الطريقيْن
كانت قلوبُ جميع الناسِ واحدةً ... عينا وليس يكون العيْن كالدّيْن
لما استبيتهمُ فَرَّقْتِهم فرقًا ... والناس طُرًّا جميعًا بين قلبينْ

ولبعض فتيان بغداد:

بكيتُ دَمًا على بغداد لما ... فقدتُ غَضارةَ العيش الأنِيق
تَبَدّلْنا همومًا من سرور ... ومن سَعَةٍ تبدلْنا بضِيق
أصابتها من الحُسّاد عينٌ ... فأفنت أهلَها بالمَنْجَنِيق
فقومٌ أُحْرِقوا بالنار قَسْرًا ... ونائحةٌ تنوح على غَرِيق
وصائحةٌ تُنَادي وَا صَباحا ... وباكِيةٌ لِفقْدان الشَّفيق
وحوراءُ المدامع ذاتُ دَلّ ... مضمّخَة المجَاسد بالخَلُوق
تَفِرّ من الحريق إلى انتهاب ... ووالدُها يفرّ إلى الحريق
وسَالِبةُ الغزالة مُقْلَتيهْا ... مَضاحِكها كَلَألأة البُروق
حَيَارَى كالهَدايا مُبْكِرات ... عليهن القلائِدُ في الحُلوق
يُنادِين الشفيقَ ولا شفيقٌ ... وقد فُقِد الشفيقُ من الشفيق
وقومٌ أُخرِجوا من ظِلّ دُنيَا ... متاعُهمُ يُباع بكل سُوق
ومُغْتَرِبٌ قريبُ الدار مُلْقًى ... بلا رأسٍ بقارعةِ الطريق
توسّط من قِتالهمُ جميعًا ... فما يدرون من أي الفَريق
فلا ولد يُقِيم على أبيه ... وقد هَرَب الصّديق من صديق
ومهما أَنْسَ من شيء تولّى ... فإني ذاكر دار الرّقيق

هوامش

(١) هو أبو علي الحسن بن هانئ، الشاعر المتفنن، الجاد الماجن، صاحب الصيت الطائر، والشعر السائر، ورأس المحدثين بعد بشار. وهو فارسي الأصل. ولد بقرية من كورة خوزستان سنة ١٤٥هـ ونشأ يتيمًا فقدمت به أمه البصرة بعد سنتين من مولده، فتعلم العربية ورغب في الأدب، فلم تعبأ أمه بحاله وأسلمته إلى عطار بالبصرة، فمكث عنده لا يفتر عن معاناة الشعر والاختلاف إلى الأدباء والمجان، إلى أن صادفه عند العطار والبة بن الحباب الشاعر الماجن الكوفي في إحدى قدماته إلى البصرة، فأعجب كل منهما بالآخر، فأخرجه والبة معه إلى الكوفة، فبقى معه ومع ندمائه من خلعاء الكوفة وتخرج عليهم في الشعر وفاقهم جميعا. وقدم بغداد وقد أربت سنة على الثلاثين، فاتصل ببعض الأمراء ومدحهم، وبلغ خبره الرشيد فأذن له في مدحه، فمدحه بقصائد طنانة وحبسه مرة على هجوه مضر.

وكان يقصد بعض عمال الولايات ويمدحهم ومنهم الخصيب عامل مصر، ثم انقطع إلى مدح محمد الأمين، وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه، ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد.

وكان أبو نواس جميل الصورة، فكه المحضر، كثير الدعابة، حاضر البديهة، متينًا في اللغة والشعر والأدب، متعصبًا لليمانية على المضرية. وأجمع أكثر علماء الشعر ونقدته وفحول الشعراء على أن أبا نواس أشعر المحدثين بعد بشار وأكثرهم تفننا وأرصنهم قولا وأبدعهم خيالا مع دقة لفظ وبديع معنى، وأنه شاعر مطبوع برز في كل فن من فنون الشعر.

وامتاز عن كل الشعراء بقصائده الخمريات ومقطعاته المجونيات، وكان شعره لقاح الفساد والقدوة السيئة، لنقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى المذكر والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم إذ لم يكن ذلك معروفًا قبله وقبل شيطانه والبه. وزاد على ذلك انفراده بالإبداع في وصف الخمر، فكان نموذج سوء لمن تأخر، فافتتن بشعره الشبان في زمانه وبعده وحاكوه وغلب عليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يعد ظريفا إلا إذا مزج شعره بشيء من ذلك وإن لم يقع في محظوراته.

ووصفه عبد الله الجماز فقال: كان أظرف الناس منطقًا، وأعزرهم أدبًا، وأقدرهم على الكلام، وأسرعهم جوابًا، وأكثرهم حياء، وكان أبيض اللون، جميل الوجه، مليح النغمة والإشارة، ملتف الأعضاء بين الطويل والقصير، مسنون الوجه، قائم الأنف، حسن

العينين والمضحك، حلو الصورة، لطيف الكف والأطراف، وكان فصيح اللسان، جيد البيان، عذب الألفاظ، حلو الشمائل، كثير النوادر، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب، راوية للأشعار، علامة بالأخبار، كأن كلامه شعر موزون. توفي سنة ١٩٩هـ. وتجد ترجمته وأخباره وأشعاره في كتاب خاص باسم «أخبار أبي نواس» لابن منظور طبع مصر سنة ١٩٢٤ والأغاني (ج ١٨ ص ٢) و(ج ٦ ص ١١٠، ١٧٠، ١٨٦) و(ج ١٦ ص ١٤٨) وابن خلكان (ج ١ ص ١٣٥) وطبقات الأدباء (ص ٩٦) والشعر والشعراء (ص ٥٠١) والفهرست (ص ١٦٠) والعقد الفريد (ج ٣ ص ٣٣٧).

(٢) المكمهة: الغراس الكثيرة. والسحق: الطويلة، يريد النخل. والجرين هنا: موضع تجفيف التمر.

(٣) المحش: قشر الجلد عن اللحم.

(٤) وائلا: ناجيا. ووألت: لجأت. والشغواء: العقاب. والشعف: رءوس الجبال.

(٥) اللجف: الغار في الجبل. ومزغب: صار ذا زغب، والزغب صغار الريش. والألغاد جمع لغد بالضم وهو لحمة في الحلق.

(٦) الطباق والنزع: نوعان من الشجر.

(٧) القليذم: البئر الغزيرة. والعياليم: جمع علم وهو البئر الكثيرة الماء. والخسف جمع خسيفة وهي البئر التي حفرت في حجارة فنبع منها ماء غزير لا ينقطع.

(٨) الجؤشوش: الصدر. والضرم: فرخ العقاب.

(٩) الشبوب: الشاب من الثيران والغنم. والنثرة: منزلة من منازل القمر.

(١٠) الوصيد: بيت كالحظيرة يتخذ من الحجارة للمال أي الغنم وغيرها في الجبال. والإياد: التراب يجعل حول الحوض أو الخباء يقوى به أو يمنع ماء المطر. والهدف: كل مرتفع من بناء أو كثيب رمل أو جبل.

(١١) ينهفت: يتساقط وينخفض. والقطقط: المطر الصغير أو المتتابع العظيم القطر وقيل هو دون الرذاذ وقيل البرد أو صغاره.

(١٢) سناه تسنية: سهله وفتحه.

(١٣) طماس بالكسر: دارس. والأسحم: السحاب. والارتجاس: الرعد.

(١٤) المعنقة: حبل في الرمل.

(١٥) الاغبساس: بياض فيه كدرة. والسفع: يريد بها الأثافي.

(١٦) الهُلَاس: الضمور وهاب: لونه لون الهباء.

(١٧) بلدة بالشام تنسب إليها الخمر.

(١٨) جمع قوس.

(١٩) يعني أن الخمر مصبوب فيها إلى حلوق الصور صرفا. وقوله: وللماء، يعنى أنهم صبوا الماء في مزجها حتى علا رءوسها.

(٢٠) جمع باشقي وهو اسم طائر، أعجمي معرب.

(٢١) المرت: الأرض لا نبات فيها، واقتفر الأثر: اقتفاه وتبعه.

(٢٢) الجزر (بفتحتين): ما يذبح من الشاة ذكرا كان أو أنثى. واحدته: جزرة. وما اشتكر: لم يثبت له الشكر وهو الضعيف من الشعر الذي لا يكاد يظهر.

(٢٣) عسفها: سلكها متخبطًا، والغرر: الخطر.

(٢٤) السدر: النحير.

(٢٥) الضمر (بالضم وبضمتين): الهزال. والضفر: جمع ضفار (بالفتح) وهو ما يشد به البعير من شعر مضفور.

(٢٦) الجأب: الحمار الغليظ من حمر الوحش.

(٢٧) الأثباج جمع ثبج وهو وسط الشيء، والقصر جمع قصرة وهي أصل العنق.

(٢٨) جفر: امتنع عن الضراب.

(٢٩) السفى: كل شجر له شوك، ونش: نضب، والنقر: جمع نقرة وهي الوهدة المستديرة من الأرض.

(٣٠) المرنان: القوس.

(٣١) زمت: شدت، ومشزور مفتول، والمرر: جمع مرة وهي قوة الفتل، واللأم: الشديد، والنغر: كصرد البلبل. والعرب تشبه الدقيق بالأوتار وحلاقيم النغران.

(٣٢) القراري: الخياط.

(٣٣) القر: القرار، يقال إذا وقع الأمر موقعه: صابت بقر ووقعت بقر. قال طرفة بن العبد البكري:

كنت منهم كالمغطى رأسه فانجلى اليوم غطائي وخمر
سادرا أحسب غي رشدا فتناهيت وقد صابت بقر

(٣٤) اشتد.

(٣٥) هبر: قطع.

(٣٦) المقر: المر.

(٣٧) أصحرت: برزت إلى الصحراء. ودبوا الخمر: مشوا مختفين. والخمر: ما سترك من شجر أو بناء أو نحوه.

(٣٨) الخير والقوة.

(٣٩) الضيق.

(٤٠) كشر: أبدى عن ناجذيه، وبسر: عبس.

(٤١) أي أحكمت فتله.

(٤٢) جمع ثغرة وهي نقرة النحر.

(٤٣) الألوى: الشديد الخصومة.

(٤٤) أعوج وانثنى.

(٤٥) السبيب: شعر الذنب والعرف والناصية، والعذر جمع عذار.

(٤٦) قصد لفظ هل الاستفهامية فأدخل عليها الألف واللام.

(٤٧) الثنوية أصحاب الاثنين الأزليين وهم الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس فإنهم قالوا بحدوث الظلام.

(٤٨) الحراقات: ضرب من السفن فيها مرامي نيران يرمي بها العدو في البحر.

(٤٩) القعدي من الخوارج: الذي يرى رأي القعدة الذين يرون التحكيم حقا، غير أنهم قعدوا عن الخروج على الناس.

(٥٠) وذلك أنه كان للأمين ثلاث من السفن المعروفة بالحراقات لركوبه خاصة، وهي الليث والعقاب والدلفين.

(٥١) صاحب المحراب هو سليمان بن داود عليه السلام لأنه بنى بيت المقدس.

(٥٢) أهرت الشدق: واسعه. وكالح الأنياب: كاشرها.

(٥٣) لببوه: أخذوا بلببه، وهو موضع القلادة في الصدر.

(٥٤) هو ماني بن فاتك الحكيم، الذي ظهر في زمن سابور ذي الأكتاف بن أزدشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى عليه السلام. اتخذ له دينا بين المجوسية والنصرانية. وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام. حكى محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق، وكان في الأصل مجوسيًا عارفا بمذاهب القوم، أن الحكيم ماني زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا، وأنكر وجود شيء

إلا من أصل قديم، وأنهما لا يزالان قوتين حساستين سميعتين بصيرتين، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادتان، وفي الحيز متحاذيتان تحاذي الشخص والظل. (انظر الملل والنحل للشهرستاني).

(٥٥) هو الخصيب بن عبد الحميد العجمي أمير مصر على الخراج. وإليه تنسب منبة الخصيب بالوجه القبلي وليس بابن صاحب نهر أبي الخصيب، ذاك عبد المنصور يقال له مرزوق. وكان هذا رئيسًا في أراضيه. فانتقل إلى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازي، ثم انتقل إلى الإمارة.

(٥٦) الشطار: جمع شاطر وهو من أعيا أهله خبثا.

(٥٧) الخلم: الصديق.

(٥٨) الندور: خروج العظم من موضعه أو زواله وفي البيت من سوء التركيب ما فيه، والتقدير فيه كما نطرت عقاب لها بأرساغ اليدين ندور والريح ساكنة.

(٥٩) أزيغب تصغير أزغب وهو الفرخ ذو الزغب أي الريش الدقيق اللين. والشكير: الريش أول ما ينبت.

(٦٠) الضريب: الثلج أو الجليد. ويمور: يتحوك أو يجيء ويذهب أو يسيل على وجه الأرض.

(٦١) الحجاجان مثنى حجاج وهو العظم الذي ينبت عليه شعر الحاجب. والذرور: ما يذرر في العين من الدواء.

(٦٢) تسور: تئب.

(٦٣) القتير: الشيب.

(٦٤) عقرقوف: اسم موضع.

(٦٥) نجدت: عرقت.

(٦٦) صور: مائلات.

(٦٧) يرضخن: يكسرن.

(٦٨) زور: جمع زوراء بمعنى مائلة.

(٦٩) جمع شقر وهو الأمر الملتصق بالقلب المهم له.

(٧٠) القرلى: كان لحمير وكان لا يسمع لأحد شيئًا إلا جاء إليه وداخله ولا يتخلف عن طعام لأحد، وإذا سمع بخصومة لم يقرب ذلك، فضرب به المثل حتى قيل لطير من طيور الماء يوفى عليه: القرلى.

(٧١) الفينان: الظل الكثيف، والجرب، أي لا خال فيه.

(٧٢) الغرب: الذهب.

(٧٣) الناطور: حافظ النخل والكرم والزرع وفي البارع: الناطر والناطور بالطاء المهملة حافظ الزرع، من كلام أهل السواد وليس بعربي محض.

(٧٤) الزليل مصدر كالزلل.

(٧٥) أي منهزمى هاجرة، وعبورية نسبها إلى الشعرى العبور وأيام طلوعها أيام الحر الشديد.

(٧٦) يعني الشمس، أي توقفت في الجو عند زوالها. وفاءت بمذقة، أي دخلت عليهم من تلك الخيمة الخلقة التي ثبتت على الأباء الضعيف من القصب الرث فلم تقو الشمس وعليهم لم تمنعهم الخيمة بستر قوي فيصير ظلا ولكنه شمس وظل، فشبهت بالمذوق من اللبن، أي الممزوج.

(٧٧) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتابي التغلبي من ولد عتاب بن أسيد ثم من بني تغلب بن وائل، شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف في فنون الشعر مقدم، من شعراء الدولة العباسية، وكان منقطعًا إلى البرامكة فوصفوه للرشيد ووصلوه به، فبلغ عنده كل مبلغ وعظمت فوائده منه.

وكان حسن الاعتذار في شعره ورسائله وله مصنفات في المنطق والأدب واللغة وكان يقيم في رأس عين بعيدا عن دور الخلفاء والأمراء. وبلغ الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطلب إشخاصه إليه فجاء وعليه قميص غليظ وفروة وخف، وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل، فلما رفع الخبر بقدومه إلى الرشيد أمر بأن تفرش له حجرة وتقام له وظيفة ففعلوا، فكانت المائدة إذا قدمت إليه أخذ منها رقاقة وملحا وخلط الملح بالتراب فأكله بها، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض، والخدم يتفقدونه ويتعجبون من فعله. وسأل الرشيد عنه فأخبروه فأمر بطرده فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلي وهو في منزله فسلم عليه وانتسب له فرحب به وقال له «ارتفع» فقال «لم آتك للجلوس» قال «فما حاجتك» قال «دابة أبلغ عليها إلى رأس عين» فقال: يا غلام، أعطه الفرس الفلاني، فقال: لا حاجة لي في ذلك ولكن تأمر أن تشتري لي دابة أتبلغ عليها: فقال لغلامه: «امض معه فابتع له ما يريد» فمضى معه فعدل به العتابي إلى سوق الحمير فقال الغلام: إنما أمرني أن أبتاع لك دابة: فقال له: أنه أرسلك معي ولم يرسلني معك فإن عملت ما أريد وإلا انصرف: فمضى معه فاشترى حمارا بمائة وخمسين درهما وقال: ادفع إليه

ثمنه: فدفعه إليه فركب الحمار عريا بمرشحة عليه وبرذعة وساقاه مكشوفتان، فقال له يحيى بن سعيد «فضحتني! أمثلي يحمل مثلك على هذا!» فضحك وقال «ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك» ومضى إلى رأس عين.

توفي سنة ٢٢٠هـ وتجد أحباره في الأغاني (ج ١٢ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ٢ ص ١٣٧).

(٧٨) أي متبلغات بالقليل حتى يصلن إليك.

(٧٩) حسده.

(٨٠) الابساس: دعوة الناقة إلى الحلب.

(٨١) النجعة: طلب الكلا في موضعه.

(٨٢) الكلب: القحط وبلاء الشتاء ومرض يصيب الكلاب.

(٨٣) الرائد: الطالب.

(٨٤) الحومة هنا: الجماعة والطائفة.

(٨٥) هو دعبل بن علي بن رزين من خزاعة، أصله من الكوفة وجاء بغداد بطلب من الرشيد. وهو شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أو لم يحسن، ولا أفلت منه كبير أو صغير، فكان الناس يخافونه ويتقونه حتى المأمون فإنه هجاه هجاء شديدا واحتمل ذلك منه. توفي سنة ٢٤٦هـ. وتجد أخباره في الأغاني ج ١٨ ص ٢٩ وابن خلكان ج ١ ص ١٧٨ والشعر والشعراء ص ٥٣٩ والفهرست (ص ١٦١).

(٨٦) يريد أصواتا منسوبة إلى حنين الحيري المغني.

(٨٧) يريد أصواتا منسوبة إلى معبد المغني.

(٨٨) قبيلة من همدان، وأصله جبل نزلوا به فنسبوا إليه.

(٨٩) هو مولى باهلة، ولد في البصرة ونشأ فيها ونادم الخلفاء من بني العباس، وكان خليعا فاسدًا وكان مع ذلك حسن التصرف في النظم ولشعره قبول ورونق، فهو من المتفنين وله معان جديدة في الخمر كان أبو نواس يأخذها عنه، ومع أن أبا نواس مات سنة ١٦٨هـ، والضحاك مات سنة ٢٥٠هـ فقد تعاصرا لأن مولدهما متقارب لأن ابن الضحاك عمر كثيرًا. وهو أول من نادم الأمين وله فيه مدائح كثيرة، وعمر عمرًا طويلا حتى قارب مائة السنة ومات في خلافة المستعين أو المنتصر. وتجد أخباره في الأغاني (ج ٦ ص ١٧٠) وابن خلكان (ج ١ ص ١٥٤).

(٩٠) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.
(٩١) الآء: ثمر شجر واحدته آءة.
(٩٢) المرهاء: التي لا تكتحل.
(٩٣) مبغض متنكر.
(٩٤) جمع معجر بالكسر وهو ثوب تعتجر به المرأة أي تشده على رأسها.
(٩٥) استحكم.
(٩٦) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة واشتهر بابن الزيات لأن جده (أبان) كان يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد، وكان أديبًا شاعرًا عالمًا بالنحو واللغة، وله ديوان شعر ومجموعة رسائل جيدة، وكان في أول أمره من جملة الكتاب ثم صار وزيرًا للمعتصم ولابنه الواثق. ولما تولى المتوكل قبض عليه وأمر بادخاله في تنور من حديد كان ابن الزيات أعده لتعذيب المصادرين وأرباب الدواوين المطالبين بالأموال وقيده بخمسة عشر رطلا من حديد، ثم أمر باخراجه بعد أن مكث فيه أربعين يومًا، فوجدوه ميتا وذلك سنة ٢٣٣هـ. ونجد ترجمته في الأغاني (ج ٢٠ ص ٤٦) وابن خلكان (ج ٢ ص ٧٨).
(٩٧) هو عبد الله بن عتاب من أهل بخارى، وجيء بجده وجماعة معه رهينة إلى الحجاج بن يوسف، فنزلوا عنده بواسط، فأقطعهم سكة بها، فاختطوها ونزلوها طول أيام بني أمية، ثم انقطعوا من الدولة العباسية إلى الربيع فخدموه، وكان عبد الله بن محمد هذا يخلف الفضل بن الربيع على حجبة الخلفاء، وكان صالح الشعر قليله وراوية لأخبار الخلفاء عالما بأمورهم.
(٩٨) الارقال: ضرب من الخبب.
(٩٩) هو إسحاق بن حسان ويكنى أبا يعقوب، من العجم، وهو القائل:

إني امرؤ من سراة الصغد ألبسنى عرق الأعاجم جلدا طيب الخبر

وكان مولى ابن خريم الذي يقال لأبيه: خريم الناعم. وهو خريم بن عمرو من بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان. وعمى أبو يعقوب الخريمي بعد ما أسن، وكان يقول في ذلك شعرا، فمنه قوله:

فإن تك عيني خبا نورها فكم قبلها نور عين خبا
فلم يعم قلبي ولكنما أرى نور عيني إليه سرى
فأسرح فيه إلى نوره سراجًا من العلم يشفى العمى

(١٠٠) مفزعها وذاعرها.
(١٠١) كذا في الطبري في حوادث سنة ١٩٧هـ، طبع بولاق وطبع أوربا.
(١٠٢) كذا في هامش النسخة الأوربية من الطبري. وفي نسخة بولاق وأوربا (في صلبها):

فرغاء ينقى الشنار مريدها

وهي رواية ظاهر عليها التحريف وفساد المعنى.
(١٠٣) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق كان سيدا نبيلا عالي الهمة شهما، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، حسن الالتفات إليه لذاته ورعاية لحق والده وما أسلفه من الطاعة في خدمته، وكان واليًا على الدينور فلما خرج بابك الخرمي على خراسان وأوقع الخوارج بأهل قرية الحمراء من أعمال نيسابور وأكثروا فيها الفساد واتصل الخبر بالمأمون بعث إلى عبد الله وهو بالدينور يأمره بالخروج إلى خراسان، فخرج إليها وحارب الخوارج وقدم نيسابور في رجب سنة ٢١٥هـ. وكان المطر قد انقطع عنها في تلك السنة، فلما دخلها مطرت مطرا كثيرًا، فقام إليه رجل بزاز من حانوته وأنشده:

قد قحط الناس في زمانهم حتى إذا جئت جئت بالدرر
غيثان في ساعة لنا قدما فمرحبا بالأمير والمطر

تولى الشام والعراق ومصر. وتوفي سنة ٢٣٠هـ. وتجد ترجمته في ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٩) والأغاني (ج ١١ ص ١١).
(١٠٤) أنظر ما كتبناه عن يحيى بن أكثم في المجلد الأول (ص ٤٤٠).
(١٠٥) حذفنا بعد هذا البيت أربعة أبيات رأينا أنها تنافي الآداب العامة.
(١٠٦) كذا في الأصل ولعلها صروح.

بيان المصادر العربية والإفرنجية الهامة التي عولنا عليها في المراجعة لكتاب عصر المأمون

نثبت لك هنا الهام من مراجع الكتاب عدا دواوين الشعراء ومعجمات اللغة التي أشرنا إليها في مواضعها من الكتاب وهوامشه. وهي:

المصادر باللغة العربية

- تاريخ الطبري، طبعة مصر وليدن.
- تاريخ الكامل لابن الأثير، طبعة مصر.
- تاريخ مروج الذهب للمسعودي، طبعة مصر وباريس.
- تاريخ اليعقوبي، طبعة ليدن بإشراف المسيو هتسما.
- تاريخ أبي الفدا للملك المؤيد، طبعة الأستانة.
- تاريخ علماء الأندلس لأبي الوليد عبد الله محمد بن يوسف، طبعة أوربا.
- تجارب الأمم لابن مسكويه، طبعة مصر.
- تاريخ العبر والمبتدا والخبر لابن خلدون، طبعة مصر.
- الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري، طبعة ليدن.
- نظم الجوهر لابن البطريق، طبعة أكسفورد سنة ١٦٥٩ للمستشرق إدوار بوكوك.
- تاريخ دمشق لابن عساكر، مخطوط.

- تاريخ المشارقة لصليبا بن يوحنا، مخطوط.
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، مخطوط.
- تاريخ بغداد لابن طيفور (الجزء السادس طبعة أوربا).
- تاريخ التشريع الإسلامي للمرحوم الخضري بك، طبعة مصر.
- تاريخ الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن طباطبا، طبعة أوربا.
- تاريخ النجوم الزاهرة لابن تغريبردي، طبعة أوربا.
- البدء والتاريخ لأبي زيد البلخي، طبعة باريس سنة ١٨٩٩ «أرنست لرو».
- الآثار الباقية للبيروني، طبعة ليبسك.
- مختصر تاريخ الدول لأبي الفرج الملطي، طبعة بيروت.
- تاريخ الإسحاقي، طبعة أوربا.
- فتوح الشام للواقدي، طبعة مصر.
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، طبعة مصر.
- ولاة مصر وقضاتها للكندي، طبعة بيروت.
- مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي، طبعة مصر.
- كشف الظنون لحاجي خليفة، طبعة الأستانة وليبسك ومصر.
- المستطرف للابشيهي، طبعة بولاق.
- معجم البلدان لياقوت الحموي، طبعة ليبسك ومصر.
- المزهر للسيوطي، طبعة بولاق.
- الأحكام السلطانية للماوردي، طبعة أوربا.
- أعلام الناس للاتليدي، طبعة مصر.
- كتاب المعارف لابن قتيبة، طبعة أوربا.
- معجم الأدباء لياقوت الرومي، طبعة مصر وإشراف مرجليوث.
- الفهرست لابن النديم، طبعة ليبسك.
- طبقات الأمم لابن صاعد، طبعة بيروت.
- طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، طبعة مصر.
- تراجم الحكماء للقفطي، طبعة مصر.
- طبقات الأدباء لعبد الرحمن الأنباري، طبعة مصر.
- وفيات الأعيان لابن خلكان، طبعة مصر.

- فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، طبعة مصر.
- الملل والنحل للشهرستاني، طبعة مصر.
- ألف باء ليوسف البلوي، طبعة مصر.
- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، طبعة دار الكتب.
- فتوح البلدان للبلاذري، طبعة ليدن.
- كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني، طبعة ليدن.
- كتاب البلدان لليعقوبي، طبعة ليدن.
- مسالك الممالك للاصطخري، طبعة ليدن.
- المسالك والممالك لابن حوقل، طبعة ليدن.
- أحسن التقاسيم للمقدسي، طبعة ليدن.
- المسال والممالك لابن خرداذبه، طبعة ليدن.
- الأعلاق النفيسة لابن رستة، طبعة ليدن.
- حسن المحاضرة للسيوطي، طبعة مصر.
- بلوغ الأرب في أحوال العرب للألوسي، طبعة بغداد.
- مقدمة إلياذة هوميروس تعريب البستاني، طبعة مصر.
- حضارة الإسلام في دار السلام لجميل مدور، طبعة مصر.
- كتاب الأغاني للأصبهاني، طبعة بولاق والساسي.
- الجزء الأول من كتاب الأغاني، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- نهاية الأرب، طبع مطبعة دار الكتب المصرية والنسخة الفتوغرافية بالدار.
- صبح الأعشى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- كتاب التاج المنسوب للجاحظ، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- كتاب الأمالي لأبي علي القالي، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- كتاب الكامل للمبرد، طبعة مصر.
- كتاب البيان والتبيين للجاحظ، طبعة مصر.
- العمدة لابن رشيق، طبعة مصر.
- كتاب المحاسن والمساوي للبيهقي، طبعة فردرك شوالي.
- كتاب المحاسن والاضداد للجاحظ، طبعة ليدن.
- كتاب البخلاء للجاحظ، طبعة مصر.

- كتاب الحيوان للجاحظ، (نسخة فتوغرافية محفوظة بدار الكتب المصرية).
- كتاب الكشكول للعاملي، طبعة مصر.
- سراج الملوك للطرطوشي، طبعة مصر.
- كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، طبعة ليدن.
- كتاب الخراج لأبي يوسف، طبعة بولاق.
- تاريخ الوزراء المنسوب للصولي، طبعة بيروت.
- أشهر مشاهير الإسلام، للمرحوم رفيق العظم بك، طبعة مصر.
- كتاب نفح الطيب، طبعة مصر وأوربا.
- مفاتيح العلوم للخوارزمي، طبعة مصر.
- مفيد العلوم للخوارزمي، طبعة مصر.
- كتاب المواهب الفتحية للمرحوم الشيخ حمزة فتح الله، طبعة مصر.
- كتاب السيرة لابن هشام، طبعة مصر.
- مقدمة ابن خلدون، طبعة مصر.
- خطط الشام للأستاذ محمد كرد علي، طبعة دمشق.
- مجموعة مجلة المشرق، طبعة بيروت.
- مجموعة مجلةالمجمع العلمي، طبعة دمشق.
- مجموعة مجلة الهلال، طبعة مصر.
- مجموعة مجلة المقتطف، طبعة مصر.
- بعض فصول ومباحث من المجلة الأسيوية.
- حديث الأربعاء للدكتور طه حسين، طبعة مصر.
- منهل الرواد في علم الانتقاد لقسطاكي الحمصي بك، طبعة مصر.
- محاضرات الأستاذ الإسكندري المدرس بدار العلوم، طبعة مصر.
- الوسيط للأستاذ الإسكندري المدرس بدار العلوم، طبعة مصر.
- أدبيات الغة العربية للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، طبعة مصر.
- أدبيات اللغة العربية للمرحوم عاطف بركات بك وزملائه، طبعة مصر.
- مهذب الأغاني للمرحوم الخضري بك، طبعة مصر.
- بلاغة العرب للدكتور أحمد ضيف، طبعة مصر.
- الشعر والشعراء لابن قتية، طبعة ليدن.

- طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي، طبعة ليدن ومصر.
- العقد الفريد للملك السعيد، طبعة مصر.
- العقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة مصر.
- لطائف المعارف للثعالبي، طبعة ليدن.
- عيون الأخبار لابن قتيبة، طبعة دار الكتب وأوربا.
- حلبة الكميت، طبعة بولاق.
- خزانة الأدب لابن حجة الحموي، طبعة بولاق.
- خزانة الأدب للبغدادي، طبعة بولاق.
- محاضرات الفلسفة لسنتللانه بالجامعة المصرية.
- محاضرات علم الفلك بالجامعة المصرية للسنيور كرلو نلينو، طبعة روما.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة. لطاشكبري زاده، طبعة حيدر آباد.
- محاضرات الشيخ عبد الوهاب النجار بالجامعة المصرية.
- محاضرات المرحوم الشيخ محمد المهدي بالجامعة المصرية.
- محاضرات الأستاذ الخضري بك في تاريخ الأمم الإسلامية، طبعة مصر.
- محاضرات الأستاذ الخضري بك في تاريخ الدولة الأموية، طبعة مصر.
- التمدن الإسلامي للمرحوم جورجي بك زيدان، طبعة مصر.
- تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جورجي بك زيدان، طبعة مصر.
- طبقات ابن سعد، طبعة أوربا.
- طبقات الشافعية للسبكي، طبعة مصر.
- المنثور والمنظوم لابن طيفور.
- رسالة بني أمية للجاحظ، خطية.
- كتاب الوزراء والكتاب لأبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري طبعة فينا سنة ١٩٢٦.
- كتاب الاشتقاق لابن دريد الأزدي طبعة جوتنجن سنة ١٨٥٤.
- الأوراق للصولي، خطية.
- مطبوعات تذكار جيب الإنجليزية وخاصة مؤلفات الأستاذين مرجليوث وبرون.
- زهر الآداب للحصري، طبعة مصر.
- المشتبه في أسماء الرجال للذهبي، طبعة أوربا.

- الوافي بالوفيات للصفدي (المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢١٩).
- أخبار أبي نواس لابن منظور، طبعة مصر.
- رسائل البلغاء لأستاذ محمد كرد علي، طبعة مصر.
- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد، طبعة مصر.
- المفضليات للضبي، طبعة مصر.
- حماسة البحتري، طبعة بيروت.
- الصناعتين لأبي هلال العسكري، طبعة مصر.
- الموشى لأبي الطيب، طبعة أوربا.
- ديوان الحماسة لأبي تمام، طبعة مصر.
- مجاني الأدب وشرحه، طبعة بيروت.
- مختارات البارودي، طبعة مصر.
- حياة الحيوان للدميري، طبعة مصر.
- عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي (أجزاء منه محفوظة بدار الكتب المصرية).
- الفرج بعد الشدة للتنوخي، طبعة مصر.

المصادر الإفرنجية

- Histoire des Arabes par Cl. Huart: Paris.
- Life of Mohamet by Sir W. Muir. (London).
- The Life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam by Ameer Ali. (London).
- D. S. Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam. (London) in “Heroes of the Nations’ Series”.
- H. Lammens: “Etudes sur les régnes des Califs. Omaiyades Moawia 1er et Yasid 1er”. (Beyiouth).
- Library of Universal History (N. Y.).
- History of Arabic Literature: Cl. Huart. (London).
- A Literary History of Persia: Ed. G. Browne. (London).

- A Literary History of the Arabs by R. A. Nicholson. (London).
- Short History of the Saracens by Ameer Ali, (London).
- The Caliphate: its rise decline and fall by Sir W. Muir. (London).
- Annals of the Early Caliphate by Sir W. Muir. (London).
- Baghdad during the Abbasid Caliphate by G. le Strange. (Oxford).
- Encyclopaedia of Islam. (Luzac).
- Encyclopaedia Britannica. (London).
- La Grande Encyclopédie. Paris.
- The Historians' History of the World by H. S. Williams. (New York).
- Ency. of Religion & Ethics by I. Hastings. (London).
- The History of the Decline and Fall of the Roman Empire by Gibbon. (London).
- The History of Philosophy in Islam by J. de Boer translated by Jones. (London).
- Muhammedanische Studien by Ignaz Goldziher, (Halle).
- Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu' à la Conquête de l'Andalusie par les Almoravides by R. Dozy. (London).
- Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory by D. B. Macdonald. (London).
- Margoliouth's Works Etc.
- R. Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes. 1927.
- Bibliothek Arabischer Historiker und Geographen: Hans V. Mzik, (Leipzig).